

# رحلة الألف يوم

(رواية حقيقية)

رحلة الألف يوم .. رواية

كتبها/أسامة على الصادق

.....

الطبعة الأولى .. سبتمبر ٢٠١٢

الطبعة الثانية .. نوفمبر ٢٠١٣

الناشر: الكاتب

.....

تصميم الغلاف

المهندسه ريهام سهيل

حقوق الطبع محفوظة للكاتب

موبايل: ٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

[oelsadek@gmail.com](mailto:oelsadek@gmail.com)

رحلة الألف يوم

(رواية حقيقية)

كتبها/ أسامة علي الصادق



## إهداء

أتقدم بهذه الرواية الواقعية في أحداثها ويطلها يدعي عم جبر إلى القارئ ليعلم حقيقة شعب مصر .. كيف عاش هذا الشعب طيلة قرون طويلة لا يعكر صفو حياته أي شيء غير طبيعي، فلا يعرف التفضيل والتمييز بينه وبين آخرين، فنحن نسمع ونضحك على النكات التي تلقى على الشعوب الأخرى ولكن هذا من باب الفكاهة وحين الواقع تجد الاحترام والتعاون والحب، حتي الشعب الإنجليزي أطلقنا عليه العديد من النكات نظراً لاحتلال جيشه أرض مصر وسوء معاملته للشعب المصري، أيضاً الاحتلال العثماني "التركي" وما عليك سوى مشاهدة الأفلام والاستماع للأغاني والنكات التي تلقي على الأتراك رغم أن الكثير من أبناء مصر يفخر بأن لهم أصولاً تركية.

في تلك الرواية سوف نشاهد التعاون والحب بين الفقير "عم جبر" وبين الغني المتكف "السيدة مادلين" ، سوف نشاهد كيف يقوم المسلم بحماية غير المسلم حين تعرضه لضائقة أو كرب أو محنة، لم يتوقف أو يمتنع عم جبر عن مد يد المساعدة للسيدة مادلين لأنها غير مسلمة؛ كما لم تنفعه الغرائز الشيطانية وسوء الخلق أمام انفرادها بتلك السيدة الجميلة لفترات طويلة بمناطق نائية وينهج نهجا يخالف تعاليم ربه وينال مآربه منها؛ لأن هذا مخالف للدين وأيضاً مخالف للأخلاق والتقاليد التي تربي عليها شعب مصر، يعتبر عم جبر المثل الواضح لحب المصريين للحياة وفي الوقت نفسه الصورة الطيبة لابن النيل الذي تربي على المبادئ والبعد عن المعاصي والتعاون رغم ما نشاهده الآن من سلبيات لكن الجزء الأعم في سلوك المصريين هو الحب والتآخي.

لن أطيل في تلك الكلمات لكني رغبت بأن أهدي تلك الصفحة لأبناء مصر من الشباب من الجنسين وأقول إن سعادة الآخر هي سعادتني، وصون عقيدة الآخر صوناً لعقيدتي وكما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) .. صدق الله العظيم. .. سورة الكافرون

فما بالنا بأن يكون شركاء الوطن والعمل والجيرة هم من أبناء ديانة وأهل كتاب وليسوا كفاراً، تلك هي جوهر الحياة الطيبة التي يعشقها الشعب المصري فلم يخلط بين الإنسانية والعقيدة؛ لأنه تفهم ووعي كتاب الله بأن الوطن للجميع والخلق القويم هو نبراس الصالحين، أما العقيدة فقد أوجزها الله عز وجل حين قال " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ "

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) صدق الله العظيم .. سورة البقرة

ثم تلك السورة الرائعة والتي توضح ما قاله الله في كتابه العزيز عن إخوتنا في الوطن حيث قال:

لَتَجِدَنَّ أَشْدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسْمِينَ وَرُهْنَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

يَمْتَكِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) .. صدق الله العظيم .. سورة المائدة

بعد أن تحصنا بكلمات الله عز وجل يحق لنا البدء بسرود وقائع الأحداث التالية والتي تعطي قيمة كبرى للحب والتضافر والتعاون بين بني البشر بعد أن يتجرد الإنسان من كل ما هو سييء ورديء، سوف نحيا ونظل كبشر لأبناء آدم عليه السلام ونحن جميعا نتوجه لله الواحد القهار وعلي كل إنسان أن يعلم أن الله يعلم ما تخبئه الأنفس، ويصبح الحساب بناء على ذلك وليس على المظاهر والأسلوب الحنجري الفوضوي الذي يرغب بأن يصبح جميع المصريين قد اعتنقوا دين الإسلام متجاهلين ما أنزله الله عز وجل في صورة "الكافرون" ؛ ولهذا أقول: أيها المؤمنون المعلمون، قليل من الاستيعاب والفهم والتمسك بكتاب الله وسوف تنجو من المخاطر وتصبح أتقياء مثل عم جبر.

## المؤلف



الجزء الأول

رحلة بالبحر الأحمر



## مياه زرقاء وعيون خضراء

المحاسب محسن حلمي: شركة بترول بلاعيم بأبو زنيمة .. شبه جزيرة سيناء: كنت أجلس بمكتبي للعمل مثل كل يوم، بعد مضي عدة ساعات غادرت حجرة المكتب ووقفت أمام منطقة المكاتب، تلك هي مكاتب شركة بترول بلاعيم والتي أعمل بها منذ تسعة أعوام بعد أحداث حرب السويس أو ما يعرف بالعدوان الثلاثي، شركة بترول بلاعيم حديثة؛ فلم تعمل إلا منذ سبعة أعوام ولم تبدأ في الإنتاج الفعلي والاقتصادي إلا منذ خمسة أعوام فقط، مباني الشركة معدة ومشيدة بالطوب والأسمنت وهذا يؤدي لأن تحتفظ الحجرات بالحرارة وبالأخص خلال فصل الصيف، منطقة المكاتب مكونة من ثلاثة مبان بالإضافة إلي منطقة إدارية؛ يعمل بالإدارة اثنا عشر موظفا ما بين محاسبين وأفراد ومسؤولي العهدة ومدير فرع الشركة، وفي المقابل تقع مباني سكن الموظفين وهي عبارة عن شقق صغيرة مزودة بما يلزم للإعاشة، في منتصف تلك الشقق توجد "قاعة الطعام" المخصصة للعاملين بالشركة حيث نجتمع لتناول الطعام أو للتصلياة كل مساء بعد انتهاء العمل.

علي الجانب الآخر والذي يبعد عنا قرابة خمسمائة متر توجد الإدارة الهندسية والتي يعمل بها حوالي خمسة وعشرين فردا من الفنيين ويتولي إدارتها بكفاءة منذ وصول الشركة لهذا الموقع المهندس شوقي غالي، هو شاب هادئ الطباع يجيد عمله كما أنه محبوب من زملائه بالإضافة إلي حبه للبريمة التي هي كل حياته وسر نجاحه في العمل؛ البريمة تقع بالقرب من مكان تواجد المهندس شوقي الذي يعاونه عدد من مهندسي البترول والجيولوجيا وبعض

## الكوادر الفنية الأخرى.

جميع العاملين يقيمون بالموقع الإداري الذي نوهت عنه باستثناء المهندس شوقي الذي يقيم بمبنى صغير فاخر نسبيا بجوار البريمة، هو الذي طلب بأن يصبح مكان إعاشته بجوارها؛ لأن البريمة كل حياته ومستقبله، لا ينام إلا بعد الاطمئنان عليها وفي الصباح تكون البريمة أول من يقدم لها التحية، وإذا حدث عطل بالبريمة تشاهد الحزن على وجهه ويصبح بانئسا كأن أحد أبنائه أصابه المرض رغم أنه تزوج حديثا منذ ثلاثة أعوام ورزقه الله بطفل أطلق عليه اسم "شادي".



أشاهد عم جبر والذي يعمل كرقيب أي "شاويش" ومسئول على الحفاظ عن أمن موقع الشركة ويتبع مديرية أمن السويس حيث مقر الشركة الرئيسي هناك هذا الرجل يعتبر أسطورة هذا المكان؛ فقد ورث عن أجداده الفراعين الهدوء والصبر والجلد، لا يتن ولا يتذمر أو يشكو؛ يعمل بهدوء ونادراً ما أشعر بأنه حصل على إجازة كي يقضيها مع أسرته التي تقيم بإحدى قري محافظة أسيوط لقد لقبه جميع العاملين بعم جبر لأنه الأكبر سناً؛ كما أنه دائماً ما يلقب كل منا بلقب يسهده ولا ينادي علي أحد منا باسمه مجرداً، يحترم الجميع وإذا ثار عليه أحد أو انفعل لا تشاهد علي ملامح وجهه الطيبة سوى الابتسامة وآثار دموع بعينيه تخبر الذي أمامه بأنك تجاوزت الحدود وأنا رجل تعدي عمري الخمسين عاما بثلاثة أعوام ولي أبناء وبنات في مثل سنك.

يتحرك عم جبر مغادرا المكان تاركا من تجاوز في حقه بعد أن يلقي عليه كلمات قليلة: /عذرك لحضرتك وريتا يسامحك، بعدها يتوجه لعمله، فهو دائم المرور علي المواقع، ومن طول فترة خدمته بالشركة بهذا الموقع تفهم الكثير من الأعمال اليدوية التي يقوم بها العاملون وكثيرا ما قدم يد المساعدة لهم حين مرض أحدهم أو نزوله إجازة، كما أنه تفوق في أعمال لحامات المعادن سواء بلحام "اللبة أو الأكسجين" أو لحام الكهرياء وحين دهشت لهذا وسألته عن سر إجادته لهذا العمل أجاب بأنه ظل يشرف لعدة سنوات علي إحدي ورش وزارة الداخلية التي تقوم بمثل هذا العمل وأحبه وتدريب عليه، لا أعلم المسبب في ارتدائه بدلة العمل الرسمية السوداء المصنوعة من الصوف الخشن سواء صيفا أو شتاء، حينما سألته عن هذا ابتسم وتحدث لي وهو يشير بما يعني بأنها كلها ملابس قانلاً بعبارة سهلة:

. كده جبر وكده جبر .. صيف إيه وشتا إيه؟

أثناء الليل لا أشاهد عم جبر، نتساءل جميعا عنه دون أن نعثر علي إجابة إلي أن لاحظته أحد العمال الذي ارتاب في سلوكه حيث شاهده حين يقبل الظلام يتحرك بعيدا عن موقع الشركة بأكثر من خمسمائة متر، يتحلل من ملابسه ويقوم بالقفز في مياه الخليج يلهو ويمسح وخلال سباحته تلك يقوم بصيد أسماك "الجمبري" والكابوريا، بعد هذا يغادر المياه ويشعل بعض العشب ويقوم بشواء ما رزقه به الله.

أحد الأيام قررت مشاهدة المنطقة التي يلهو بها عم جبر، سرت مسافة طويلة حتي ابتعدت ولم أعد أشاهد مبانى الشركة حيث كانت المنطقة التي

يسبح ويلهو بها عبارة عن نقوه بالخليج ومن يلهو بها لا يراه أحد إلا حين الاقتراب المباشر منه، المنطقة بها كمية من الزمال الناعمة التي تساعد علي اللهو والسباحة وليمت بها صخور مثل باقي مناطق الخليج، أحد الأيام سألته ما اسم البلاج التي تسبح به يا عم جبر؟ لم يفهم الرجل معني كلمة بلاج فشرحت له المعني ، ضحك مررداً:

. اللي تجول عليه .. مش عارف .. ايه رأيك في نفرتيتي؟ تساعلت:

. لماذا نفرتيتي؟ أجاب بهدوئه والبسمة تعلق وجهه ونقطة خضراء علي جانب شفقه اليمني العليا من أثر وشم قديم؛ حيث ردد قائلاً:

. فيه حته في مطروح بيحولوا عليها كليوباترا .. طيب نجول علي دية نفرتيتي عشان هيا تبجي مستنا كلنا مش برضه تبجي كده؟ ضحكت من حديثه مؤيدا كلامه واستنصاره.

\*\*\*

أشعر الآن بالراحة من مجهود العمل بعد الوقوف أمام المكتب تلك الفترة للتريض، أشاهد عم جبر راكبا أعلي عربة نصف نقل تخص الشركة وتتبع المهندس شوقي، توقفت السيارة وهبط منها المهندس شوقي أمام المكاتب وصعد مرحباً والمعادة هي حاله حيث كان يردد:

. مرأتى جت تقضي كام يوم معايا ومعاها طبعا شادي ابني، ايه رأيك

والله أنت راجل جدع وجريء، لكن أعتقد أنه رغم أن ما فيش ناس هنا لكنها ح تتبسط من المكان الساحر، مش تتسي تخلي جبر يعرك مكان بلاج نفرتيتي .. ضحك مردداً:

. بلاج نفرتيتي .. ده معقول .. فيه بلاج بالاسم ده؟

. أيوه .. اسأل عم جبر .. ردد شوقي:

- الراجل ده تعب معايا النهارده .. راح معايا لحد مدينة الطور وقابلت مراتي وشال الشنط الكثيره بتاعتها وزى ما أنت شايف قاعد فوق العريية تحت الشمس ولا بيشتكى ولا يتكلم .. راجل طيب .. أسيبك يا محسن دلوقتي تركني شوقي وغادر المكان، عدت للجلوس علي مكتبي كي أوصل العمل وأنا أردد:

- الله معاك يا عم جبر .. أكل العيشُ مر وكتر العيال دفعته لأن يبقي بعيداً عنهم عشان تلاته جنيه زيادة في المرتب لأن مرتبه في أسيوط ميزينشي عن سبعة جنيه، دايمًا يشكر ربنا ويقول إن الحالة كويسه ووصل راتبه لعشرة جنيه إلا تلاته صاغ!!!

شوقي عالي:

كانت ليلة جميلة؛ حيث أنام وأشاهد زوجتي الجميلة تنام بالمسرير الآخر بجوار شادي ابني الجميل الذي بلغ العام ونصف العام، قررت أن يتولي عم جبر رعاية "زوجتي مادلين وابني شادي" أثناء لهوهم علي البلاج الذي أخبرني عنه المحاسب محسن، مازلت أدقق النظر في مادلين، تلك الزوجة الفاتنة رائعة

الجمال وأردد: لقد ورثت كل شيء عن جدتك نفرتيتي باستثناء الملك، هي كانت ملكة علي عرش مصر وأنت ملكة علي عرش شوقي غالي؛ أشاهدها تنظر إليّ بدهشة وعيناها الخضراوان الجميلتان اللامعتان الساحرتان لا أشبع من النظر إليهما.

اليوم التالي كنت متوجهاً لعملي وشاهدت عم جبر يحمل شمسية البحر وكرمسي بلاج وبعض أغراض زوجتي تنفيذاً لما طلبته منه بالأمس من رعايتها ورعاية الطفل وأن يقوم بإرشادهم لبلاج نفرتيتي، أتساءل: ألا يترك هذا الرجل الملابس الشتوية السوداء المصنوعة من الصوف؟ فالحرارة هنا شديدة، كيف يتحمل تلك الحرارة؟ تركت الأسئلة الخاصة بعم جبر وتبتهت بأنه من الواجب عليّ الاطمئنان علي مادلين وعلي طفلي ولأري هذا البلاج حتي أصبح هادئ البال أثناء عملي، لقد وصلت زوجتي إلي المكان برفقة عم جبر، أشاهده يقوم بتثبيت الشمسية بالأرض بعد هذا قام بوضع الأغراض الخاصة بها فوق أحد الكراسي، أشاهده يغادر المكان حينما همت زوجتي بالتخلي عن الروب وأسفله ترقدى ملابس البحر.

### مادلين:

أشاهد شوقي يسرع بالقدوم جهتنا، هذا الزوج المحب لي يشعر بالغبرة حين بعدي عنه؟ لماذا هذا الشعور؟ هل أنا فاتنة لتلك الدرجة كما أخبرتني العديد من الصديقات وأيضاً من نظرات الإعجاب من بعض الرجال الذين ألتقي بهم بالطريق بمدينةنتا الجميلة الغنيا، أين هذا الرجل العجوز المدعو جبر؟ كيف يبتعد عنا وقد أخبره زوجي بأن يظل في حمايتنا وخدمتنا .. ولكن لا يجب

عليّ أن أتعامل معه بتلك القسوة فهو رجل كبير في السن ويقارب عمره من عمر أبيي كما أنه لا يا يتأفف أو يصيبه الملل بأن يعمل كخادم لي ولابني كل هذا عن طيب خاطر وليس هذا عمله فهو رجل يتبع مديرية أمن السويس وأعتقد بأنه يقوم بهذا العمل حبا في الناس، أشاهد زوجي العزيز قائما في اتجاهنا، أتساءل:

. لماذا أقبلت يا شوقي وتركت عملك؟

. لم أترك عملي يا عزيزتي، فلقد جئت للاطمئنان عليك وسأعود أدراجي وأنا مطمئن عليك وعلي شادي طالما عم جبر برفقتكما.

. لقد تركنا الرجل وغادر المكان.

. لا أعتقد هذا يا مادلين، فقد شاهدته أثناء قدومي يجلس خلف الصخور التي أمامك، لأنه يخجل أن يشاهدك بملابس البحر.

. شيء غريب، ألم يشاهد نساء بملابس البحر قبل هذا؟

. لا يا حبيبتي، فالرجل لا يذهب لتلك المناطق، هو رجل طيب يعشق عمله ويدخر كل قرش من أجل أبنائه الذي وصل عندهم إلي سبعة يدرسون بمختلف مراحل التعليم، وآخرهم بعمر الرضاعة مثل شادي

. لا يا شوقي .. شادي حبيبي مازال أمامه ستة أشهر كي ينتهي من مرحلة الرضاع، ويعتمد على الطعام رغم أنني أزوده ببعض الأطعمة التي من السهل

عليه تناولها وهضمها، لقد كبر وأنت تشاهده يمشي بعض الخطوات وقد تعدي  
عمره العام ونصف العام

- سوف أتركك الآن عزيزتي، سأنادي علي عم جبر كي يقبل ويجلس بجوار  
الشمسية حتى يراعي شادي أثناء لهوك بالماء.

نعم الرأي حبيبي، أستودعك الله، سوف أدعو عم جبر للقدم كي أزيل عنه  
الخبث من وجودي: أقبل يا عم جبر .. لا تخجل مني .. أرجوك أن تجلس  
بجوار شادي حتي أنتهي من اللهو بالمياه الجميلة الرائعة، ينفذ ما طلبت  
أشعر بمتعة كبيرة والمياه الصافية الرائقة من حولي رغم دفء المياه أيضاً  
وجود عم جبر يراقب شادي أثناء لهوه ويمنعه من وضع الرمال بفمه أو شرب  
بعض مياه البحر .. أشعر بسعادة للتقارب بين الاثنين .. فعم جبر في عمر  
جد شادي بينما شادي هو الحفيد، أرى التقارب بين الشخصيتين؛ حيث  
الابتهام لا تفارق فم عم جبر من تصرفات شادي العفوية التلقائية، سوف  
أكتفي بتلك الفترة وأغادر المياه حتى لا تؤثر درجة الحرارة وأشعة الشمس علي  
بشرتي فتسبب لي التهابات، مازلت أنظر لمياه خليج السويس الجميلة، هذا  
المنظر الطبيعي الخلاب يسحر العيون، أتمني أن أظل العيش بهذا المكان  
وهذا الهدوء الذي يسبغ ويفرض نفسه علي المكان، لا ضجيج ولا تلوث، آه يا  
أمي تقفين الآن مع أبي، وأنتما في حالة من التوتر بسبب بعدي عنكما نظرا  
لأنكما دائما كنتما تلاعبان شادي وتسعدان بوجوده وأيضا وجودي معكما نظرا  
لأنني الابنة الوحيدة.

هذا هو اليوم العاشر لوجودي بصحبة زوجي وخلال الأيام السابقة نما إلي

علمنا أن حالة من التوتر السياسي حدثت بين مصر وإسرائيل ولم نهتم بهذا الأمر نظرا لبعدها عن المنطقة الحدود الإسرائيلية كما أكد بعض زملاء زوجي بأنها زريعة في فنان سرعان ما تنتهي، في تلك الليلة فوجئت أنا وزوجي بعم جبر يحضر بالمساء حاملا وعاء من الصفيح ورائحة زفارة الأسماك تتصاعد منه؛ قدم العبوة لزوجي وحينما تصاعل عما تحويه تلك العبوة أخبره بأنها ممتلئة بحيوان الكابوريا البحري وقام بسلق الكابوريا وما عليكم سوى تناول الطعام والتمتع بحلو مذاقه.

كنت أنا وزوجي نتسابق لالتهام الطعام حتي أتينا عليه ونحن نشعر بسعادة لتلك الوليمة غير المتوقعة مما دفعني لأن أخبر شوقي أن يطلب من عم جبر إعداد كمية من الكابوريا كل يوم لكنه رفض هذا متعللا بأن هذا العمل لا يدخل في نطاق عمل الرجل وسوف يصبح هذا عبئا بدنيا شاقا يتحمله وقد يدفع هذا بعض العاملين لأن يحزنو حزونا.

مازلت أشعر بالمتعة من السباحة والجلوس لبعض الوقت علي شاطئ الخليج بعد أن استخدمت الكريم المرطب حتي لا تلتهب بشرتي .. أيضا أشاهد شادي يلهو بجواربي بل ويلعب علي حافة المياه الضحلة بعبوة من البلاستيك ويملؤها بالماء ويقوم بعمل حفرة صغيرة ويفرغ بها ماء البحر تحت رقابة عم جبر بينما الرياح والهدوء يدفعانني للنوم والحصول علي غفوة قصيرة تعيد إلي حيويتي ونشاطي بعد أن زادت سعادتني بما صبه زوجي في أذني صباح هذا اليوم بأن جمالي وقتنتني زادت وأصبحت ملفقة للنظر عما سبقه وأجبتة وأنا مبتسمة وسعيدة بأن كل هذا عائد لوجودي بجوارك وحصولي علي حبك وحنانك كما أن المياه الجميلة وكابوريا عم جبر اليومية كان لها

الأثر الفعال علي حالتى الصحية والنفسية.

مازال عم جبر يتبع منهجه الذى شاهده عليه منذ أول لقاء به، تأدية الخدمة بهدوء وتقديم كل احترام لى مع عدم تسليط نظره علي شخصى حتى حين الحديث معه مما دفعنى لأن أفكر بهذا الرجل فى بعض الحالات والأوقات متمنية بأن تصبح أخلاق عم جبر هى أخلاق جميع المصريين وأيضاً أسلوب احترام النساء الذى يتزامن مع الخجل والحياء الذى يتصفون به وألا يندفعوا فى الحديث عن النساء ببعض الكلمات السيئة؛ بدأ يتسلل إليّ شعور طيب نحو هذا الرجل، أصبحت أنظر إليه بأنه البديل لأبى الذى تركته بمدينة المنيا منذ أسبوعين، كان طيب الخلق هادئ الطباع يشعرني بحب وحنان الأب كما كان يحمل شادى أثناء عودتنا من هذا المكان البديع إلي الاستراحة رغم أنه كان يحمل شمعية البحر والكرسى الذى أجلس عليه وكولمان المياه المثلج ورغم هذا لم يكن يشعر بالتعب أو الإرهاق ومازالت البسمة الطيبة تثير وجهه.

## وداع الأحلام والهدوء

قرر شوقي أن أعود أنا وابني شادى إلي المنيا فمازال التوتر سائداً علي الحدود بين كل من مصر وإسرائيل .. طلبت منه الانتظار لمنتصف شهر يونيو كي تنتهي إجازتي من العمل والتي حصلت عليها لكنه أخبرني بأنه علم من أحد رؤسائه بالشركة بأن الإدارة أرسلت إليهم بتحذير بالاستعداد لغلق البئر والعودة إلي مقر الشركة بالسويس لأنه من المحتمل أن تتأزم الأمور ومن أجل هذا قرر شوقي أن أغادر موقع عمل الشركة مساء الخميس الموافق الثامن من شهر يونيو عام ١٩٦٧ مع السيارة المتجهة إلي السويس.

هكذا سوف تنتهي المتعة الطيبة والتي قضيت خلالها ثلاثة أسابيع من أجمل ما قضيته من متع علي شاطئ البحر والشمس والهدوء والمناظر الطبيعية الخلابة، ورغم أنني سوف أفقد كل هذا إلا أن ما كان يشعرنني بالألم هو فراق عم جبر هذا الإنسان الطيب العطوف علي وعلي ابني شادي فقد مكنتني من اللهو والمتعة كما لم أهو علي أي شاطئ آخر والسباحة أيضاً رغم زيارتي المتكررة كل صيف لأحد شواطئ الجمهورية، بالإضافة إلي تلك الشخصية الفريدة المتمثلة في عم جبر والتي من النادر العثور علي مثل لها بل وصعب المنال، لقد تعلقت بهذا الرجل بل إن طفلي كان يجرى نحوه رافعا يديه الصغيرتين كي يحمله علي ذراعيه كعادته.

هذا يوم عادي مثل الأيام السابقة حيث كنت أنتظر الأيام الباقية وأنا أشعر بحالة من الحسرة والألم، كان هذا يوم الإثنين الموافق الخامس من شهر يونيو، كعادتي توجهت لشاطئ نفرتيتي كما أطلق عليه هذا الاسم

الشوايش جبر أو عم جبر .. فعلا هو شاطئ جميل لكن الأجل أنه يحمل اسم الملكة نفرتيتي رمز محافظة المنيا التي أنتمي إليها بحكم نشأة أسرتي منذ دهر طويل.

قاربت الساعة من الواحدة ظهرا وشعرت أن شمس هذا اليوم قاسية خاصة أن شادي ترنح وراح في سبات؛ وضعه عم جبر أسفل ظل الشمسية وفرد علي جسده الصغير فوطه وجلس قريبا منه يبعد عنه الذباب الذي أقبل لتلك المنطقة ليكون في استقبالنا، فجأة سمعنا أصوات طائرات ظهرت بعد هذا بقليل ودارت دورة واحدة فوق مقر الشركة ثم أعقب هذا انفجارات قوية ولهب يتصاعد وأدخنة.

وقفت لفترة بداخل المياه ثم هرولت مسرعة في اتجاه الشمسية أستر جسدي بالروب الذي أضعه علي لباس البحر راغبة في حمل شادي الذي فزع من نومه وصرخ باكيا من شدة الانفجارات أشار لي عم جبر بالسكون في هذا الوقت بل أنه طلب مني أن أركد أسفل الشمسية خشية حدوث غارة مفاجئة بينما كنت شغوفة للاطمئنان علي شوقي، أثناء حديث عم جبر سمعنا أصوات موتورات عالية ثم تبين فيما بعد أنها لدبابات وسمعنا أصوات رشاشات تدوي بالمنطقة، ظل هذا الحال لمدة ساعة أخري وقد قاربت شمس هذا اليوم المسيء أن تغادر سماء سيناء.

أدركتُ حسن استنتاج عم جبر فجلست قابعة أسفل الشمسية، لم أكن اشاهد موقع الشركة نظرا لأن المنطقة التي بها شاطئ نفرتيتي تقع في منطقة صخرية منخفضة عن موقع الشركة كما تبعد مسافة لا تقل عن ٥٠٠ متر

علي الأقل، هي منطقة منخفضة أي مقعرة وبالتالي كنا في حالة اختفاء طبيعي عما يحدث بموقع الشركة لكن ما وصل إلي سمعنا من أصوات وأيضا ما شاهدناه من أذخنة متصاعدة أضحى كل هذا بجلاء أن ما حدث للعاملين بمقر الشركة شيء ضار، تأكد لي بعد هذا أنه شيء سيء.

ظللنا قابعين علي شاطئ الخليج ولاحظت أن عم جبر هادئ لكنه مشغول البال ولم ينبس بكلمة أو يتحدث أو يخبرني بما توقعه؛ ظل الرجل ساكنا بعد أن أطلق تحذيره في بداية الأحداث بأن نظل في مكمننا حتي نعلم ما يحدث بموقع الشركة، كل هذا أثار ضيقي وانفعالي، وكدت أصرخ به لكني شعرت بأن الزمن تبدل وتغير، ومن الواجب علي أن أعد نفسي لتلقي التعليمات منه أو من آخرين، فقد مضت أربع ساعات ولم نسمع أو نشاهد أحداً من العاملين قائماً نحونا يخبرنا بما حدث كما أن زوجي هو الآخر لم يكلف نفسه المجيء ليطمئن علي حالي أنا وابنه، هذا يؤكد بأن كارثة أهدقت بهم جميعاً.

نظر إليّ عم جبر وتحدث همساً، طلب مني البقاء برفقة شادي في هذا المكان وسوف يغامر ويتوجه لموقع الشركة كي يعلم ما حدث، بكيت وطلبت منه البقاء فأنا أخشي علي نفسي وعلي ابني من الأعداء ويتركنا بهذا الوضع لهو شيء قاس فوق طاقتنا ولا أستطيع تحمله، رجائي بأن أتحمّل وما هي إلا نصف ساعة ثم يعود ثانية إذا كتب له الله الحياة؛ أزعجني هذا القول وفكرت بسرعة ماذا يحدث لي ولابني شادي إذا حدث مكروه لهذا الرجل من نيران الأعداء، وكيف سوف يصبح عليه حالنا؟ فهو يعرفني وأعرفه وسيكون رجيما بي وبابني أما الآخرون فأنا أعلم مقدار ما يتصفون به من إجرام وقسوة.

تركتني الرجل وسار هادئاً كأن شيئاً لم يحدث وعيناي تودعانه ببيكاء صامت إلا من نحيب مكتوم ودموع غزيرة، أيقنت خلالها أن الدنيا أصبحت سواداً وأن نهايتي أضحت اليوم، وسوف ألحق بزوجي ورفاقه، شاهدته علي مرمي النظر ومازال يمسير الهويينا بنقّة أحمره عليها كأنه يمسير بموقع الشركة قبل الهجوم المباغت من الأعداء، تلاشي ظل الرجل، نظرت من حولي والعسكون قاس لا أستطيع تبديد هذا الصمت الرهيب حتي أن شادي غلبه النعاس ولم أعد أسمع سوى أصوات الأمواج وبعض أصوات صفير الرياح حين تصطدم بالصخور القريبة.

جلست صامتة ووضعت ابني علي ساقي والتحفت بملابسي الخفيفة الشفافة راغبة بأن أخبئ كل ما هو يثير غرائز الآخرين فلا أعلم من هو العدو القادم وأنا بهذا الوضع المرعب لأعصابي، شعرت بأنني في طريقي إلي مقصلة كي تنهي حياتي التي كنت أتمتع بها من قبل، لقد ولي الزمن الجميل ولم يتبق سوى الوحشة والخوف من المجهول ولم يتبق سوى الأمل في هذا الرجل العجوز عم جبر، بل فكرت كيف أطمئن علي نفسي وأنا في حماية هذا الرجل فحين الشدائد والمصائب تتبدل أخلاق الناس، فالكثير منهم يخشون القانون وفي غيبة القانون كل شيء يصبح مباحاً وأنا سيدة جميلة وبمفردي مع هذا الرجل ومن الجائز أن يتصرف معي بأي تصرف يضر بي وأقل ضرر أن يهاجمني ويغتصبني ويضيع شرفي ونقائي الذي حافظت عليه أسرتي حتي سلمتني لزوجي.

أشعر بأن عم جبر تأخر كثيراً وقد غابت الشمس عن سماء هذا اليوم

الدامي، لم يعد هناك سوي ضياع باق وكلها عشر دقائق ويخيم ظلام دامس رغم هذا كان هناك بصيص أمل بعودة الرجل خاصة أنني لم أسمع صوت إطلاق رصاص وبالتالي فلم يقتل، هاجمني اضطراب وخوف بأن من الجائز أن تم أسرته وبالتالي سوف أفقده أيضا، ماذا تفعل سيده مثلي وابنها الرضيع في تلك الصحراء حتي أن ملايمي أصبحت تسبب لي الضيق من عدم ستر جسدي عن أي عيون متطفلة قد تقبل في أي وقت.

شاهدت ظلا قائما وتأكد لي بعد فترة بأن هذا ظل عم جبر، كان مقبلا مسرعا ولهذا وقعت حتي يراني بعد أن وضعت ابتساماة كالحة جافة علي وجهي أحاول من خلالها أن أبث الطمأنينة إلي حواسي المضطربة، وقف أمامي لاهث الأنفاس وحمل الصغير عني والشمسية وحدثني باضطراب:

. بسرعة يا ست هانم نروح المعسكر نلم حاجتنا ونشوف صرفه نهرب بيها من المكان اللعين ده، لليهود مسبوشي حد في الشركة وشفت بعض القتلي لكن الباشمهندس مكنشي منهم ويظهر أنهم أسروه مع بعض زمائله، رينا يهون بتبكي؟ مش تبكي .. ده مش وجت البكا .. ده وجت الشغل والعمل .. همتك معايا عشان نهرب بجلدنا من المكان ده جبل ما يرجعوا ثاني .. أيوه كده خليكي ورايا واتحملي الحصا اللي في الرمل والبرد اللي ح يآثر عليك؛ كنت أتبعه كظله ووصلنا لموقع الشركة فشاهدت التدمير وآثار حرائق بكل مكان ولم يتبق أي مبني في موقع الشركة إلا ودمره الأعداء تصاعلت:

. إيه ده .. كل ده خراب .. كل المباني متهدمة وما فيش حيطه سليمه، بعدين

أعمل إيه دلوقتي وأشوف هدومي وهدوم شادي إزاي في الضلمة ديه؟

. اطمني .. إحنا رايعين علي استراحة الباشمهندس .. أيوه .. أنا ح ولع عود كبريت ومشعل وربنا يستر ومحدث يشوفنا .. الحمد لله وصلنا لاستراحة الباشمهندس، أنا معاكي يا هانم .. شايفه حاجتك؟ علي مهلك أنا وراكي بالمشعل .. كويس كده هاتي الحاجات دي ح تتفع والليس ده .. لو سمحتي كمان ملايتين ويطانيتين لأن برد الصحرا واعر .. كفاية كده خلجات ونروح علي ورشة الشركة.

- طيب أجيب شوية أكل من اللي في التلاجه .. جنبه وعيش وعلب تونه وحاجات جافه .. ربنا يخليك يا عم جبر .. خليك ورايا وأنا بأجمع في الحاجه دية .. أيوه كده .. معلشي .. أنا عارفه أنك شايل حاجات كتيره وكمان شايل شادي .. كفايه كده يا عم جبر.

كنت أتبع خطوات الرجل وأنا أعلم أننا علي موعد خطير اقترب أجله فقد أشعرتني حديثه وتصرفاته بأننا في سباق مع الزمن خشية قدوم الأعداء .. وصلنا إلي موقع الورشة ولم يكن حالها مخالفاً عن باقي المباني والإنشاءات لأن التدمير طال كل شيء، هناك شاهدت عم جبر يقوم بتجميع بعض البراميل الصاج والتي يدل منظرها علي أنها جديدة ولم تستخدم وبعض العدد والأدوات، طلب مني أن ألتحف بالملايس نظرا لبرودة الليل وأتناول أنا وشادي طعامنا ونستريح ونهدأ حتي ينتهي مما يقوم به .. شعرت بأن صدري ممتلئ باللبن وأن شادي لم يتناول رضعته منذ أربع ساعات، اختبأت خلف الملايس والملايات وأخرجت صدري، وسرعان ما قام شادي بمص ما به من لبن وهبه

الله له وظل الطفل علي هذا الوضع حتي تقصد. العرق من وجهه وخذل في نوم هادئ وتوقف عن الرضاعة بعد عن امتلأ فمه باللبن، بل كانت بعض بقاياها واضحة ظاهرة بين شفثيه، قبلته ووضعته جانبا ثم تناولت بعض الطعام الخفيف دون شهية رغم الجوع الذي ألم بي.

شاهدت عم جبر يشعل سراجا ويقوم بلحام بعض البراميل بعضها بالبعض ثم اخفتي، عاد بعد أن أحضر ملة السرير المعفري الحديد المزودة بشبكة من شناير الصلب كي تقوم بحمل المرتبة حين وضعها فوق السرير، لم أكن أعلم ما يريد الرجل لكن النوم غلبني وأنا بوضع الجلوس وطفلي بجواري إلي أن استيقظت علي ضوء الصباح ولم أشاهد عم جبر أمامي وكدت أصرخ .. لقد هرب الرجل أثناء نومي بعد أن غرر بي ووعدني بأنه سوف يمد يد المساعدة لي ولأبني.

خرجت الدموع من عيني هادرة صاخبة، كنت أشعر بأن عيني بها شيء كاوى فقد كانت الدموع نابعة من القلب، لقد أصبح المستقبل ظلما لا يبدده أي شيء وهذا هو الحصن الأخير الذي سقط بهروب الرجل وتركتني وحيدة مع ابني دون سند أو ونيس، تحيرت وتوترت ولم أعد أدري ماذا أفعل وكيف التصرف، نهضت تاركة الكمل والدموع مقررة بأن أتصرف وأفعل أي شيء فلن أظل قابعة بمكاني في انتظار أن يقوم أحد بمد يد المساعدة لي.

حملت طفلي وتحركت وأنا في حالة من الإرهاق النفسي والتعب البدني لم أعلم طريقا للسير حيث سرت عشوائيا، وسارت بي قدمي إلي شاطئ الخليج مباشرة في اتجاه مقر الشركة، توقفت من شدة ما رأيت وشعرت بأن

حمي أصابت رأسي وارتجفت قدامي، لقد شاهدت عم جبر منكبا علي وجهه وينازع ويطلب العون كأنه يحتضر، طافت بذهني أفكاراً كثيرة كلها تدور حول نقطة واحدة، ماذا يحدث لي ولطفلي لو مات هذا الرجل؟ أسرع نحو حيث كانت كومة من البراميل والحديد تغطي جزءاً كبيراً منه ولا يظهر من جسده سوى رأسه ومازال غطاء الرأس "البريه" بموضعه.

أسرعت نحوه أنادي عليه أواسيه وأشجعه ووضعت طفلي أرضاً وانحنيت علي ركبتي وأقتربت بوجهي من الأرض أحادثه:

. مالك يا عم جبر؟

- رينا يخليكي تساعديني وترفعي البراميل اللي فوج جتتي، مش جادر أتحرك ويجالي أكثر من ثلاث ساعات علي ده الحال.

. بذلت قصار جهدي فلم أتمكن لكنه أشار إلي ماكينة يدوية تعمل بقوة الإنسان وبها سلك من الصلب وطلب مني وضع خطاف السلك الصلب في إحدى فتحات منبر السرير الحديدي ثم أقوم بعمل عدة لغات حتي ترتفع العبوة من فوقه ويجب علي السيطرة علي ذراع رافعة تلك الآلة ولا يجب علي تركها تعود للأرض وتقع فوقه وتهشم عظامه حتي ينهض من أسفل البراميل.

نفذت ما طلبه مني وأنا وجلة من عدم استطاعتي دفع ذراع الآلة لكن من أول لفة شعرت أنها تستجيب لي، ظللت أقوم بلقها حتي تحرر الرجل من ألقائها ونهض مسرعاً ووقف وأسرع نحوي وأمسك بذراع الماكينة وهبط بتلك الأثقال أرضاً ثم جلس يلتقط أنفاسه. ٢٨ فشاهدت بعض آثار جروح برأسه من

أثر سقوط تلك الأحمال فوقه وعلمت السبب في ذلك بأنه كان يحرك تلك المجموعة من البراميل وملل السرير الصلب بالدرجة وبالرفع أحيانا قاصدا مياه الخليج لكن تضاريس الأرض المائلة بشدة دفعتة أمامها وسقطت كل تلك الأحمال فوق أم رأسه.



## رحلة السندباد البحري

بعدُ مضي ساعة زمن من إفاقة عم جبر قمت خلالها بعمل كمادات من المياه حول رأسه تتبه الرجل وشكرني دامع العينين، أبدي أسفه لما حدث ثم نهض وقام بدفع العوامة التي ظل أثناء الليل يقوم بإعدادها، كانت العوامة غريبة الشكل والمنظر، عبارة عن ثلاث براميل طولية قام بلحامها ببعض مستخدماً لحام الأكسجين نظراً لتدمير مولد الكهرباء فلم يستطع اللحام بالكهرباء الأشد قوة، ثلاثة براميل طولية علي كل جانب وفي الأمام والخلف برميلان ولهذا كانت العوامة تشبه مستطيل طوله ثلاثة براميل وعرضه برميلان وهذا يعطي مساحة تقدر بستة أمتار مسطحة.

فوق هذا المستطيل ثبت ملة الثلاثة أسرة بجوار بعضهم البعض لأن طول السرير متران وثلاثة أسرة بثلاثة أمتار وعرض كل سرير متر واحد وبالتالي أغلقت المساحة لهذا المستطيل من البراميل المثبتة بعضها ببعض باللحام فوق البراميل المكونة لهذا المستطيل أقام مستطيلاً مشابهاً فوق البراميل الأولى فأصبح هناك مستطيلان وبالمنتصف توجد أرضية من شرائح الصلب المكونة للأسرة ثم أحضر ثلاث مراتب ووضعها فوق الأسرة فأصبحت حجرة صغيرة مبطنة بالقطن بعدها ثبت شمسية البلاج بالمنتصف للوقاية من أشعة الشمس.

خلف المستطيلين أعد برميلين بجوار بعضهما البعض كما قام بتثبيت باب خشبي بالحلوق أي بالبرواز الذي يتحرك بداخله الباب علي المستطيل الأعلى كي يستطيع فتح وغلق الباب لاستخدامه كشراع للمركب ودفة أيضاً كل هذا كان يشرحه لي خلال تحريك ودفع العوامه الغريبة بصعوبة

استطاع وضع العوامة علي شاطئ الخليج وربطها بحبل وطلب مني أن أحمل ابني شادي وأن أظل جالسة بداخلها حتي يحمل باقي الأغراض الخاصة بي وبابني .. بعد هذا حمل عبوات المياه وهي عبوات بلاستيك قال إنها تفي بالفرض لمدة لا تزيد عن عشرة أيام.

شاهدته قادما يحمل ماسورة من الحديد طولها لا يقل عن ثلاثة أمتار بعد أن لحم بها سكيننا طويلا يشبه السيف ومعه بعض الأغراض، شاهدته يضحك وهو يضعها بالعوامة، علمت منه أن تلك الأغراض تحتوي علي شبكة لصيد السمك وأيضا وابور الجاز وأدوات إعداد الشاي وبعض الأكواب الزجاجية كل تلك الأغراض كان يضعها بداخل سبت من التي تستخدم بالبلكونات وربطها بحبل وإنزالها من الشقق المرتفعة ثم القيام بجذب الحبل ورفع ما بداخلها من أغراض، نظر إليّ باسمأ وقال: الآن يا ست هانم يمكننا التحرك بداخل مياه الخليج والله معنا وعليك بالدعاء بأن يوفقنا الله، قمت بأداء الصلاة باسم الأب والابن والروح القدس بتحريك يدي علي صدري مثلما اعتدت بينما رفع عم جبر يديه للسماء يتمم ببعض كلمات بأن يوفقنا الله في رحلتنا تلك مردداً:

. عشان خاطر الست هانم والملاك الطاهر ابنها وفجنا يارب وابعد عنا عيون الأعداء وغدر البحر، فنحن نلجأ إليك ونقتدي بالنبى نوح عليه السلام .. خرجت مني ابتسامة لهذا التشبيه ورددت خلف كلماته وأدعيته تلك .. آمين .. آمين.

هكذا تحركت العوامة تحمل ثلاثتنا وأنا في دهشة من أمر هذا الرجل

كنت أعتقد بأن العوامة لن تطفو من الأتقال التي تحملها، أكد لي قبل التحرك أنها ستطفو وستبحر مثل أي قارب .. بالفعل كانت العوامة طافية وأعتقد أن المياه لم تصل لمستوي منتصف البراميل بالمستطيل السفلي؛ كنت أجلس ويجواري شادي يلهو من حولي دون خوف؛ لأن المستطيل الأعلى كان بمثابة حماية وستر لنا، بل كنت أركن ظهري عليه وحينما أرغب بالنوم كنت أنام بعد أن أقوم بفرد ملاءة السرير فوق جمدي رغم أن عم جبر لا يرانا لأنه كان جالسا فوق البرميلين بالخلف وهما أقل مستوي عن البراميل التي أجلس فوقها لأن البرميلين في مستوي براميل الصف الأول.

سارت العوامة لأن مياه الخليج لم تكن صاخبة وبعد أن ابتعدنا قرابة ألف متر ظهرت قوات العدو علي الشاطئ وأمطرتنا بنيران المدافع الرشاشة التي كانت تصطدم بالبراميل دون أن تخترقها، شاهدت عم جبر يوجه الباب الخشبي المثبت بالفريم "الحلق" الذي يتحرك بداخله، لاحظت أن العوامة تسرع بداخل المياه حيث كان يرغب بأن يبتعد عن الشاطئ؛ نبهني من مكانه بالأسفل بأن اليهود سوف يحضرون مدفعاً لقصفنا، أصابني هذا بالذعر استكمل حديثه بأنه يعتقد بذلك ومن أجل هذا فهو راغب بأن نتوغل في مياه الخليج حتي نبتعد عن مدي المدفع.

بعد مضي ساعة علي محاولات الأعداء قتلنا بواسطة الرشاشات سمعنا صوت أحد المدافع يرسل بقذائف متفجرة قريبا منا، لكن تلك القذائف كانت تسقط بالخلف قرابة مائتي متر مما دفع عم جبر للضحك مردداً:

"- مش ح توصل لنا المدافع .. الحمد لله بعدنا عن مدي مدافعهم " كان هذا

واضحاً ورغم استمرار الأعداء في القصف إلا أن الانفجارات أصبحت تبتعد عنا لأننا كنا نبتعد عنهم وتزداد المسافة بيننا وبينهم رويداً .. رويداً بعدها شعرت براحة نفسية وبالأخص حينما توقف القصف هذا يؤكد بأنهم أصبحوا عاجزين عن إلحاق الأذى بنا.

قبيل حلول الظلام أعددت بعض الأطعمة الخفيفة لي ولعم جبر بينما تناول شادي طعامه الإلهي من صدري .. أقبل الليل حيث كنت أشاهد النجوم تلمع بكبد السماء الصافية ونسمات البحر من حولنا مع حدوث بعض الاضطرابات داخل المياه وحين سؤال عم جبر أجاب بتعبيراته المطمئنة:

- مش تخافي يا ست هانم .. شوية سمك ييلعبوا من حولنا ويمكن الدرافيل بتجوم بتحيتنا .. ما أنتي عارفه أنهم حبايب البني آمين.

لم يحدث شيء غير عادي يعكر صفو الرحلة .. حيث أشرقت شمس اليوم التالي ومن خلالها لاحظت أننا ابتعدنا عن الشاطئ الشرقي لخليج السويس المتاخم لشبه جزيرة سيناء بمسافة كبيرة وفي الوقت نفسه لم نقرب من الشاطئ الغربي للخليج المتاخم للصحراء للشرقية المصرية ، كانت دراسة مادة الجغرافيا بالمرحلة الثانوية مفيدة لي في هذا الموقف العصيب؛ كنت أعلم كل شيء عن تضاريس المنطقة والشواطئ، نبهت عم جبر بأننا نتجه جنوباً وليس غرباً وأفاد بأنه يلاحظ هذا وهو دائم المحاولة بتحريك درفة الباب كي يستطيع توجيه العوامة للاتجاه الصحيح مستكملاً شرحه بأن الرياح القادمة من الشمال من اتجاه ميناء السويس بطول الخليج قوية، سكنت وتقهمت السبب الرئيسي كان عم جبر رجلاً نكياً رغم هدوئه الذي فسر البعض بأن نكاهه محدود، لقد

استخدم الرجل الباب الخشبي كشرع وأيضا كدفة للعوامة، كنت أشاهده ماهرة منتبهاً لا يغفو من فوق البراميل التي يجلس فوقها إلا سوف يسقط بمياه الخليج رغم أنه من حين لآخر كان يؤكد لي بأنه سباح ماهر وكان يقوم بعبور نهر النيل سباحة من قريته المطلة علي النهر .

في بعض الأحيان كنت أسمع صوته يشدو ببعض أغان محلية صعيدية ثم يعقبها ببعض أغان لأم كلثوم وعبدالوهاب، لم يكن صوته جميلاً لكن صوته كان يشجعني ويشجعه علي مقاومة الخوف الذي لازمنا حتي نهاية نهار اليوم الأول حينما غادرنا شبه جزيرة سيناء في إتجاه الساحل الغربي للخليج، تأكد لي وله بأننا دخلنا مياه البحر الأحمر متجهين جنوباً وإذا أمد الله في أجلنا بطول العمر فقد نصل لليمن أو السودان.

أصبحت حركة المياه أشد عنفاً، لم أعد أشاهد شاطئ البحر الأحمر سواء الشرقي من جهة المملكة العربية السعودية أو الغربي من جهة الأراضي المصرية، لم يهتز عم جبر وظل صامداً بل أنه فاجئني في اليوم الثالث بأنه استطاع صيد بعض الأسماك بشبكة صيد صغيرة يطلق عليها اسم "جوييا" وحين طلبت منه توضيح ذلك أخبرني بأنها شبكة صغيرة ملتصقة بحلقة من السلك المجلفن قطرهما قدم وتحيط بها الشبكة وتلقي بالبحر ومربوطة بحبل من البلاستيك مثبت بالبرميل الذي يجلس فوقه، فإذا دخلت الأسماك لتلك الشبكة لا تستطيع الخروج لأنها مصممة علي شكل قمع، لقد ألقى بتلك الشبكة بداخل المياه بالأمس وصباح اليوم شعر بأنها قد امتلأت ولهذا قام بجذب طرف الحبل فخرجت الشبكة "الجوييا" تحمل بعض أسماك البورى.

تسألنت : وماذا سوف تفعل بهذا السمك، ابتمس ضاحكا وقال: سيبيها علي الله، شاهدته يخرج عبوة صغيرة من داخل الجردل الذي بجواره والذي كان مربوطا بالعوامة التي أقيم بها مع طفلي، بهمة يحسد عليها قام بنظافة الأسماك ثم أحضر موقد كيروسين صغيراً وأشعل به الثقاب ثم وضع لوحاً من الصاج فوق الموقد وبعض من الردة وبعد عدة دقائق خرجت رائحة شواء العمك المميزة والتي تثير اللعاب، كان يقوم بهذا العمل دون طلب المساعدة وتبين لي أنه محترف في هذا العمل، كان هذا باديا عليه من إعداد وجبات الكابوريا التي كان يقدمها لي ولزوجي قبل نشوب الحرب.

طلب مني طبق طعام فارغ ووضع به ثلاث سمكات بوري كبيرة بعد أن تم شواؤها، كانت الكمية كبيرة لكنه أشار لي بأنه من الممكن أن أتناولها دون خبز، نفذت وصيته ونصائحه، كانت الوجبة شهية وطعمها مستساغاً رغم عدم وجود الخلطة التي توضع بداخلها، شعرت بالامتلاء وأن رأسي أصبحت ثقيلة ولي رغبة في النوم، لم أستطع المقاومة وخلدت في نوم هادي رغم أنني كنت أشعر بارتفاع وهبوط العوامة من تأثير الأمواج ولم أنتبه من غفوتي تلك إلا علي بعض رزاز الماء الذي طال وجهي من جراء اصطدام الأمواج بالبراميل استيقظت ولحق بي شادي الذي بكى فقد كان لصيقاً بي يقوم بمهمته الوحيدة وهي الرضاعة من حين لآخر .

كان تصميم العوامة رائعاً مما ساعدني بأن أقضي حاجتي ليلا دون ملاحظة عم جبر؛ كنت أبعد طرف المرتبة من علي أرضية العوامة بحيث أجلس فوق الملة الحديد مباشرة ومياه البحر أسفل مني مباشرة ومن خلال الفتحات أنتهي من نداء الطبيعة وعبوة بلاستيك معي أقوم بغرف

كمية من ماء البحر وأقوم علي نظافة جسدي من جراء هذا بينما كنت أقوم علي نظافة طفلي بالمياه العذبة كي لا تؤثر مياه البحر المالحة علي بشرته كما كنت أقوم علي غسل ملابسه المتسخة من الإخراج بمياه البحر ونشرها بجوارري فيقوم الهواء بتجفيفها بسرعة، لم أشاهد عم جبر يتناول مياهاً وعرضت عليه عبوة المياه فثكرني وأفاندني بأن تناول السمك دون خبز تجعله لا يندفع لشرب المياه لأن الأسماك التي يتم إعدادها بتلك الطريقة تجعلها تحتفظ بالمياه التي تعوضه عن شرب المياه العذبة.

مضي أكثر من أسبوع وبدا تأثير الرطوبة والجو العام تؤثر علي بشرتي وأيضاً علي بشرة شادي لكن بدرجة أقل لأنني كنت أعطى وجهه بملاءة السرير، لا حظ عم جبر حالة الطقس وتأثيرها علي بشرتي ومن أجل هذا نصحتني بأنه من الممكن أن أقوم بتدليك وجه شادي ببعض بقايا لبن الرضاعة فتعمل مثل الكريم الذي يقلل من تأثير الطقس عليه، لم يعجبني هذا الكلام وشعرت بأن الرجل سوف يتدخل في شئوني الشخصية فلم أجب علي حديثه ولم أحادثه طوال هذا اليوم وإذا حادثني محاولاً طمأننتي بأن الله سوف يساعدنا أو تحدث في أي موضوع عام كنت أتجاهله ونظراً لطيبة قلبه فلم يتنبه لهذا وظل يتحدث معي ويطيب من خاطري وأنه المتسبب فيما حدث لي ولابني حيث كنت في دهشة من هذا القول.

أعتقد أن هذا هو اليوم الحادي عشر حيث هبت رياح شديدة أقرب للعاصفة ومن قوتها كادت تغرق العوامة بقلبها بالماء لكن سرعة عم جبر وتنبهه التي جعلته يسير مع اتجاه العاصفة ولم يسر مستعرضاً، وهذا التصرف أنقذ الموقف كما أسرع لأعلي للجناح الخاص بي ويابني ومعه المسكين

الطويل وأحدث فتحة طويلة بشمسية البلاج التي كانت تظلل المكان وبالتالي لم يعد الهواء يعبأ بداخل الشمسية وبالتالي قل تأثير الرياح العاتية التي هبت فجأة والتي لم تستمر سوى ساعة زمن أروعتنا خلالها وكدنا نفقد حياتنا غرقا .

مضي علينا بتلك الرحلة بداخل البحر الأحمر حتي الآن أكثر من أسبوعين وبدا واضحا أن المياه الخاصة بالشرب علي وشك أن تنضب وحادثتي عم جبر عارضا علي شرب دماء الترسة وهي سلحفاة بحرية؛ تأففت في البداية لكنه أشاد بدمائها وفأندنتها وسوف تعوضنا عن شرب المياه أشرت له بالموافقة، بعد قرابة ساعة شاهدته يسحب العمود الحديدي بعد أن غرسه في جسد سلحفاة البحر التي كانت تقطر دما وخلال هذا قام بتصفية كمية كبيرة من دماؤها بالجردل الذي يحتفظ به حتي امتلأ نصفه، ناولني كوباً منه ولكنني لم أتشجع فشرب أولا حيث كنت أشاهده أثناء شرب دماء الترسة فيحدث صوت لرشقات الدماء، حين توقف عن الشراب للحصول علي هواء الشهيق كنت ألاحظ البسمة علي وجهه ثم علق قائلا:

- والله أحسن من العرجموس .. لم أستطع السيطرة علي انفعالاتي فضحكت بصوت مرتفع كما لم أضحك منذ بداية المعركة وفقد زوجي .. ردد الرجل:

- اضحكي وافرحي ورينا ح يفرجها .. بعد هذا صاح بصوت مرتفع ناظرا للسماء مردداً:

. افرجها يارب

كان الفرج قريبا منا لكن بطريقة عكسية، أثناء غسل بعض عبوات

الدماء بالبحر بعد أن شربت جرعة من دماء الترسة وأقنعت نفسي أنه البديل عن الماء إذ أفاجأ بشيء ضخم يخرج رأسه من المياه فاتحا أسنانه، كاد أن يقضم يدي لولا أن سحبتها بسرعة وعلا صراخي حيث قفز عم جبر وشاهد ما شهدت وصرخ:

. جرش لعين .. خليكي ربح شادي بيه .. ثم توجه لمكانه السابق وعاد حاملا العود الحديد وبدا يهاجم القرش كلما ظهر وبدا أن نجح في هذا، فقد اندفعت الدماء من السمكة الكبيرة ولونت المياه واختفت السمكة المتوحشة والتي شاهدت مثلها بعد هذا بعدة أعوام في فيلم سينمائي أثار رعبي وتذكرت ما حدث لنا داخل مياه البحر الأحمر؛ ردد عم جبر:

. الجرش ده جه علي ريحة دم الترسا ودلوجتي بعض الجروش ح تيجي علي ريحة دم زميلهم مش تخافي وخليكي في مكانك؛ أثناء الليل وكما هي العادة أعددت العدة لقضاء حاجتي وحين رفعت المرتبة من فوق ملة السرير شاهدت عين سمكة قرش تلمع في الظلام فصرخت فأسرع عم جبر وعاد ثانية ومن خلال فتحة ملة السرير أخذ يطعن السمكة عدة طعنات حتي توارت ثم نظر إليّ باسماء:

. مش جلت لكي رينا ح يفرجها .. صرخت به وأنا أشير بيدي بعنف

. الله يقرئك، أنت مش بتفهم، كل شوية تقول رينا ح يفرجها وأنا شايفه الموت أنا وإبني، حرام عليك، تركني الرجل حزينا ولم ينتبه لموضع قدمه علي البراميل الخلفية للمساء، وسمعت صوته أثناء سقوط بالماء، صرخت ولطمت

خدودي وأنا أنادي عليه دون جدوى فقد ابتلعت مياها البحر الهادرة ليلا وأسماك القرش تحوم من حولنا، شعرت بأنني لن أستطيع التماسك ووقعت بجوار طفلي ساكنة وأصوات امواج البحر بأننى، بعد قليل سمعت صوت عم جبر وأيقنت أنني انتقلت لجوار ربي وأصبحت بالأمجاد السماوية وهناك استقبلني عم جبر وسوف يقتص مني لأنني تسببت في قتله وحرمان أسرته منه ومن رعايته مازال الرجل يردد:

- ست هانم .. ست هانم .. فوجي وأذكري الله، رغما عني فتحت عيني وشاهدته أمامي ومازلت مقتنعة بأنني بالسماء ولكن منظر نجوم الليل ومشاهدتي لابني شادي يخلد في نومه كالملاك والرجل يقف أمامي وملابسه تقطر ماءً تنبتهت وحينما تأكد لي أنه مازال علي قيد الحياة نهضت من إغمائي فسمعته يردد قوله المأثورة:

. مش جلت لكي أن رينا ح يفرجها، والله بعد ما وجعت بالبحر والميه ساجعه جوي لكن من حسن حظي أنني كنت رابط حبل الجوبيا بايدي والطرف الثاني مربوط بالعوامة، فضلت أجاوم الموج وأشد الحبل لحد ما مسكت أول العوامة .. جومي رينا ح يفرجها.

نهضت من رقذتي تلك ورغم حديثه المتقائل ورغم حزني علي تسببي في تلك المشكلة إلا أنني مازلت حانقة علي هذا التفاؤل وهذا الاتكال علي قدرة الله في كل شيء دون أن تأخذ بالأسباب، صمت قليلا وقلت في نفسي: أنهى أسباب يأخذ بها؟ لقد فعل الرجل كل ما يستطيع فعله، ابتكر العوامة ونفذها ونحن حتى الآن مازلنا أحياء وجواري صغيري ولو بقينا بجوار مباني الشركة

المهدمة لقتلنا الإسرائيليين أو وقعت بالأسر وتناولوا علي جسدي وقدمت شرفي لأن تلك أفعالهم وأخلاقهم، أكرر بداخلي: عم جبر لا تغضب من حديثي فأنا ابنتك مثل فاطمة التي أخبرتنا عنها أنا وزوجي أنها تنتظر حادثاً سعيداً منذ شهرين والآن أصبح لك حفيد.

لاحظت أن الرجل قد أنهكه العسر والعمل مع قلة المياه التي يتناولها فقد ترك لنا كمية المياه واعتمد علي الأسماك الطازجة ولكن تبين لي من التجربة أن هذه الكمية لا تكفي ولا بد من تناول مياه صافية، مضي علي تلك الرحلة اللعينة عشرون يوماً وأنا أشاهد عم جبر جالسا منهكا وكاد أن يسقط في المياه فصرخت به وتنبه، أشرت إليه بالحضور والإقامة معنا في هذا المكان الآمن نميبيا، حضر خجلا وبدا عليه أثناء تحركه الكمل والإعياء أشرت إليه بالبقاء بجوارنا وألا يذهب للجلوس فوق البراميل كأنه يمتطي حصانا، تردد بخجل ولكن تحت إصراري علي ما طلبته منه خضع لأوامري وجلس بركن بعيد ناظرا للجهة الأخرى وكانت ملابسني قد تمزقت بفعل الرياح العاتية وظهر من جسدي الشيء الكثير لكنا كنا في حالة احتضار حتي أن طفلي أصبح يقضي أوقاتا طويلة في نومه ولا يئنّبه إلا حين يرغب بالرضاعة ضاع مني الزمن وأصبحت لا أعلم عدد الأيام التي مضت علينا ونحن في حالة التيه وفقدان الذاكرة والإعياء لكنني سمعت عم جبر يحدثني:

- ست هانم .. مالك؟ أنا ملاحظ أنك بعافية شوية .. بتشتكي من حاجة؟ .. بالطبع لم أحبه حيث كنت في حالة تقرب من الإغماء ولا يعمل لدي من حواس سوى السمع .. كنت أفيق وأعود لحالة الإغماء وأسمعه يتحدث ووجهه شاحب؛ لم يعد وجهه مألوفاً إليّ ورغم هذا طن حديثه في أذني دون أن

أستطيع التحدث أو أن أمنعه من تصرف يبغي القيام به حيث قال:

. طيب .. أعمل إيه دلوجتي؟ شادي بيبكي عايز يرضع وأمه تايه يا ولداه ..  
أناوله إزاي حلمة صدرها؟ عيبه أني أمد يدي علي الست حتى يرضع شادي  
.. دين الإسلام منعنا من كده كمان التجاليد تمنعنا من تصرف شين ووحش  
زي كده .. حاضر يا شادي .. يا ابني بطل عياط .. الواد جعان .. استغفرك  
يارب .. ح أعمل إيه؟ يعني أعمل غلط وإلا أسيب الطفل يموت من الجوع ..  
بسم الله الرحمن الرحيم .. معلشي يا ست مادلين .. الغاية تبرر الوسيلة ..  
أيوه أهه مسكت الحلمة .. خد يا سي شادي .. بتزوم زي الجطط وهيا بتاكل  
.. العيل ميت من الجوع .. الله يكون في عونك .. الحمد لله بطل عياط .. ياه  
علي الجوع كافر .. والنبي يا ست مادلين شدي حيلك شويه خلاص الحكاية  
جريت وأنا شايف الأرض بتاعتنا جريبه .. يعني كلها نص كيلو ونوصل  
بالسلامة وربنا بيعت لنا ولاد حلال يعالجونا ويوكلونا .. مش جادر أجولك أنا  
عطشان جد إيه وجعان إزاي وشفاتيري مجشفه وتجطعت من جلة الميه .. أنا  
شاعر بيبكي أنتي كمان .. الله يكون في عونك .. خلصت يا سي شادي ..  
مترضع شويه كمان منعرشني الظروف المهيبه حتعدي علينا إزاي .. طيب  
أغطي حلمة صدرها .. عيب ما يصحش يمكن حد يشوفها علي كده .. الله  
يخرب عجلك الخزيان يا جبر .. مين حيشوفها وإحنا في نص البحر ..  
تتبهت من حالة فقدان الذاكرة والتهيه التي ظلت تلازمني لمدة يومين علي الأقل  
حيث كنت أنتبه علي حديث خافت من السيدة مادلين وانظر إليها فلا أكاد  
التعرف عليها من الشحوب والإرهاق وعدم التركيز حيث كانت تحدثني بكلمات  
غير مفهومة.

كل ما رده عم جبر سمعته وأنا غير قادرة علي أن أمنعه أو أطلب منه  
استكمال تقديم العون لحبيبي شادي .. شعرت بأنني غفوت غفوة جميلة لكن  
الأحداث كانت لنا بالمرصاد ، فقد سمعت صوت انفجارات عالية شديدة  
وصراخ إناس واهتزاز العوامة ولم أشعر إلا وأنا أطيّر في السماء ثم هويت  
بالماء والبرودة الشديدة من حولي وتأكد لي أنها الدقيقة الأخيرة في حياتي.



## إستكمال المأساة

خير:

تنبهت علي حركة عنيفة للعوامة وسمعت أزيز طائرات بالسماء فنظرت لأعلي فشاهدت معركة جوية حامية وإذ بإحدى الطائرات تشتعل بها النيران وأحد الرجال يهبط منها بالمظلة ثم يصرخ طالبا العون ورغم حالتي تلك لكن حواسي تنبهت فشاهدت الرجل والدماء تقطر من إحدتي ساقية وأعتقد بأن إحدتي قدميه قد بترت أو أصابتها إصابة شديدة وبعد أن هبط بداخل الماء طلب العون قبل أن يغرق كما سقطت طائرته من ارتفاع كبير بعد أن هوت من السماء من ارتفاع شاهق والنار تشتعل بها واستطاع القفز منها.

سقطت الطائرة علي مسافة لا تبعد عن العوامة بما لا يزيد عن مائتي متر وأعقب هذا انفجارات ضخمة شعرت بعدها أن العوامة تطير في الهواء وانقلب حالها وسقطت منها ولم أشاهد السيدة مادلين أو طفلها لكنني شعرت ببرودة الماء وتنبهت من حالة التيه والبلادة التي صاحبتني منذ أيام علي هدير السماء وصوت المعركة الجوية أو علي أصوات الانفجارات والتي انتهت بسقوطي بالماء، قاومت الغرق حبا في الحياة وأنا أتلفت من حولي بحثا عن السيدة وطفلها ولم أعرث عليهما، طفوت فوق سطح الماء وحصلت علي شهيق وعدت ثانية للغوص بالماء بحثا عن الأم وطفلها ولم أوفق؛ قمت بهذا العمل عدة مرات دون جدوى، أثناء سباحتي تلك تأكد لي ما سبق وأن لاحظته قبل حدوث تلك الكارثة بأننا قد وصلنا لليابسة ولا نبتعد عنها سوي خمسين مترا أو أقل من هذا، ظللت سابحا حتي وصلت للشاطئ غادرت الماء منهك

القوى واكتشفت أنني فقدت "البريه" الميرى الذي أضعه علي رأسي رغم أن مسدسي وزوج من "الكلبشات" مازالا معلقين بالقائش المحيط بخصري.

عدت وقفزت داخل الماء بحثاً عن البريه لكنني شاهدت أسماك القرش تهاجم جثة الطيار الذي سقط منذ عشر دقائق فأمرعت وغادرت الماء والحزن يملأ قلبي لأن البرية سوف يخصم ثمنه من راتبي ولم أفرط فيه قبل هذا فقد كان ملازماً لي طوال يقظتي ولا أرفعه من فوق رأسي إلا وقت النوم أو الاستحمام.

نهضت أنظر من حولي بتلك المنطقة التي وصلت إليها ولا أعلم ما اسمها، المكان عبارة عن شاطئ علي البحر الأحمر لكن من المؤكد أنه يتبع مصر أو السودان، سرت يمينا عدة خطوات ثم يسارا عدة خطوات وأنا أتلفت يمينا ويسارا لعلي أشاهد أي شيء يخبرني عن مصير السيدة مادلين وطفلها دون جدوى، عدت وجلست ثانية أحصل علي بعض الراحة لكنني شاهدت علي بعد خمسين متراً تقريباً شيئاً يطفو فوق سطح الماء، لم أتأكد كنية هذا الجسم الغريب، قفزت للماء في هذا الاتجاه رغم خطورة هذا نظراً لوجود أسماك القرش التي اقتربت جسدي الطيار ومن المؤكد أنها التهمت الطفل وأمه.

حينما اقتربت من هذا الشيء الطافي فوق سطح الماء تبين لي أنه لوح خشبي "الباب" الذي كنت قد وضعته فوق العوامة؛ أما الشيء المثير للانتباه أن السيدة مادلين ترقد فوقه تحاول التجديف بيديها الواهنتين، شكرت الله علي نعمته تلك وظهرت الفرحه علي وجهي وأنا أصرخ وأصيح بسعادة لأن السيدة مازالت علي قيد الحياة، أسرعت وأمسكت بالباب وسحبته خلفي وأنا أسبح بيد

واحدة، الحمد لله .. قلتها بعد أن وصلت للشاطئ ولمست قدماي رماله .. ظلت أدفع بالباب حتى وصل لرمال الشاطئ، جلست قليلا ألتقط أنفاسي حاولت تنبيه السيدة ولكنها عانت لحالة الإغماء مرة أخرى، تحيرت وتساءلت: ماذا أفعل؟ هداني الله بأن أقوم بسحب الباب والسيدة راقدة فوقه، فعلت هذا وابتعدت عن الشاطئ قرابة خمسين مترا، جلست أستريح ثم عاودت سحب الباب مسافة أخرى، تأكدت أن مياه المد لن تصل لهذا المكان فلا توجد علامات بوصول مياه المد لتلك المنطقة لبعد المسافة وارتفاع سطح الأرض عن الشاطئ.

من حُسن الحظ أنني شاهدت شجرة نخيل قصيرة وغير مثمرة ولكنها تظل منطقة كبيرة، تركت السيدة فوق الباب وأنا أفكر كيف أجفف ملابسها المبتلة، وخشيت أن يصيبها التهاب رئوي نظرا لأنها شبه عارية إلا من ملابس الاستحمام التي ظلت سليمة وبقايا الروب الممزق، بعد أن تجولت بالمنطقة شاهدت شيئا يلعب في الأفق ويتحرك مثل قطعة قماش كبيرة، أسرعت أعدو خلفها والهواء يدفعها بالاتجاه الذي أسير فيه وبالتالي مازلت تبتعد عني مازلت أوصل تتبعها حتى وصلت إليها، كانت مفاجأة طيبة؛ كانت قطعة قماش كبيرة وتبين لي أنها عبارة عن مظلة لأحد الطيارين الذين سقطت طائرتهم خلال الاشتباك الجوي الذي حدث منذ ساعتين.

حملت المظلة عائدا لموقع السيدة مادلين وبسبب ابتعادي مسافة كبيرة عن المكان الذي تركتها به لم أستطع معرفة مكان وجودها وأصبحت أتخبط سيرا من مكان لآخر، ظلت لأكثر من ساعة زمن أوصل السير لمئات الأمتار في هذا الاتجاه فلا أعثر عليها ثم أعود للاتجاه الآخر فلا

أعثر عليها أصابني الضيق والإحباط وهاجمني شعور عارم بالتقصير والإهمال وبأن أى شيء يصيب السيدة سوف أصبح المسئول الأول عنه، لقد تركتها شبه غائبة عن الوعي وهولت خلف المظلة كي أعثر عليها، لقد تركت الأساس وهولت خلف الفرع ماذا أنا فاعل الآن؟

جلست بجوار المظلة شبه باك ولكن الإحساس بالإهمال هاجمني ففرقت عيناى في بكاء حار فخرجت الدموع غزيرة حارقة علي خدي ووجهي ومازلت أتفوه ببعض كلمات من السباب لنفسى وتأنيب الضمير، لم أكن أعى ما يجري حولي فقد حل الظلام وخلال تلك المعزوفة الحزينة شعرت بشيء يمسك كتفي وأنفاس تلهث، صرخت ودعوت الله أن يرفع مقته وغضبه عني، مازال هذا الشيء ممسكا بكتفي والأنفاس اللاهثة تحرق مؤخرة رقبتي أعقبها صرخة مكتوبة واليد التي تشبثت بكتفي انفكت عنها ولم أعد أستمع لصوت الأنفاس اللاهثة التي خدمت فجأة، نظرت خلفي فشاهدت وجهاً ملائكياً ناصع البياض خلال حلقة الظلام، لقد كانت السيدة مادلين ومن فرحتي كدت أن أقبلها كما يحدث بين الأصدقاء، توقفت في آخر لحظة وحملتها بعيداً عن الشاطئ وفردت المظلة من حولها لتمنع عنها التيارات الهوائية، شعرت أثناء حملها أن ملابسها قد جفت من بلل مياه البحر، كانت سعادتني لا توصف وأنا جالس خارج المظلة التي فردتها من حولها كأنها خيمة، فكرت في اصطيد الكابوريا ولكني خشيت أن تضيع منى مرة أخرى ولهذا جلست لحراستها حتي الصباح.

لقد كانت ليلة غريبة، فهذه هي المرة الأولى التي اجلس فيها علي الأرض بعد أن قضينا خمسة وعشرين يوماً بالبحر شاهدا خلالها أهوالاً جساماً وتعرضنا للموت أكثر من مرة، كانت الطبيعة والكائنات البحرية ضدنا علي

طول الخط كما أن المرافقين لي ضعاف لا حول لهم ولا قوة، سيدة وطفل رضيع وعدو يهددنا ويطاردنا بالإضافة إلي نضوب ماء الشرب بعد خمسة عشر يوماً وقلّة الطعام المتوافر معناه، طوال تلك الليلة كنت أفكر في الطفل المسكين الذي ابتلغته مياه البحر وأصبح وليمة للأسماك والقروش وكنت أفكر حين تتبّه أمه من غيبوبتها ماذا سوف يحدث وكيف سيصبح رد فعلها؟

أثناء الليل وأنا جالس بجوار الخيمة البدائية التي أقمتها للسيدة لتقيم بها بينما كنت أتولى حراستها ورعايتها كنت أفكر وأتساءل: أين نحن وما اسم هذا المكان وهل تتوافر بتلك المنطقة مقومات الحياة؟ فلم أسمع أو أشاهد أناساً منذ هبطت علي الشاطئ عصر الأمس، كنت أمني نفسي بقاء بشر يقدمون لنا يد العون والرعاية والحماية كي نعود لأهلنا بالصعيد سواء السيدة مادلين بمحافظة المنيا أو أنا بمحافظة أسيوط، ظللت جالسا طوال الليلة ولم أتأثر بعوامل الطبيعة سواء من الرياح التي تصبح شديدة ونشيطة علي السواحل أو من برودة الصحراء بعد منتصف الليل كما شعرت بأن البدلة الميري التي أرتديها قد جفت وتخلصت من مياه البحر ومازالت تصاحبني حالة الحزن لفقدني غطاء الرأس "البريه".

أعتقد أن النوم هاجمني قبل بزوغ فجر هذا اليوم الجديد ومازلت أنا والسيدة نتم بالحياة بينما فقننا الرضيع المسكين غرقاً ولم تسعفه يد القدر كي تعمل علي إنقاذه، تذكرت النبي موسى حينما خشيت عليه أمه من أن يقوم الفرعون بقتله مثل باقي الأطفال الذكور وسمعت نداء رب العزة " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا

رَأُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. صدق الله العظيم

لقد كانت نصيحة إلهية؛ لكن من يعتقد في مثل هذا؟ إذا خشيت علي ابني ألقيه في النيل الذي كان يمتلئ بالتماسيح والمياه العنيفة لكن حماية الله فوق كل شيء، سكنت قليلا وقلت في نفسي لو كان شادي مازال في عمره بقية فسوف تحميه العناية الإلهية.

تنبهت علي أن أشعة الشمس قد أضاعت المنطقه وأعتقد أنني حصلت علي غفوة طويلة لأن أشعة الشمس شديدة ألهمت وجهي، سميت باسم الله وفتحت الخيمة للاطمئنان علي السيدة فشاهدتها كما تركتها بالأمس ولم تشعر بي ولم تستجب لندائي، أردد: ماذا أفعل وكيف التصرف؟ سرت في اتجاه الشاطئ لعلي أعر علي أي شيء يؤكل أو يشرب، لم أشاهد ما جئت من أجله لكني شاهدت أشياء كثيرة مبعثرة علي الشاطئ وكان واضحا أنها نفايات السفن التي تبحر في مياه البحر وتلقي بفضلاتها فيه تخلصا من تلك النفايات، فحصت النفايات وكنت أقلب في كل شيء أشاهده أمامي.

من ضمن ما عثرت عليه بعض عيوات بلاستيك ملقاة البعض منها فارغ دون غطاء والبعض الآخر مزود بغطاء، مازلت أتفحص تلك النفايات ومن خلال هذا فتحت غطاء عبوة بلاستيك كبيرة يصل حجمها في حجم البرميل فمأهت شيئا لا معاً ملتصقاً بالداخل، مددت يدي وأمسكت بما في داخلها وشممت رائحة ما حصلت علي جزء من هذا المعجون فتبين لي أنها تحتوي علي شحم معدات خاص بالمراكب، لا أعلم كيف تنبهت بأن هذا الشحم سوف يقدم لي فائدة كبيرة، استطعت الحصول علي كمية كبيرة منه بعد هذا قمت

دهان بشرتي كي أحميها من أشعة الشمس، بعد قليل شعرت بالراحة بل أن شفتي الملتهبتين لم أعد أشكو من أي ألم بهما، فكرت ولماذا لا أقوم علي دهان باقي جسدي والذي تسببت الفترة الطويلة بالبحر من وجود التهابات صاحبته آلام شديدة تدفني بالألا أستطيع أن أضع يدي علي بعض أجزاء لهذا الجسد الهزيل.

أسرعت بتنفيذ الفكرة، جلست بعد هذا أنتظر النتيجة، لم يمض وقت طويل إلا وشعرت أن جسدي يتعافي من تلك الآلام، أسعدني هذا وعدت بباقي الشحم لخيمة السيدة مادلين؛ كان باديا عليها وجود التهابات علي بشرتها الرقيقة البيضاء، وبدا أن بعض دماء قد ظهرت أسفل تلك الالتهابات، بهدوء قمت علي دهان وجه السيدة بالشحم فلم تشعر بأي شيء أو تنتبه كما قمت أيضا بفرد كميات من هذا الشحم علي باقي جسدها سواء الأرجل والسيقان والظهر والبطن وكل شيء ظاهر وواضح لي، كنت خلال هذا أطلب من الله أن يسامحني وهو يعلم قصدي ونيتي فهو علام الغيوب؛ بعد أن انتهيت من هذا العمل جلست مستريح البال.

حصلت علي قسط من الراحة بعدها توجهت للشاطئ لفحص النفايات فقد شعرت بأن شاطئ البحر به فوائد لمن يعيش بمنطقة جرداء مثل التي نعيش بها الآن، شاهدت بعيداً عن الشاطئ بقايا العوامة ومن حسن حظي أن الجردل الذي كنت أستخدمة لحفظ أدوات الصيد كان معلقا بأحد البراميل ويدخله الموقد الذي يعمل بالكيروسين كما أحاطت الشبكة "الجويبا" به من الخارج فمنعت سقوط ما به وأيضا بعض أطباق ألمنيوم وأحد الأكواب الفارغة وسكين.

شعرت بأنني عثرت على شيء مهم ومن أجل هذا قمت بأول شيء وهو وضع الشبكة بداخل المياه الضحلة التي مازالت متصلة بالبرميل بالحبل وعدت أبحث عن أشياء أخرى تفيدنا فشاهدت بعض أشجار غريبة المنظر ولا يزيد طول الواحدة منها عن مترين وهي تشبه أشجار الصفصاف ولها أفرع كثيرة مدلاة قريبا من الأرض وبها حبيبات مثل حبات الفاصوليا أو القول البلدي وكل حبة بمفردها وليست على هيئة قرن وعلمت فيما بعد أن تلك الشجرة هي المانجروف، أمسكت بتلك الحبة وضغطت عليها فخرج منها سائل، ترددت في تناوله ووضعت طرف لساني عليه وشعرت بأن مذاقه مقبول، تناولت حبة أخرى وثالثة ورابعة وأنا أضع كل حبة في فمي وأشرب ما بها من سائل.

شعرت بعد فترة بأن الظما قد ولي وأنتني قد ارتويت، قررت أن آخذ بعضاً من تلك الحبيبات وأتوجه بها للمسيدة مادلين، جمعت الكثير منها وذهبت إلي الخيمة فشاهدتها علي حالها، رفعت رأسها قليلا عن الوضع الأفقي فلاحظت أن الشحم قد أبدل من هيئتها فقد أصبح شكلها مغايرا لشكلها الطبيعي بطريقة عكسية تماما، كنت أفرغ حبة المانجروف المعبأة بالمياه العذبة في فمها شعرت بأنها تبتلع ريقها أي أنها تمتص السائل بداخل تلك الحبيبات، ظلت علي هذا الحال حتي شاهدت الماء قد توقف في فمها وهذا دليل على أنها قد ارتوت وتشبع.

تركتها وعدت للشبكة فوجدت أن الله قد أرسل لنا برزق كي نقات منه أخرجت الأسماك من داخلها وقمت بوضع الشبكة مرة أخرى بالماء بعدها قمت علي نظافة السمك، اختبرت الولاة البنزين التي معي فتبين لي أنها تعمل وصالحة فقد كنت أخشي علي كفاءتها بسبب السقوط في مياه البحر

أشعلت النار في العشب من حولي بعد أن حصلت علي عبوة صاج من بقايا نفايات السفن؛ كنت أفكر طوال الوقت كيف تتناول السيدة الطعام وهي في تلك الحالة من عدم الانتباه، تذكرت أنني كنت أشاهد بعض المرضى بالمستشفيات والذين لا يعتمدون علي أنفسهم في تناول الطعام فتقوم الممرضة بتقديم الطعام لهم علي هيئة شراب، أسرعت للأشجار وجمعت الكثير من الحبوب وفتحتها ووضعتها بداخل القدر الصاج ثم وضعت الأسماك فوق النار المشتعل من بقايا سعف النخيل الجاف وتركته لفترة زمنية حتي ينضج.

خرجت رائحة السمك تثير اللعاب، أخذت قطعة منه وتأكد لي أن الأسماك نضجت تماما والإناء به كمية من شوربة السمك التي كان ينقصها بعض الملح فصببت بعض مياه البحر المالحة التي كانت بجوارى علي الشراب حتي تأكدت أن مذاقه مناسب وقد أدى وضع مياه البحر إلي أن تصبح درجة حرارة الشوربة معتدلة، جلست بعض الوقت كي أتأكد من أن السيدة تستطيع ابتلاع الشوربة، قمت بوضع قليل من الشوربة في الكوب ووضعته علي حافة فيها وجرعات بسيطة كنت أضع كمية من هذا الشراب الساحر بالفم خلال هذا كنت أمني نفسي بأن أحصل علي وجبة بعد أن تنتهي السيدة من طعامها فقد ضرب الجوع معدتي نظراً لعدم تناولي الطعام منذ عدة أيام.

بعد مجهود وصبر انتهت السيدة من تناول الشراب وخلدت في نومها وأغلقت عليها الخيمة إلا من جهة واحدة تجنبا لأشعة الشمس ودرجة الحرارة بعد هذا جلست ألتهم طعامي بسعادة وأنا أشكر الله كلما تذهبتي حتي تشبعت وامتلأت معدتي، شعرت بتقل في رأسي من هذا الطعام الدسم الشهوي ومع قدوم نسيمات العصر الرطبة من ناحية البحر غفوت ولم أشعر إلا وأنا

في عالم آخر؛ تنبهت علي ظلام الليل بعد أن تكورت حول نفسي بجوار الخيمة من شدة البرودة ليلا، نهضت أحسن حالا ونظرت من حولي وفتحت الخيمة علي العبيدة فوجدتها علي حالها لكن الحزن كان يخيم علي صدري لأنني شعرت بأنها سوف تلقي ربيا خلال يومين علي الأكثر رغم ما أقدمه لها من عون نظرا لحالة الإغماء التي لبستها منذ خروجها من الماء، ومن المحتمل أن رأسها أصيب من جراء هذا ومن المحتمل أن رأسها اصطدم بأحد براميل العوامة أو قطعة من الحديد أفقدتها الذاكرة وجعلتها في تلك الغيبوبة.

ظللت طوال الليل يقظا متحسبا لما سوف يحدث وقررت صباح الغد أن أقوم علي نظافة وعناية الممسدس الميري الذي مازلت أحتفظ به معلقا في ملابسي وقد وضعته في لفافة بلاستيك خشية الرمال والعواصف بسيئات ولكني كنت أخشي أن تؤثر المياه المالحة علي كفاءة حيز الاستخداف نهضت صباح اليوم الثالث في هذا المكان وتوجهت لجمع بعض حبوب من أشجار المانجروف كي تشرب السيدة وإذا تبقى بعض المياه أحصل علي بعض الجرعات لأن حبيبات أشجار المانجروف صغيرة الحجم ولإعداد كوب ماء قد يتطلب هذا جمع محصول شجرة بالكامل، سرت بجوار الأشجار فلاحظت على إحدى الأشجار قطعة من قماش فمسكتها وحينما نظرت إليها تبين لي أنها تخص الرضيع شادي سواء من حجمها أو من المناظر والرسومات التي كانت تزينها بالإضافة إلي "المهابة" أو ما يسمى بالبرازة المعلقة بها.

وقفت صامتا أحاول التفكير للوصول للإجابة علي سؤال يطن في عقلي:  
من أين أتى هذا الجزء من الملابس ، لا يمكن أن يكون البحر لفظه لأعلي  
٤

الشجرة وهذا يدل على أن الطفل كان قريباً من تلك الشجرة، كيف صعد لتلك الشجرة وتعلق بها ثم سقط عنها، اقتربت أكثر من ساق الشجرة فشاهدت آثار دماء جافة وبكميات صغيرة بل وبعض قطع من قطن أبيض، جلست أسفل الشجرة أستعيد الوعي، أفكر بأن الطفل كان فوق الشجرة وهبط من فوقها والدليل على هذا بعض بقايا دماء من جروح أصابته وسالت علي تلك الساق أسرعت بالسير بجوار الشجرة فلم أعر علي آثار أقدامه نظراً لأن مياه المد تصل للمنطقة التي بها الشجرة لكنني عثرت علي مرتبة من التي كانت معنا بالعوامة وقد تقطع الكيس الذي يحتوي القطن ولهذا تأكد لي أن المرتبة اندفعت للشجرة ثم سقطت أرضاً وبالتالي تعلق بعض نتف من القطن بأحد أفرعها الجافة ثم دفع بها الهواء والرياح الشديدة بعيداً عن الشجرة، سرت يميناً ويساراً عدة أمتار حتي عثرت علي أثر لأقدام صغيرة الحجم بالرمال، كدت أصرخ فرحاً وخرجت الدموع من عيني فهذا يعني بأن الطفل لم يغرق بمياه البحر الأحمر وأن أسماك القرش لم تبتلعه.

حملت المرتبة إلي الخيمة البدائية التي أقمتها للسيدة وفردتها أرضاً وماعدت السيدة بأن ترقد فوقها مما أشعرتني بالراحة النفسية كي أخفف عنها ما تعانيه من الآم، تركت الخيمة وعدت للشجرة التي رأيت فوقها آثار الطفل وتتبع أثر الأقدام وبعد عدة أمتار تلاشي أثر الأقدام في منطقة صخرية حاولت البحث بعد تلك المنطقة الصخرية متابعة السير يميناً ويساراً دون جدوي، تأكد لي الآن أن الطفل لم يغرق ولكن السؤال الذي حيرني: كيف ظل علي قيد الحياة لأكثر من ثلاثة أيام دون الرضاعة من أمه ودون ملابس تقيه درجة الحرارة المنخفضة ليلاً والمرتفعة نهاراً، شعرت بأن الطفل قد مات والتهمت طيور النورس جسمه الصغير، مازلت أواصل السير بحثاً

عن الطفل، كانت تنتظرنني مفاجأة سارة، لقد شاهدت عين ماء تتبع من جوف الصخور التي أسير فوقها وتجري المياه بمجري صغير ثم يهبط الجدول لمنخفض بأحد الأودية وهذا الوادي ينخفض عن عين المياه قرابة عشرين مترا أسفل الصخور حيث الوادي متسع رحب فسيح، رغبت بالحصول علي مياه عذبة جميلة وبعد أن تذوقتها شعرت أنها غاية في الروعة فأسرعت لإحضار عبوة كي أملأها بالماء.

كنت راغباً بالعودة لموقع السيدة وإحضار العبوة الصاج ، ولكنني وجدت أن الزفارة من بقايا أسماك الأمس سوف تغير وتبدل من مذاق المياه وقفت أنظر للطبيعة من حولي فشاهدت نفايات السفن وكان من ضمنها العديد من "كور" الألعاب الرياضية والتي تمزقت ونقطعت بفعل عوامل الطقس، فحصتها واستطعت العثور علي جزء من كورتين بحيث كل كورة تصبح علي هيئة نصف كورة وبالتالي تصبح العبوة مثل السلطانية، أسرعت لعين الماء كي أملأ تلك الكور ولكن المفاجأة الغير متوقعة سماعي لبكاء طفل.

توقفت عن مهمة ملء أنصاف الكور وأنا أحاول الاهتداء لمصدر هذا البكاء الذي توقف لفترة مما جعلني أعتقد بأن خبلا قد أصاب عقلي من كثرة التفكير في مصير الطفل، جلست هامداً وبعد قليل عاد صوت البكاء يخترق أذني واستمر وأنا أتابع من أين يأتي صوت البكاء، لقد كان صوت الطفل صاعداً من الوادي، تركت ما بيدي وأسرعت بالهبوط بجوار هذا الجدول العذب وسرت بجوار مصبه مسافة قرابة مئة متر، كان الجدول يجري علي هيئة قوس هناك شاهدت منطقة خضراء تدفع الإنسان للبهجة وتسعد أي حزين، كما شاهدت قطيعاً من الماعز سرعان ما تبين لي حين الاقتراب منه أنه خليط

بين الماعز والغزال الجبلي المنقط بديع المنظر وهذا النوع من الغزال أصغر من الماعز في الحجم ومنظره يسر العين والنفس.

اقتربت من القطيع الذي ظل ساكنا وأنا أدقق النظر في هذا القطيع الذي لا يقل عدد ما به من رعوس عن المائة، أنظر من حولي وبين رعوس القطيع متسائلاً: أين الطفل؟ توقفت وتأكد لي أنها أصوات مأمأة الماعز؛ عدت ثانية من حيث أتيت ولكن بعد أن سرت بضع خطوات سمعت البكاء مرة ثانية وزيل هذا البكاء بكلمة ماما، توقفت وتأكد لي بأنه لا توجد ماعز أو غزال تنادي بهذا النداء الذي يخص بني الإنسان.

عدت ثانية وسرت بين أفراد القطيع وتوقفت وتسمرت وتلاحقت أنفاسي وكنت أسقط من طولني من هول المفاجأة مما دفعني لأن أجلس خشية السقوط ما رأيته كان أعجب ما شاهدته خلال حياتي التي تعدت الخمسين عاماً شاهدت الطفل بوضع السجود واضعاً فمه في ضرع عنزة والأهم أن العنزة تنام علي جنبها كي يقوم الطفل بالرضاعة وهذا يخالف طبيعة تلك الحيوانات فهي مثل الأبقار والجاموس ترضع صغارها وقوفاً أما هذا الوضع فهو خاص بالحيوانات أكلة اللحوم من أسود ونمور وكلاب وقطط.

أثناء رضاعة الصغير لا حظت أن إحدى الماعز صغيرة الحجم تأتي تضايقه رغبة بالرضاع فيقوم بدفعها والدخول في البكاء مما يدفع الأم إلي إصدار صوت مأمأة معين علي أثره تبتعد العنزة الصغيرة، خرجت الدموع من عيني وأجهشت بالبكاء ومن حولي قطيع الماعز والغزال تنظر إلي لكن ما لفت نظري أن الطفل ترك ضرع العنزة ونظر للخلف فشاهدني فنهض واقفاً

قائماً في اتجاهي يردد "تبر" .. "عامه تبر" .. "أي عم جبر" ازدادت دموعي غزارة وأنا أحنو عليه أقبله بسعادة أهدد عليه حيث كان الطفل عارياً دون أن يستر جسده الضعيف الرقيق أي شيء، ولاحظت بعض الخدوش وجروح جافة مازالت آثارها باقية علي جسده الصغير مع بعض القاذورات التي ألمت به كان جسده الأبيض قد غطته الأتربة وبقايا إخراج الحيوانات.

تأكد لي صحة استنتاجي بأن الطفل حين انفجار العوامة طار في الهواء ومن المحتمل أنه تشبث بالمرتبة والتي سقطت علي أفرع الشجرة وهو بداخلها ومن أثر الصدمة أنفكت يده الصغيرة عن المرتبة فسقط أرضاً وبالتالي أصابته تلك الخدوش وأسالت بعض دمائه لكن ما أفسد فرحتي وبهجتي بالعثور علي الطفل أن العنزة الأم أصدرت صوتاً مستمراً ومميزاً شاهدت علي أثره أحد ذكور الماعز الكبيرة ذات القرون الطويلة "التييس" قائماً في اتجاهي ودفعني بأحد قرونيه مما أثر عليّ فانقلبت علي ظهري أرضاً بعد أن قطع جزءاً من البذلة الميري من جراء هذا، خلال هذا شاهدت العنزة الأم قد عادت ونامت علي جانبها وعادت للوضع الأول فتبعها شادي واستكمل عملية الرضاع، مازال ذكر الماعز القوي الشرس واقفاً يحرك أقدامه الأمامية بالتبادل كأنه يضرب بحافره أرضاً استعداداً لمهاجمتي.

ابتعدت قليلاً عن القطيع في انتظار انتهاء شادي من وجبته الطويلة وعراكة مع أبناء العنزة الذين وقفوا بجواره كأنهما ينتظران دورهما، الحمد لله وقف شادي وأقبل ناحيتي يصفق بيديه بضربهما معاً بحركة غير منتظمة فنصف الكف الأيمن علي الكف الأيسر باسمًا ضاحكا ورافعاً يديه ناحيتي راغباً بحمله مردداً "تبر .. تبر" حملته وفي تلك اللحظة أقبل التيس ونطحني فسقطت

أرضاً ويجوارى شادى مما دفعه للبكاء وحينئذ سمعت صوت مأمأة العنزة الأم كأنها تطلب من زوجها الهدوء وعدم الاتفعال خشية علي صغيرها شادى.

مازال الذكر واقفاً ومما زاد الطين بلة أن أقبل تيس الغزال راغبا بمشاركة تيس الماعز الدفاع عن القطيع ضد هذا العدو المغتصب حقوقهم، وقفت بعيداً بينما تجاهلني شادى وانضم إلي إخوته من أبناء الماعز والغزال يلاعبهم ويجري خلفهم سعيداً بتلك الصحبة ونسيتني أنا وأمه وشعرت أن هذا الطفل قد يصبح أحد أفراد هذا القطيع من شدة اندماجه معهم ومما أثار إستغرابي واندعاشي أن شادى أثناء لعبه خرجت منه بعض الفضلات من الأمام والخلف فشاهدت العنزة الأم تنهض وتأمأاً وتدفعه قليلاً للأمام مما دفعه للبكاء ثم خفضت من رأسها وقامت بلحق ما تبقى من تلك الفضلات بلسانها مثلما تفعل القطط والكلاب مع صغارها

جلست هامدا لا أستطيع تفسير ما شاهدت سوي العناية الإلهية وعادت إلي ثانية مسيرة النبي موسى وأيضاً النبي يوسف وغيرهم حيث إن الله هو القادر علي حماية أي إنسان مهما رغب أهل الأرض بإيذائه، انتصف النهار ومازلت جالما في انتظار أن تسمح لي تلك القطعان في اصطحاب الطفل معي لكن لم تترحزح العنزة الأم عن موقفها ولا التيس الحامي لهذا القطيع أيضاً ولم يهتم بي شادى وأنا أنادي عليه بأنني سوف أسير وأردد كلمات مشجعة أن أقبل معي كي تشاهد "ماما مادلين" فدفع بيده في الهواء كأنه يقذفني بحجر أو ما شابه ذلك كأنه يقول لي غور في ستين داهية واتركني مع أمي البديلة وأحبابي وأصدقائي من الماعز والغزلان.

فشللت في مهمتي ورغم هذا خالجنى شعور طيب بأن الطفل مازال علي قيد الحياة وأن هناك عائلات كثيرة من الماعز والغزال ترعاه وتحميه والآن علي التوجه لتلك السيدة المسكينة التي سوف تقابل ربها مساء هذا اليوم أو اليوم التالي علي أكثر تقدير.

## من غرائب المخلوقات

وصلت إلى خيمة السيدة ، ونظرت بالداخل فشاهدتها كما هي من حالة السكون والخمول وعدم الحركة، وكالعادة لم تستجب لندائي وحديثي معها بل لم تنتظر ناحيتي أو لأية جهة أخرى، جلست خارج الخيمة أفكر بالخطوة التالية هذا هو نهار اليوم الثالث علي وشك الانتهاء ولم يجد جديد علي حال السيدة فكرت ما هو حالي إذا اكتشفت صباح الغد أنها قابلت ربها، من سوف يقوم علي غسلها وتكفينها وهل مراسم دفن الأقباط بمصر مشابهه للمسلمين، كل تلك الأمور تحتاج النماء ونحن نعيش في عالم بمفردنا شعرت بأنني في طريقي لغفوة وبالفعل لم أشعر بنفسي.

### ماتلين:

كانت سقطتي بالماء من فوق العوامة شديدة الأثر علي حالي وفي الوقت نفسه أفقت وتنبهت سواء من برودة المياه أو من صدمة السقوط والانفجارات التي كنت أسمع أصواتها وأنا شبه غائبة عن الوعي، شعرت بعد سقوطي بالماء أنني أهوي لأسفل فحاولت المباحة ليس حباً في الحياة ولكن حباً في إنقاذ شادي فقد تأكد لي أنه سقط هو الآخر وسوف يلقي حتفه فهو صغير ولا يستطيع المباحة أو مقاومة الغرق ولن يعثر عليه أحد كي يقدم له يد المساعدة.

شعرت أنني أتجه لسطح الماء وكان هذا بادياً من الضوء الذي كنت أشاهده علي السطح، بالفعل وصلت لسطح الماء بصعوبة ولكن الإرهاق كان

قد أخذ مني قدرًا من الجهد والمقاومة، لم أعد قادرة علي مواصلة السباحة للشاطئ، شاهدت بجوارني جسمًا طافياً فاقتربت منه وتبين لي أنه الباب الخشبي الذي كان يستخدمه عم جبر كشرع للعومة، بكل صعوبة اقتربت منه وأيضاً بكل ما أوتيت من قوة استطعت أن أميله جانباً حتي تمكنت من النوم علي سطحه شعرت بعدها أنني أطفو، ولم أعد أشعر بأي شيء آخر.

لم أعي كم من الوقت مضى علي حالي لكن حينما تنبهت وجدت أنني خارج الماء وقد زال عني البلبل؛ كنت أنتبه من حين لآخر فأشاهد عم جبر يتحرك يمينا ويساراً ثم يتحدث إليّ في بعض الأوقات بل شعرت به وهو يروي ظمئى كما شعرت به وهو يدلك جسدي بشيء هلامي بل حين محاولته بأن يضع هذا الشيء الهلامي أسفل جسدي؛ فقد كنت راغبة في الصراخ أو الدفاع عن شرفي فلم أتبين الغرض مما يقوم به هذا الرجل لكن نحن النساء دائماً ما نشعر بالانتباه والتحفز حين البعد عن الأهل أو في حالة عدم وجود رجال أقارب من حولنا يقدمون لنا يد الحماية والأمان، هذا ما كنت أشعر به منذ بداية الرحلة بالإضافة للخوف من المجهول؛ كنت أتوقع أن يهاجمني الرجل ونحن في خلوة بعيداً عن البشر رغم إحساسي وحببي له كأب لكن الظروف الصعبة تبدل من أخلاق البشر وبالأخص حين الابتعاد عن الناس والقانون وجهات التحقيق مما يدفع بالناس إلي القيام بتصرفات مغايرة ومخالفة لما اعتدنا عليه من التمسك بالدين والأخلاق.

أشعر بالآم بصدري منذ الأمس؛ لقد احتقن صدري لوجود كمية كبيرة من اللبن به ولم يعد شادي بجوارني وأين هو وإذا كان علي قيد الحياة فكيف يحصل علي رضعته كما هو متبع ، لقد أثر بعده عني فازداد اللبن

المتراكم بداخل صدري بل وسبب لي آلاماً شديدة توقظني من حالة فقدان الذاكرة التي صاحبتني قبل سماع الانفجارات التي دمرت العوامة، لا أعلم كيف التصرف في مثل تلك الأحوال، ولو علمت كيفية التصرف فليس لي القدرة أو الطاقة لتنفيذ أي حل يريحني من عناء هذا الألم، مازلت لا أعلم أين شادي؟ ولماذا عم جبر يخفيه عني، أشعر أن شادي انتقل للأمجاد السماوية يرقد بجوار يسوع ووالده، آه .. إنني أشعر بالتعب ولا أستطيع التصرف، لقد ضاق عليّ الخناق بلباس البحر هذا؛ فقد تضخم الثديي، ولم يسمح لي لباس البحر بالحصول عليّ فسحة للثدي المتخم، آه .. يجب أن أتصرف .. تذكرت بأنه يمكنني قطع لباس البحر بين الثديين بحيث يسمح لي بأن يظل الثديي غير محصور في مكان ضيق وبالتالي يقل الألم، مازلت أشعر بعدم تركيز رغم أنني أسمع عم جبر من حين لآخر يحدثني لكني لا أهتم به ولا أقدر عليّ مجازاة أحاديثه؛ أشعر بحالة من التيه كلما نظرت حولي ولم أشاهد شادي بجواري؛ لقد كنت أعتقد أن عم جبر يهتم به الآن.

### جبر:

وصلت للخيمة فشاهدت السيدة مازالت عليّ وضعها السابق؛ أشاهدها تتقلب يميناً ويساراً مثل إنسان حلماً مزعجاً، أنادي عليها دون جدوى خلال هذا كنت أتوسل لله عز وجل أن يخفف آلام السيدة، لم تمض دقائق عليّ هذا التوسل والدعاء لله وإذ بي أشاهد اثنين من حيوانات الضب الزاحفة الخطيرة والتي تشبه التمساح الصغير، ويصل طول الحيوان لربع متر أو طول المسطرة ومزود بغضاريف قاتلة، خشيت منها ووقفت بعيداً، توقف الإثنان ونظرا إليّ بعيونهما المخيفة ثم تحركا عائدين جهة السيدة وحركا زيلهما

ثم أسرعاً عائدين من حيث أتيا، بعد قليل عادا ثانية ونام أحدهما أرضاً فوق ظهره علي خلاف عاداته فشاهدت بطنه ذات اللون الأصفر بها بقعة حمراء فأقبل الحيوان الآخر الذي كان يضع في فمه فرعاً من نبات الزعتر الجبلي ووضعه في فم زميله الذي مضغه وأسرع الحيوان تاركاً زميله الملقى علي ظهره وعاد بعد قليل يحمل في فمه نبات ورد الجبل ووضعه فوق البقعة الحمراء وبدا في تدليك زميله بهذا النبات، بعد أن انتهى لم أعد أشاهد البقعة الحمراء وغادر الحيوانان المنطقة بعد أن فقدت النطق والتفكير مردداً: الله أكبر والذي علم الإنسان ما لم يعلم ، فمنذ بداية الخليقة أرسل الله بالغراب كي يدفن هايبيل الذي قتله أخوه قابيل وكان هذا هو أول حانوتي في البشرية والآن ترسل لي باثنين من الأطباء ومعهما الدواء حكمتك يارب.

كنت أشاهد نبات الزعتر الجبلي بسيئاء، وأسمع عن فوائده؛ حيث أن غليه بالماء وتناول شرابه يمنع التقلصات ويزيل الأورام والالتهابات كما أن نبات ورد الجبل يساعد علي علاج حالة السيدة لأن عمل عجينة منه ودهان مواضع الالتهابات يقلل من تأثير تلك الالتهابات بشكل كبير.

أسرعت بالبحث عن نبات ورد الجبل ونبات الزعتر فشاهدت أحد حيوانات الضب يقف قريباً من مجموعة نباتات فاتجهت إليه فتبين لي أنها نبات ورد الجبل فأخذت مجموعة منه، وشاهدت زميله الذي كان يقف في جهة أخري فتبين لي أنه يقف عند مجموعة نبات الزعتر الجبلي، أخذت كمية منه وعدت إلي السيدة والبكاء هو حالي علي قدرة الله وعظمته أن دفع بتلك المخلوقات كي تقدم لنا يد المساعدة لعلاج السيدة مادلين.

أسرعت بإحضار بعض الماء من عبوة نصف الكرة وأخذت منها القليل في الإناء وأشعلت النار ووضعت عليه وألقيت بنبات الزعتر الجبلي به ثم تركته علي النار حتي أصبح شرباً متجانساً فأنزلته من فوق النار وأفرغته بالكوب الوحيد، غسلت الإناء المعدني ووضعت به بعض الماء ثم وضعت نبات ورد الجبل به وتركته علي حافة النار الهادئة لفترة طويلة خلال هذا شعرت أن درجة حرارة شراب الزعتر يمكن للسيدة أن تتحمل تناوله، قمت بهدوء بمساعدتها للحصول علي عدة رشقات منه حتي أتت علي ما في الكوب من شراب.

تلك كانت المهمة الأيسر أما المهمة الأصعب فكانت التالية؛ كيفية وضع هذه العجينة اللينة علي جسد السيدة؟ فقد أصبح المعائل بداخل الإناء فوق النار المشتعلة شبه هلامي فأنزلته من فوق النار وأخذت العجينة التي تكونت ووضعتها علي حافة الخيمة حتي أصبحت الدافئة قليلاً فأخذتها وسميت الله ثم قمت بدهان وجه السيدة ورقبتها وأنا أردد الدعاء "اللهم /حفظ ولايانا" خلال ذلك كانت السيدة تنتفض من شدة الألم حيث كان اللون الأحمر قد خضب جسدها وكنت أشعر بأنها محمومة مع تضخم وجهها.

شعرت بأنني أديت واجبي نحو السيدة وسوف أترك الباقي علي الله فهو الشافي من كل داء، توجهت صوب الوادي كي أطمئن علي الطفل، شاهدت الطبع يرعي بهدوء وسكينة، كنت أحاول أن أسبق المسافات بنظري كي تطل عيناى مشاهدة شادي لكنني لم أشاهدة حتي اقتربت لمسافة قصيرة من الحيوانات التي ترعي والبعض منها نائم علي جانبه والصغار يلهون حول الأمهات وأيضاً بعض الصغار يرضعون من الأمهات، أصابني

الخوف والجزع وتساءلت: أبعد أن ينجي الله الطفل وأعثر عليه أفقده هكذا وأنهاون في حمايته خشية بعض ذكور الماعز والغزلان، أنه لشيء محير ومثير للشفقة.

جلست بعيداً عن محيط الحيوانات الراحية أفكر فيما حدث للطفل وأفكر أيضاً لو شاء الله ومنح الشفاء للسيدة وسألتني عن مصير طفلها فبماذا أجيب علي سؤالها، شعرت بأن الخبل سوف يصيب عقلي ولن يكون هناك اختلاف عما حدث للبدوي الذي أصبح مضرب الأمثال بفقده خفه وأصبح المثل والأضحوكة لمن يفقد القدرة علي التفكير بفقده خفي حنين، وهذا اسم البدوي لقد شعرت أنني سوف أصبح مثله لكن هناك فارقاً بيننا، لقد فقد البدوي الخفين لكن هنا فقدنا بشراً أي طفل رضيع، لقد تركت الطفل كي أرعى أمه مادلين وحين العودة لرعاية الطفل مرة ثانية فقدته والآن يجب علي التوجه لرعاية مادلين مرة ثانية، أطلب من الله أن يحفظها وينجيها من الفقد أو التيه وتترك المكان بحثاً عن طفلها وألا تضل بالصحراء ولا تستطيع العودة ثانية لموقع الخيمة علي الشاطئ، إذا سوف أنهض الآن متجهاً لموقعنا حيث ترقد السيدة اخترقت أذني سماع صوت بكاء الطفل، لقد كان صوت بكائه واضحاً، وقفت قليلاً كي أستوعب الموقف وأتأكد من أنه صوت ثنادي، سمعت صوت البكاء مرة أخرى ولم يكن متقطعاً مثل سابقه بل متصللاً فأسرعت أعدو بين قطيع الماعز فشاهدته ينام أرضاً ويجواره بعض الماعز الصغيرة ومن المحتمل أن إحدي صغار الماعز قفزت فوق جسده بحافرها فأصابه الضيق والألم.

انحنيت عليه وقبلته وتبته لي وابتسم مردداً " عامه تبر .. عامه تبر .. ماما .. ماما " ثم بكى فبكيت مثله وحملته عائداً به لأمه لكن الماعز

الأم أصدرت نداءها فأقبل التيس "سي السيد" مسرعاً ونطحني بجاني فسقطت أرضاً؛ كان شادى بين ذراعي، نهضت ثانية راغباً باستكمال السير لكنه هددني وسمعت صوته ينفجر ويدق الأرض بقدميه الأماميتين وهذا في عرف تلك الحيوانات أن الضيق قد فاض به ولن يتركني، تدخلت الأم لإنقاذ الموقف وأقبلت ورفعته قدميها لأعلي حتى اقترب وجهها من وجه شادى فأمسك بوجهها فأصدرت صوتاً شعرت بعدها أن الطفل تململ مني راغباً في ترك كتفي، حاولت منعه لكنه أعاد ضيقه وأعقبها ببكاء لم أستطع تحمله، وضعته أرضاً فأسرع جهة الماعز الأم يتحسس وجهها فبادرته بأن قامت بلعق وجهه بلسانها ثم نامت أرضاً فظهر ضرعها الممتلئ باللبن فانحني شادي وانهمك في الرضاعة، تحركت بظهري للخلف كي أمتع نظري بتلك العناية الإلهية والرعاية الربانية بمخلوقاته، ظللت عائداً حتى شاهدت شادى قد انتهى من رضعته ونام فوق ضرع الماعز الأم وتجمعت بعض صغار الماعز من حوله يقدمون له الدفء نظراً لعدم وجود ملابس تستره.

تركت شادى في حماية الله ورعاية هذا القطيع من الأنعام، أسرعت في اتجاه السيدة لا أستطيع السيطرة على أفكارى المشتتة المبعثرة عما شاهدت وما أشعر به؛ كانت تتابني مشاعر إيمانية عالية تدفعني للبكاء والدعاء لله والمجود شكراً لعونه ورعايته، فيكل المقاييس العادية لم يكن يتوفر لنا نحن الثلاثة أن نفلت من موت محقق لرحلة جهنم الأحمر وليس رحلة البحر الأحمر، لقد كانت كل الظروف القاسية ضدنا علي طول الخط، الحمد لله وصلت للموقع ولأسرع لأطمئن علي وجود السيدة، الحمد لله أشاهدها ترقد في سلام، ولم تعد تصدر منها أصوات الأُم التي صاحبته خلال الأيام الثلاثة

الماضية، سوف أقدم لها شربة ماء وأحاول أن أعمل علي تنبيهها ورفع رأسها.

. الحمد لله يا مت هانم، شربتني ميه كثير النهارده

لم تجبني ولكنها نظرت إلي نظرة ذات مغزى كأنها تريد الاستفسار عن وحيدها، بعد قليل أغمضت جفنيها ودخلت في سبات عميق، جلست قليلاً ثم نهضت في اتجاه شاطئ البحر؛ لقد غابت الشمس عن هذا اليوم وقفت علي شاطئ البحر كأنني حاكم لتلك المنطقة، فأنا الإنسان الوحيد بها ولا أشاهد أحداً من الرعية كما لا يوجد شخص يصدر لي الأوامر والتعليمات، لم يكن بهذا المكان سوي ثلاثة من بني البشر، أنا والسيدة التي لا تعلم من أمر الدنيا شيئاً وطفلها الذي يحيا ويعيش مع الماعز ولا يفرق بينها وبين البشر، لقد عاد للطبيعة البشرية الأولى والحياة بالبراري والكهوف، لم يجد من يحنو عليه ويرعاه إلا تلك المخلوقات التي تتحدث بالإشارة تارة وبإصدار مأمأة تارة أخرى وتلك المأمأة قد تعارفت عليها وتعلم معني كل مقطع منه ودرجة الصوت حتي شادي تفهم هذا لأنه مازال بعيداً عن مقومات الإنسان الكامل فلا يستطيع التحدث أو تكوين جملة لكنه يفعل مثل الماعز فهي تماماً وهو يبكي ويشير بيديه والقطيع يفهمه فما الذي يدفع العنزة الأم لأن تقبل مسرعة نحوي وتمنعني من أن يظل بصحبتني وتشير إليه بالعودة إليها بأن تصدر له صوتاً وترفع قدميها للأمام بارتفاع كتفي حتي يتملص مني ويتركني عائداً لها.

بعد أن حل الظلام استطعت اصطياد العديد من حيوان الكابوريا، عدت بعدها لمكاني وأشعلت النار ووضعت الماء بالعبوة الصاج وبداخلها الكابوريا

بعد أن وصلت درجة حرارة الماء لدرجة الغليان تركتها لعشر دقائق؛ شعرت بأنها قد نضجت فقامت علي تقشير بعض قطع من الكابوريا ووضعتها بقم السيدة التي كانت تستجيب لي وتتناول طعامها بمضغه كما كانت تبتلع المياه التي أقمها لها قريباً من فمها، أعتقد بأن السيدة تناولت كمية من الطعام في تلك الليلة لا بأس بها كما شعرت أثناء لمسي لوجهها أن درجة الحرارة قد انخفضت وشعرت أن وصفة الطيبين "حيوان الضب" قد أتت ببعض النتائج الطيبة؛ كنت أمني نفسي بتمام نجاحها وإفاقتها كي تعتمد علي نفسها وترفع عني الحرج الذي لازمني حين كنت أقدم لها يد المساعدة الواجبة.

نهضت صباح اليوم التالي وشعرت بنوع من البهجة بداخل قلبي ومشاغري وأن هذا اليوم سوف يصبح يوماً سعيداً متقائلاً علينا نحن الثلاثة ولا أعلم السبب في هذا، اقتربت من الخيمة فشاهدت السيدة تنام وشاهدتها تتحرك أثناء نومها وأيضاً تحاول وضع قطعة القماش التي تتمر جسدتها بوضع يريحها فتركتها وأسرعت لمياه البحر، وتوضأت وقمت بأداء الصلاة شكراً وحمداً لله أن أرسل لنا من مخلوقاته من يضمد آلام تلك السيدة وتذكرت أن القرآن الكريم مليء بمثل تلك الصور والمعجزات التي تبين قدرة الله سواء في سورة النمل أو العنكبوت أو سبأ وحوار الهدد مع النبي سليمان أو الحوت الذي التقم النبي يونس ثم حبال وعصي موسى عليه السلام التي انقلبت إلي ثعابين تسعى وكل هذا كان بأمر وقدرة الله عز وجل.

أديت الصلاة وشكرته علي نعمته وأثناء عودتي شاهدت السيدة تجلس تنظر حولها فأسرعت إليها أحدثها، بعد قليل تنبهت ووعت لما حدث؛ تساءلت عن مصير شادي فأخبرتها بموجز <sup>٦٩</sup> عن حاله وأنه بخير، طلبت مني

إحضاره فطلبت منها إرجاء هذا للغد، نظرت إليّ ساهمة والدهشة هو حالها  
وتساءلت عن من قام بوضع تلك العجينة علي وجهها، أخبرتها بأنني من قمت  
بهذا، ثم تساءلت:

- هل ما قمت به هو الذي قلل من الآمي التي كنت أشعر بها حيث كنت  
أشعر بأن حمي تمسك جسدي وعقلي وكنت في حالة من التيه، أجبته: نعم  
سينتي وتلاحظين أن تضخم الوجه قد قل حجمه عن ذي قبل كما أن احمرار  
لونه قد خفت أيضاً.

ابتسمت وعلقت بكلمات قليلة بأن هذا ما شعرت به وأن هذا هو الذي  
ساعدها علي أن تتبها وتساءلت ماذا أفعل في كمية اللبن المتضخم بداخلي  
صدري فأخبرتها بما كانت تقوم به زوجتي، شكرتني ودخلت لداخل الخيمة  
وأعتقد أنها قامت بمثل ما كانت تقوم به زوجتي من عصر حلقات الثدي  
فيمسّاقط منه قطرات اللبن وبالتالي يخف الضغط بداخل الثدي وهذا يؤدي إلي  
راحة الأوردة وبالتالي يقل الاحتقان والألم، بعد فترة غادرت السيدة الخيمة  
وشعرت أن حالتها قد تحسنت ثم أسرع لمياه البحر كي ترطب جسدها بالماء  
البارد.

تركتها تلهو وأسرعت للشبكة فشاهدتها قد امتلأت بخير البحر فقامت علي  
إعداد وجبة سريعة من السمك المشوي علي النار وقررت حين ينضج سوف  
أقدم بعضه للسيدة، أقبلت عليّ أحسن حالا وتتنظر حولها تتلفت كثيرا ثم عادت  
تسألني بلهجة يغلب عليها الخوف والرعب:

. فين شادى؟ قول لي إذا كان جرا له حاجه، ربنا يخليك لأولادك تطمنى عليه.

عدت وشرحت لها ما شاهدته خلال اليومين الماضيين وما شاهدته أثناء الزيارة؛ حيث يعيش بين قطيع الماعز، كانت السيدة تنظر إليّ بنوع من الدهشة وعدم الاقتناع بما أقول، كانت تحرك رأسها بميل ذات اليمين ثم تميل بها بنفس الحركة يساراً ثم أشارت إليّ بأصبع السبابة للأمام ناحيتي تردد:

. أنت عايز تقنعني أن ابني لسه عايش مع المعيز وفضلها علي أمه، إيه اللي أنت بتقوله، أنت كبرت وياين عليك بتخرف.

نهضت تاركاً المكان، فالسيدة دفعها حبها وخشيتها علي طفلها أن تهاجمني وتلقي علي مسامعي بكلمات سيئة لا مبرر لها، جلست بعيداً حتي تواريت عن نظرها، بعد قليل شعرت بقدمها ولحقت بي مؤنبة نفسها علي التفوه بتلك الألفاظ السيئة لرجل تعتبره مثل أباه البعيد عنها وحاميها بعد أن أبعدها الزمن عن الأهل والأوطان ومونس وحدتها بعد أن فقدت الزوج والذي لم تجف لمعتها بعد أن فقدت الولد.

أشرت إليها عند تلك الجملة بالتوقف وعدم استكمال ما بدأت من حديث طالباً منها العودة للخيمة كي تتناول طعامها بعد هذا سوف أخذ بيدها لمشاهدة طفلها، عادت تنظر إليّ نظراتها المتشككة، تجاهلت ذلك وأسرعت للمسك المشوي الطازج الذي يسيل اللعاب ويدأت في تناول طعامي؛ ضرب الجوع أجنابي، لحقت بي وتناولت طعامها صامتة وبعد أن انتهينا ناولتها نصف الكرة البلاستيك لتشرب منه وتقلب فيها وتنظر إليها بدهشة.

نهضت فتبعنتي وأثناء سيرى حدثتها بكلمات قليلة: سيدتي الآن سوف نتوجه للقاء شادى كي تطمئني عليه وإذا رغبتى بأن تعيديه إليك فلا مانع؟ نظرت إليّ بدهشة ولم تعلق وسمعتها تردد بعض كلمات أجنبية ولم أعلق لأنني لا أعلم ما تقول، سرنا في اتجاه الوادى وتبين لنا أن القطيع قد انتقل لمكان آخر أبعد من المكان الأول؛ حيث تكثر به الحشائش الخضراء والذي كنت ألاحظه من علي مسافة بعيدة، مازالت السيدة تنظر إليّ ثم توقفت متسائلة: إلي أين أصطحبها؟ فأعدت قول ما سبق ونوهت عنه، سارت بضيق وكان سيرها بطيئاً نظراً لوجود بعض الحصى أثر علي بطن قدميها نظراً لأنها تسير دون حذاء فقد فقدت كل شيء بالعوامة؛ كنت أشاهد وألاحظ علامة من علامات العافية عند البشر علي وجهها، كنت في غاية السعادة فقد أنعم الله عليها بالصحة رغم أننا في بداية الطريق، كلما واصلنا السير كانت تتسائل كل عدة دقائق عن شادى وأنا أؤكد لها أنه بخير، شعرت بأنها لم تعد تصدق حديثي، أعدت إخبارها بما شاهدت فازدادت شكوكها وأصبحت غير مقتنعة بأن هناك أنثى ماعز تقوم برضاعة وليدها .

أسرعت تمسك بيدي رغبة بمشاهدة طفلها وتحاول أن تمحو آثار الشحم بدعكه بالرمال وأخبرتني بأنها حاولت ذلك أثناء لهوها بالماء من إزالة بقايا الشحم دون فائدة فأخبرتها أنني سوف أبحث لها عن "سولار أو جاز أبيض" من أجل هذا الغرض، الحمد لله وصلنا إلي قطع الماعز قبل هبوط الظلام حينما شاهدت مادلين ابنتها شادى من علي مسافة بعيدة نسبياً سمعت صوتها يصرخ في الفضاء "سادسى" تلفت الطفل نحو أمه فشاهدها فأقبلُ مسرعاً نحوها يردد " ماما .. ماما .. ماما ، ثم جري في اتجاهها وأثناء اندفاعه نحو أمه كان يتعثر فيسقط بينما مادلين كانت تقفز في اتجاه الطفل حتي

التعيا فرفعته لأعلي وقبلته قبلة طويلة وضمته لصدرها بقوة كادت أن تحطم عظامه الرقيقة فبكي فقتبته وجلست أرضاً بين الماعز والغزال وأخرجت ثديها فابتعدت عنهما بعض الشيء وجلست خلفهما وحينما بكى نهضت العنزة الأم وأقبلت نحونا وفي تلك اللحظة كانت مادلين قد جلست أرضاً وأمامها شادى الذي رغب بأن يتأكد بأن التي أمامه هي أمه؛ كان يشير بيديه نحو أنفها ويمسك خصلات شعر رأسها فتضمه لصدرها وتعطيه قبلة الحياة والعاطفة التي تذيب العواطف رقة وسعادة.

كنت أسمع مواء "القطط" للطفل أثناء الرضاعة؛ كان يزوم من حين لآخر لكن الشيء الطريف والغريب والمدهش أن العنزة الأم لم تطلق استغاثتها مثلما فعلت معي وبالتالي لم يتحرك "سي السيد" لمهاجمتنا، مازالت مادلين تجلس أرضاً تحتضن طفلها تقبله، شعر الطفل أنه امتلاً من الخير الذي أرسل به الله إليه دون أن يسعى له فشعرت مادلين بهذا فحملته بين يديها ووضعته قريباً من صدرها مما دفعه لأن يضع يديه بصدرها ونام علي صدرها بهذا الوضع كنت أتبعهما وأنا مازلت أراقب قطيع الماعز والغزلان خشية مهاجمة الذكور لنا أثناء سيرنا لكن هذا لم يحدث وكل ما حدث وداع من بعض أصداقائه الصغار من الماعز والغزال الرضع الذى هرول خلفنا كأنهم يودعون الصديق العائد لحضن الأم الحنون، كنت أتبع الأم وابنها وأنا لا أكاد أشاهد الطريق من كثرة الدموع مما دعا السيدة لأن تقف وتتنظر إليّ باسمة تسألني ببراءة:

. بتعيط يا عم جبر؟ حد يعيط إننا لقينا شادى؟ أنا أول ما تنبتهت وصحيت من الحالة التي كانت بيا بصيت حولي ومشتت شادى وتأكد ليا أنه غرق بالبحر أو أن الموج حدفه بعيد، أشكر الرب ويسوع علي هبته ليا أنه رجع ليا

حبيبي شادى وربنا مش عايز يحرمه مني زى ما حرمه من أبوه .. بعد هذا اندفعت في البكاء .

. متعيطيش ياست هانم إنشاء الله شوحي بيه بخير .. والله جلبني بيحول كده .

. حاضر يا عم جبر .. والله لما تتبهدت وافتكرت كل اللي عملته ليا أنا وشادى وإحنا بالعوامه قلت أنت نعم الأب حتي أن بعض الأبهات مش بيعملوا اللي أنت عملته .. الرب ح يكافئك علي طيبة أخلاقك وتعبك معانا، بس أنا بأفكر إزاي شادى نجي من الغرق؟ هوه أنت ساعدته؟

. أبدأ يا ست هانم ربنا كان معاه، تعرفي أنا فكرت إزاي شادى نجي من الغرق ووصلت لحجيجه أعتد أنها صحيحة، بتجول الحجيجه دية أن الانفجار لما عمل موجه كبيرة جنب العوامه جام الضغط طير العوامه في السما، فيه حاجات وجعت بالميه وفيه حاجات وجعت علي الشط، من ضمن اللي وجع علي الشط ابنك شادى اللي كان ماسك في مرتبه جطن لأن شفت حته من جميصه ويزازته متعلجين فوج شجرة، يعني كده بالعجل والمفهومية طار معاها في الهوا ووجعت المرتبة علي أفرع الشجرة الرحيمة اللي عملت له سوسته لكن بعد كده المرتبة وجعت علي الأرض ولحجها شادى من فوج الشجرة وفضل يمشي بهداية ربنا ولجى جطيع المعيز والغزال وربنا كلفهم أنهم يحافظوا عليه ويوكلوه، ربنا رحمته وسعت كل شيء ومن غير مساعدة حد من البني الأدميين ، ربنا حماه ورجع لكي تاني يا ست هانم .

## نعم من الله

لم أحصل علي قسط من النوم في تلك الليلة؛ كنت أستمع لحديث الأم لابنها ومداعتها له، أيضاً كنت أسمع ضحكات الطفل التي تدفع بالإحسان للبهجة والسعادة، كانت الأم تحتضن الصغير الذي شعر بالمتعة والحماية وهو بجوار أمه يشرب اللبن الذي أرسله الله له، أثناء الليل كنت أفكر في كيفية توفير ملابس للميدة وطفلها، فلا يعقل أن تظل هكذا شبه عارية سواء لشعورها بالخلج أو لحمايتها من لسعات البعوض ليلاً وهجمات الذباب نهاراً وأيضاً هذا الطفل الذي حافظ الله علي سلامته وهو في حماية الماعز والغزال، كنت أدعو الله بأن أوفق في العثور علي حل لتلك المشكلة بداخل تلك الصحراء القاحلة فقد أنعم الله علينا بماء زلال سواء من أشجار "المانجروف" التي تنبت بجوار المياه المالحة لتحوله لماء عذب شربنا منه في بداية الهبوط علي شاطئ البحر الأحمر ثم وجهنا الله إلي جدول الماء الذي ينبت من بين الصخور.

هذا صباح يوم آخر في حياتنا علي شاطئ البحر الأحمر لكنه صباح مخالف عن الأيام السابقة؛ لقد شعرت بالانتعاش والمساعدة لجمع شمل الأم وابنها الرضيع بالإضافة إلي تماثل السيدة للشفاء من الوعكة الصحية التي ألمت بها؛ كنت أشعر دائماً بتأنيب الضمير نظراً لأنني كنت أشاهدها تعاني الألم وهي غير قادرة علي تناول الطعام أو الشرب بالإضافة إلي فقدان ابنها لقد كان وضعاً شاذاً ولم يكن لها يد به وأنا لم أتسبب في هذا، فقد فرض علينا فرضاً وقهراً من ظروف المعارك التي كنا نبحر أثناء اندلاعها بين مصر وإسرائيل.

الحمد لله .. لقد عبرنا تلك المحنة بعد أن قضينا بعض الأيام الصعبة .. سمعت تغريد الحياة ببيكاء الطفل فتنبهت الأم وقامت تلبي ما طلبه منها بهذا البكاء، صمنت بعدها لفترة وتأكد لي أنه بخير، من خارج الخيمة أقيت بتحية الصباح فردت عليّ بمثلها، شعرت أن نشوى السعادة تغلف تحيتها الرقيقة أخبرتها بأنني سوف أتجه لشاطئ البحر كي أبحث عن بعض الأسماك التي من الممكن أن تكون قد علفت بالشبكة فطلبت مني إحضار بعض الماء العذب كي تقوم علي نظافة طفلها، أسرعت لتنفيذ المهمة وتوجهت لنبع المياه وأثناء الطريق شاهدت قطع الماعز والغزلان قادمة في اتجاهنا، سمعت بعض المأمة وأيضاً أصوات بعض الغزال، تجاهلت سكان المنطقة من الحيوانات واستكملت سيرى حتي النبع، هناك شربت وتوضأت وقمت بقضاء الصلاة التي فات موعدها، ملأت العبوتين من أنصاف الكرة وشرعت عانداً لموقع الخيمة مجرد أن اقتربت من المنطقة المفتوحة التي بها الخيمة حتي شاهدت قطعان الماعز والغزلان بجوارها ما بين نائم وواقف فأسرعت الخفي للمكان فشاهدت شادي يلهو مع بعض الماعز الصغيرة؛ شاهدت السيدة تجلس وتراقب لهو الصغار والمعاداة هو حالها، تركت لها عبوات الماء الممتلئة وأسرعت مغادراً المكان كي أعطيها بعض الوقت لما تريد القيام به.

وصلت للشاطئ وأثناء سيرى شاهدت بعض طيور النورس تتعارك علي شيء بينهم، دفعتني حب الفضول لمشاهدة ما يتقاتلون عليه وكلي اعتقاد بأنها سمكة كبيرة الحجم، حين اقتربت من المكان هربت الطيور تاركة الفريسة وحين شاهدت ما تتقاتل الطيور من أجله غمرتني الفرحة، لقد كانت الفريسة عبارة عن البرية الميرى الذي خشيت فقه لاحتمال أن يخضم من راتبي، أمسكت به ورغم أن بعض العطب أصابه من هقنقرات النورس إلا أنه أضاف إليّ

الكثير كقيمة اعتدت علي وضعه علي رأسي، نفضت ما به من رمال عالقة  
وضعته علي رأسي شعرت بعدها أنه يشابه تاج الملك لأى ملك عظيم.

مازلت أتفقد الشاطئ بعد أن غمرتني السعادة بالعثور علي تلك العهدة  
الأميرى، بعد مائة متر أو يزيد شاهدت كومة من البلاستيك دفعتها أمواج  
البحر فتأكد لي أنها من نفايات السفن كالعادة، كانت الكومة ظاهرة من الماء  
لكن شيئاً ما جعلها لا تتحرك ولا تترك المياه الضحلة، اقتربت منها وجذبتها  
للشاطئ، شعرت أنها ذات ثقل كبير فدفعتني حب الفضول لأن أقوم بفتحها  
فمن المحتمل أن أعثر بداخلها علي علبة صفيح أو أدوات طعام، قطعت  
الكيس البلاستيك المقوي الذى يحيط بها فعثرت بداخله علي بعض الأشياء  
غير المهمة ومن بين ما عثرت عليه صندوق خشبي بداخل تلك الكومة  
الصندوق يتراوح حجمه بين المتر طولاً ونصف المتر عرضاً وارتفاعه نصف  
متر.

تأكد لي أن المياه لم تصل للصندوق رغم أن ملمسه الخارجي رطب وهذا  
يدل علي وجوده بالمياه لفترة، حملت الصندوق متجها للخيمة وشعرت أثناء  
حملة أنه ثقيل الوزن، شاهدت القطيع مازال متواجداً، أشرت للسيدة بإمكانية  
الحصول علي بعض الحليب من إحدى الماعز فظهرت الابتسامة علي وجهها  
وأشارت إليّ بما يعني " وريني همتك " شمريت عن ساعدي وتوجهت لإحدى  
الأمهات ذات الضرع الممتلئ ورتبت علي ظهرها وعلي رأسها ثم أكملت  
اللمس علي رقبتها حتى وصلت لضرعها فظلت مستكينّة ولم تتفر مني  
أحضرت نصف الكرة البلاستيك وقمت بحلب العزّة مثلما كنت أحلب بعض  
الماعز بقريتنا حين يمتلئ ضرعها، لقد تعدت الكمية نصف عبوة الكره

المتبقي والتي تسمح بوجود مياه أو سوائل بداخلها وهذا يتعدي نصف لتر من اللبن الشهي، ناولته للسيدة التي شربت منه وظهرت السعادة علي وجهها واستكملت تناول اللبن وأنا أراقبها دون النظر إليها مباشرة فقد كنت أتمتم بالدعاء والشكر لله علي نعمته أن من الله عليها بالشفاء والعافية، هاهي تجلس وتتناول اللبن بمفردها، بعد أن انتهت من الشراب تقي البعض منه فناولته لي كي أشرب فشكرتها وطلبت منها أن تستكمل شربها فهذا طعامها حتي يتمكن شادي من الرضاعة، شكرتي قائلة إنها حصلت علي كمية كبيرة والماز من حولنا ويمكنك القيام بالتجربة مرة أخرى، كان الجوع قد ضرب بمعنتي ولهذا أنهيت علي اللبن المتبقي، حمدت الله أن وفر لنا هذا الطعام الشهي.

تساءلت السيدة عما يحتويه هذا الصندوق فأخبرتها بأنني لأن لا أعلم ما به وسوف أقوم علي فتحه، كان الصندوق مغلقاً بعناية أي الغطاء تحيط به المسامير فأصبح قطعة واحدة مع باقي جسم الصندوق، أحضرت السكين الكبير وبإحدى الأحجار حاولت العبث بالغطاء محاولاً عدم تكسيره وتدميره لاحتمال الاحتياج إليه في المستقبل، فتحت الصندوق وأنا أسمى الله ، كان الصندوق يحتوي علي عبات من الملابس، هذا رجالي وذاك للأطفال وذاك للنساء وتبين لي أنه عبارة عن طرد سقط من إحدى المراكب المصرية القادمة من اليمن؛ قرأت اسم أحد رجال الجيش عليه ورثته العسكرية والعنوان.

نظرت إلي السيدة وهي تردد بصوت عال فرح : " معقول .. ده معقول .. الرب يكسينا من بعد عرى ويشبعنا من بعد جوع .. إن الرب معنا دائماً وبركات يسوع .. الله محبة " .. أخرجنا الملابس بالكامل .. كانت كمياتها كبيرة ومن أنواع فاخرة ويغلب عليها ملابس المنزل، تفحصتها السيدة

وعثرت علي ما يناسبها حجماً وذكواً ثم ظلت تبحث وتبحث حتي عثرت علي ملابس للطفل لكن تبين لها أنها أكبر منه حجماً ولهذا قالت إنها سوف تقيده بدلا من حالة العرى التي يعيش عليها منذ خمسة أيام، تساعلت:

- وأنت يا عم جبر .. ما تختار اللي يناسبك .. شكرتها وتخيرت بعض الملابس الداخلية الرجالي، أشرت إليها بترك باقي الملابس فلا نعلم ما يخبئه القدر، لم تهتم بكلامي، طلبت مني السكين فأعطيها إياه وشاهدتها تقطع بعض الملابس بأحجام شبه متساوية وطولية، ظلت صامتا والضيق يلزمني بعد أن انتهت قالت الآن أعددت تلك القطع لاستخدامها كمناشف وجه للتجفيف .. وتلك القطع كاقولة لشادي حين تبتل ملابسه، شعرت أن الأمومة تحركها فلم يتبادر لذهنى مثل هذا ورغم هذا ظل جزء من الملابس بالصندوق دخلت السيدة لداخل الخيمة البدائية، طلبت مني رعاية شادي كي تتمكن من ارتداء ملابس تسترها منذ ما يقارب الشهر.

بعد مضي بعض الوقت خرجت السيدة وقد أنعم الله عليها بالستر وشعرت أنها تكاد تبكي وهي تردد:

. ياه .. السترة حلوة .. لو كل ست وبنيت بتعري جسمها علي البحر جريت إلي أنا وقعت فيه عمر ما واحده ح تعري سننيمتر من جسمها، الرب يحمينا شعرت أنها تؤدي الصلاة بتحريك يدها علي صدرها ورأسها.

بعد وصولنا لتلك المرحلة بشفاء السيدة وعودة الابن الرضيع والعتور علي ملابس تحمي وتستر الإنسان ومرابطة قطيع الأنعام من حولنا والتي تقدم

لنا السلوى واللبن وتسعد الطفل باللهو واللعب وجدت عليّ لزاماً أن أتجول أكثر فقد أعثر علي بعض ما يكفيننا كي نحيا ونعيش إلي أن يرسل الله إلينا بمن يعمل علي إنقاذنا، سرت علي الشاطئ عدة مئات من الأمتار ولكني لم أشاهد شيئاً، أثناء عودتي شاهدت شيئاً أسمر اللون خلف هضبة اعتليت قممتها دون أن أدري، لقد شاهدت شيئاً من الماضي، كانت العوامة التي أطاح بها الانفجار ومن شدة الانفجار دفع بتلك القطعة من الحديد ذات الوزن الثقيل لمسافة أبعد من الشاطئ بما يقارب مائتي متر.

أسرعت إليها لفحصها وتبين لي أن بعض اللحام قد تفكك وأصبحت قطعاً متماسكة بقليل من اللحام المتبقي الذي لا يعتمد عليه، حملت برميلا منه حتي الخيمة وأسعد هذا السيدة حينما أخبرتها فحضرت معي لتقديم يد المساعدة هناك حمل كل منا برميلا وعدنا بهما يتبعنا شادي ثم رجعنا وحملتُ ملة السرير الحديدي وعدت بها، قبيل الظهيرة كنا قد نقلنا أجزاء العوامة بعد تفككها ووضعت البراميل بجوار بعضها البعض ثم أحضرت عود جريد مرتفعاً وزرعته بالمنتصف ونقلت غطاء المظلة التي كنت أستخذه كخيمة ووضعت فوق هذا الإنشاء فأصبحت هناك خيمة محددة ويرتفع سقفها عن الأرض بأكثر من متر بالأجناب ومترين بالمنتصف وهذا يساعد السيدة علي السير مرفوعة القامة دون التحرك زحفاً مثلما كانت تفعل قبل هذا بالإضافة إلي أن بُعد المسافة بين سطح الخيمة ومن يقيم بالداخل سواء في حالة امتراء أو الجلوس لا يتعرض لدرجة الحرارة المرتفعة لأن المسافة المتسعة تسمح بتحريك تيار هواء والذي يطفئ من درجة الحرارة فتصبح الإقامة بالخيمة مريحة.

تبقى ثمانية براميل لأن خيمة السيدة وطفلها استهلكت اثني عشر

برميلا من جملة براميل العوامة العشرين، بالبراميل الثمانية المتبقية أقمت حجرة صغيرة لي وتبقي برميلان، قمت بتغطية حجرتي بسعف النخيل المتواجد بكثرة بالمنطقة وبعض نفايات المراكب من أخشاب وقطع بلاستيك، اليوم التالي رغبت باستكمال التجول؛ فقد تبين لي أن التجول يؤتي بفوائد جمة لمن يعيش ويحيا مثل حالنا الذي نحن عليه، لاحظت صباح اليوم التالي تحسن حالة السيدة والطفل وقد ارتدى كل منهما ملابس وبدت الصحة تعود للوجوه سواء من شرب لبن الماعز أو من تناول الأسماك.

أثناء تجوالي شاهدت بعض زغب أبيض يتطاير أمامي قادماً من اتجاه الشمال، أمسكت بأحدها فتبين لي أنها قطعة من قطن رقيق ويفعل الهواء استطاع تحريكها بتلك السرعة، أسرعت في الاتجاه القادم منها هذا الزغب وفوجئت بوجود المراتب القطنية الاثنتين قريباً من بعضها وأن بعض طيور النورس قامت بتمزيق إحدى المراتب وبالتالي حمل الهواء بعض قطع منها بعيداً، شعرت بسعادة غواناً أتفحص المراتب فلم يصيبها تلف كبير مثل ما حدث للمرتبة الأولى التي كانت قريبة من شجرة المانجروف واعتقدت أنها كانت الحامية والواقية للطفل شادي من إصابة مباشرة، لقد جفت المراتب من أثر الندى الذي تساقط بالصباح نظراً لارتفاع درجة الحرارة وبالتالي ولم يصب العطب إلا مرتبة واحدة، ومن الصدف الطيبة أني عثرت أيضاً أسفل المراتب علي الأغشية من مفارش السرير فلم تسقط بالبحر، كل هذا جعلني أرفع يدي لله عز وجل شكراً علي نعمته أنه لم ينمنا وتلك علامة من علامات الخير بأن الله معنا في تلك المحنة وهذه الشدة

عدت حاملاً معي المراتب والأغشية مما دفع بالسيدة للتصفيق

والتهليل والقفز لأعلي كأنما وصل أثاث عرسها من أفخم محلات الأثاث  
بدمياط كما يقال في تلك المناسبات، قدمت لي يد المساعدة وساعدتني بإنزال  
المراتب والأغطية وتقمصت دور السيدة التي تؤثث منزلها، كنت أشعر  
بالسعادة الطاغية وهي تقوم بفرد المرتبة ثم تضع الملاءة عليها، كانت تتنظر  
لكل هذا بسعادة ولا تصدق، بين ليلة وضحاها تبدل الحال من حال إني حال  
كما يقول المثل العامي، قمت بفرد المرتبة الثانية بداخل العشة التي أقيم بها  
ووضعت عليها ملاءة لكن تلك المرتبة كانت مفروشة أرضاً؛ لأن باقي الأسرة  
كانت محطمة من اصطدامها بالأرض ولم تعد صالحة للاستخدام.

بعد أن شعرنا بأننا نحيا حياة طيبة مقارنة بالحياة قبل أن يجتمع شمل ثلاثتنا  
جلسنا نحن الثلاثة معاً، شادى بحجر أمه وأنا مواجه لهما، تحدثت السيدة  
مادلين وكأنها تضع ميثاقاً للتعامل بيننا حيث قالت:

. عم جبر . من اليوم أنت بمثابة والدي وشادى هو حفيدك وسوف أناديك منذ  
اليوم بلقب بابا وأنت تتادبني مادلين .. مش عايزه تقولي سيادتك وحضرتك  
عشان من الأول كده نكون حطينا النقط فوق الحروف

. حاضر يا مادلين، صفتت مهلة وظهرت ابتسامة عريضة علي وجهها بعد  
هذا بدأنا نرتب من أحوالنا بما يخص الطعام والشرب، كان واضحاً اعتمادنا  
علي دلعام البحر بنسبة كبيرة إلا من بعض ألبان قطيع الماعز وتلاها الغزلان  
كن هذا دفعنا لأن نبحث في مخلفات البحر عما يفيدنا، كان البحر بالنسبة  
إلينا كنزاً كبيراً؛ فقد عثرنا علي بعض الأواني التي تفيد بديلا عن الحلل  
والبعض من بقايا عبوات بلاستيك بديلا عن الأطباق والأكواب، بدأت أقوم

علي تصنيع بعض الأدوات مثل المعالق والشوك من بقايا البلاستيك الملقاة كما عثرت علي بعض عبوات دهان وبويات فارغة فقامت علي نظافتها حتي أصبحت ملائمة كي نخزن بها المياه العذبة، بعد مضي أسبوعين علي جمع شمل الأسرة أصبح لدينا منزل جميل مكون من حجرتين يفصل بينهما عدة أمتار كما استطعت إعداد مرحاض ببقايا قطع البلاستيك ووضعت الباب الذي تسبب في إنقاذ مادلين كأنه باب المرحاض مما أسعدنا جدا؛ فقد أصبح لها خصوصية لإستخدام هذا المرحاض لقضاء الحاجة والحصول علي حمام ينعشها ويمنع عنها الضيق والوخم.

كما عثرت علي عبوة بلاستيك بها بعض السولار كانت طافية وأحضرتها لمادلين وحينما علمت السبب أسعدنا هذا واستطاعت التخلص من بقايا الشحم وحصلت علي حمام أصبحت بعده رائعة الجمال وعاد إليها بهاؤها الذي شاهدته عليها أول مرة حين قدومها بصحبة زوجها المهندس شوقي، كانت مادلين تشعر بأنها تتميز بجمال وفتنة من نوع خاص ودفع هذا للشعور بالثقة وعزة النفس رغم ما نمر به من صعاب، تم الاتفاق بيننا بأن أحصل علي فترات نومي خلال النهار علي أن أظل يقطاً طوال الليل كي أقوم علي حمايتها وحماية ابنها رغم أن قطعان الماعز والغزال مازالت تعسكر بالمنطقة وهذا يعطي أماناً بعدم وجود حيوانات مفترسة أو زواحف كالشعابين.

سارت بنا الأمور سيراً طيباً ولم نعد نفكر في الأهل أو الأحباب فحياتنا أصبحت بدائية بالإضافة إلي راحة البال وهدوء الأعصاب والطعام الشهي المعتمد بنسبة كبيرة علي ما يقدمه البحر لنا والجزء المتبقي من جيران المنطقة من قطعان الماعز الجبلي والبان الغزال الشهي ورغم توافر الماعز

والغزلان من حولنا إلا أننا لم نفكر في نبيح أحد تلك الحيوانات وتناول طعامها رغم أن طعامها حلال حيث كان يرووننا شعور بأنهم من أقربائنا وأنهم أناس مثلنا فقد اعتدنا الحياة معهم.

نضج محصول البلح على أشجار النخيل وبالتالي أصبحت هناك فاكهة مستطيع تناولها نظراً لأن أنواع النخيل بتلك المنطقة من أرقى الأنواع نظراً لتمييز بلح نخيل المنطقة بالحجم الصغير وزيادة تركيز السكر وعدم وجود نواة بداخل البلح كما أن أشجار النخيل ليست من النوع المرتفع وكنت أستخدم جريدة من سعف النخيل الجافة في إسقاط البلح منها وينضج محصول البلح تبين لي أننا منتصف شهر سبتمبر أو بداية شهر أكتوبر لأن هذا هو موعد بتاير هذا النوع من الفاكهة، كما انتشرت الطيور من أنواع مختلفة والتي تتغذى على بلح الأشجار، كما هبط أيضاً بالمنطقة الكثير من أفراخ السمان وبالتالي استطعنا صيد بعضها ووضعها بداخل البرميل الفارغ بعد أن وضعت الشبكة فوقه حتى لا تهرب وكنا نقدم إليها الغذاء من البلح والماء أيضاً، كنا نشعر بسعادة ممن يعيش معنا ومن حولنا لأن المنطقة كانت تزاد ثراء بالمخلوقات بعد أن كانت تقتصر للحياة رغم توفر عنصر الماء المهم.

## من هؤلاء؟

أحد الأيام وأنا أخلد في نومي النهاري حسب الخطة الموضوعة بيننا بأن أقوم بالعمل ليلاً وأحصل علي راحتي أثناء النهار سمعت صوت مادلين ينادي علي بصوت خفيض وشبه هامس، اعتقدت أنني أشاهد رؤيا وأن مادلين مازالت تبحث عن وليدها شادي، ظللت مستغرقاً في نومي وشعرت أنها دخلت حجرتي المتواضعة وقامت بهز جسدي حتي تنبعت فقامت من نومي شبه مذعور أردد " فيه آيه يا مادلين؟" بصوت خفيض قالت ما لم أكن أتوقعه:

. بابا .. فيه ناس شفتهم ماشين بره بس هما بعيد ولما شافوني جريوا!!

. أنتي متأكدة؟

. آيوه ، حتي أن مظهرهم غريب ، وزى ما يكونوا كده شبه الإنسان الأول

. مين الإنسان الأول ده؟

- مش مهم .. المهم دلوقتي تقوم معايا .. أسرعت بارتداء حذائي وخرجت خلفها أردد:

. ناس موجودة في الحنة دية؟ مش معقول .. بقالنا هنا خمس شهور بالتقريب ومافيش صريخ ابن يومين علي رأي المثل، وقفت خارج حجرتي أتجول ببصري لعلني أشاهد أحدا دون جدوى، نظرت إليها فشهدت الحيرة والخوف بنظراتها فأردت أن أعطيها شعوراً بالأمان والسكينة فأخرجت المسدس الميرى

من غلافه البلاستيكي وجذبت الأجزاء مما دفع البسمة علي وجهها الأبيض الناصع وهزت كلتا يديها للأمام بقوة كأنها تشجعني، سرت أتقعد المكان ثم أعدت الكرة ولغفت بعكس المنطقة التي أخبرتني أنها شاهدت من خلالها بشر رقدت علي وجهي بعض الوقت وظللت هكذا لمدة تقارب نصف الساعة لاحظت ظهور اثنين من البشر شبه عراة يخرجان من بين ثنايا الصخور ويرحفان أرضاً يراقبان المنطقة التي كنت بها، صرخت بهما أن يقفا ولكنهما أسرعاً بالفرار فأطلقت عليهما رصاصاً بالهواء للتخويف فسقطا أرضاً، توترت وخشيت أن تكون قد لحقت بهما إصابة رغم أنني لم أكن أصوب نحوهما أسرعرت بالاقتراب منهما بخطوات ثابتة هادئة دون اندفاع خشية أن يكون هناك آخرون يهاجمونني.

وصلت إليهما وشاهدني الإثنان وهما يرقدان أرضاً وشعرت أنهما في حالة سيئة سواء من الملابس التي تشبه ملابس إنسان ما قبل التاريخ والذي كان بعض أبنائي يقصون علينا أخبارهم من كتب التاريخ التي يدرسونها بالمدرسة لباسهم عبارة عن قطعة من قماش لفت حول الوسط ودخلت بين الفخذين لتخفي عورة الرجل، لهم لحي طويلة مع طول شعر الرأس والأظافر والقذارة المتناهية واضحة عليهما بالإضافة إلي الوجوه الشاحبة ونحافة الأجساد انحنيت علي الأول ورفعته فشاهدته يرفع يديه لأعلي مردداً عبارات غير مفهومة، أخرجت "الكلابش" القيد الحديدي ووضعت بيده ثم نهض الثاني ووضعت الكلابش بيده وسرت خلفهما ودفعتهما حتي وصلنا لموقع الحجرة التي أقيم بها.

تحدثت مع الرجلين ولكني لم أظفر علي أي إجابة ورغم هذا

سمعت كلمة العسس صادرة من أحدهما وهي تعني باللغة العربية العسكري أي أنهما يعلمان أنني عسكري من ملابسي وسلاحي بيدي، ظللت أتحدث معهما ولا أسمع سوى كلمات غير مفهومة، بدخل تلك الأحاديث كلمات عربية مثل حمد لله، الله أكبر، محمد، مصر، أي أنهما يفهمان في القرآن ويعلمان أنهما من مصر، طلبت منهما الكتابة علي الرمل فكتبا كلمات غير مفهومة أسرعت مادلين لقراءتها وحين شاهدتها هتفت بأنها اللغة الهيروغرافية أو لغة "الرتن" كنت في حيرة من أمري فهما يعلمان بعض عبارات دينية عن المسلمين وأيضا كلمات فرعونية كما قالت مادلين، من هما إذاً؟

لم أصل إلي إجابة محددة بينما كنت ألاحظ مادلين تضع أمامهما الشراب والطعام من بلح النخيل والذي تبين لي أنهما يتناولانه بشهية، ظل الحال علي هذا الوضع ووصلنا إلي المساء وكنت أخشي أن أطلق سراحهما وأن يعودا بعصابتها ويهاجماني أنا ومادلين والطفل، لم يحاول الرجلان المقاومة أو الهرب وأعتقد أن أعمارهما لم تبلغ الأربعين من العمر لكن سوء حالتها الصحية ومظهرهما العام جعلني أعتقد بأنهما قد تجاوزا الستين بعدة أعوام.

ظللت طوال الليل أراقب هذين الشخصين وتبين لي بحسي الأمني أنه لا خطر منهما فهما مسالمان لدرجة كبيرة ولا يحاولان الهرب حين أغادر المكان بعيداً كي أعطي لهم الفرصة لهذا العمل، كنت في حيرة من أمرهما خاصة أنني لم أفهم أي كلمة تحدثا بها، أشرق ضياء الصباح وعقدت العزم علي إطلاق سراحهما، أثناء حديثي مع مادلين شاهدنا من عن بعد ظلالاً مقبلة نحونا، لم أستطع تحديد هوية القادمين إلا بعد الاقتراب منا، كان القادم إلينا مجموعة من البشر، حدث اضطراب بيننا وتحدثت مادلين بأننا وقعنا في

مأزق لأن القادمين أقبلوا للبحث عن هذين الرجلين.

اقترحت عليّ مادلين أن أطلق سراحهما ولكني رفضت حتي يصبح هذان الرجلان رهائن بيدي كي أمنع القادمين من أى تصرف ضار ضدنا، أثناء ذلك كان شادى يلهو مع الماعز والغزلان، لقد أصبحت المنطقة تملؤها الحركة والحياة بعد أن كانت صامتة صمت القبور في أول يوم خرجت فيه من المياه كنت أردد: سبحان الله؛ مازال البشر قادمين في اتجاهنا وتبين لي أنهم من نفس فصيل الرجلين من الهيئة والعري باستثناء منطقة العورة التي سترت بقطعة من القماش المبروم.

ظللت رابط الجأش حتي اقترب القوم منا وشاهدوا المسدس بيدي وسمعت أحدهم يردد، عسس، بندجه، عسس بندجه، توقف الجميع وتحرك في اتجاهي أحدهم ويدي لي أنه الزعيم؛ حيث يستر نفعه بملابس كاملة مشابهة للعناية التي يرتديها الرجال بدول الخليج، كان باديا عليه صغر السن وحالته الصحية أفضل من كثير ممن حوله، أهم ما لفت نظري أنهم يضعون قطعاً صغيرة من العصي الطويلة مغروسة بشعر رأس كل رجل وكان هذا حال الأسيرين ولا يتعدى طول أى عصي منها عن خمسة سنتيمتر، لكن هذا الزعيم وضع العديد من العصي يتعدى عددها العشرة أو يزيد وهي عصي مثقوقة شقاً طويلاً وتوضع بالشعر مثل البنسه التي تضعها النساء بشعورهن لتثبيته.

أصبح الرجل أمامي وسمعته يردد عبارة: السلام عليكم .. كانت التحية مباغثة لي لأكثر من سبب، أولاً: أن تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها تحية الإسلام منذ ما يزيد عن الخمسة أشهر منذ نشوب الحرب بين مصر

وإسرائيل والسبب الثاني للتعجب أن أحد الرجال يتحدث اللغة العربية، وسوف يساعدنا هذا علي التفاهم مع هؤلاء، أجبته علي تحيته بمثلها فظهرت الابتسامة علي وجهه ومن أجل هذا وضعت المسدس جانبا فلا يجب علي أن أوجه نحوه المسدس وهو يلقي علي تحية الإسلام وأثناء هذا كان باقي المحتشدين يقفون خلفه بقراءة خمسين مترا بينما الرجلين الأسيرين بدت عليهما المساعدة والتقاؤل.

أقبل الرجل مصافحاً يردد: اسمي عرفان، شيخ القبيلة وهؤلاء القوم يتبعونني وحين اخفني اثنان من رجالي واللذان أقبلوا لهذا المكان لمتابعة قطع الماعز والغزلان شعرت بأن شيئاً غير عادي حدث لهما، ومن أجل هذا أقبلت مع جميع أفراد القبيلة رجالا ونساءً للبحث عنهم ولم يتخلف سوى العجائز والأطفال، أخبرته باسمي؛ تساعل لماذا العسس أقبلوا لهذا المكان؟ هل بسبب الحرب؟ استفسرت منه هل علمتم بالحرب، أشار برأسه بما يدل علي معرفتهم بهذا الأمر.

أشرت إليه بالجلوس فجلس واستأذن بأن يقبل باقي أفراد القبيلة للترحيب بي وبزوجتي وابني فأوضحت له بأن تلك السيدة ابنتي وهذا الطفل حفيدي فتהלل وجهه ثم أشار للخلف فحضر الجميع بهدوء مثلما رأيتهم قادمين في أول الأمر دون زحام أو عراق، قمت بفك قيود الرجلين مستخدماً المفتاح الخاص بذلك وأشرت لهما بالنهوض والانضمام لأفراد القبيلة، نهض الرجلان يرددان: الحمد لله، بركة من الله، أشار الشيخ عرفان بأن نبتعد مسافة مائة متر عن مكان خيمة السيدة "يقصد ابنتي" ولنترك للنساء الفسحة للحديث واللهم معاً

بالفعل تحركنا جميعاً وابتعدنا مسافة تسمح للنساء بالتحدث دون تطفل أحد من الرجال فيعلم حديثهن.

لاحظت أن عدد النساء المتواجدات كبيراً للغاية كما أنهن يرتدين الملابس الكاملة التي تشابه ملابس نساء الريف بقري مصر مع اختلاف الألوان كما تبين لي أنهن يتمتعن بجمال ملفت للنظر وخفة دم عالية وإتسامة مشرقة توجهت النساء لمادلين لمصافحتها والبعض أقبلن يتفحصها كأنها قادمة من كوكب آخر نظراً لشدة بياض بشرتها وعيونها الخضراء وهذا مخالف لنساء تلك القبيلة؛ لأن اللون الخمرى هو الغالب عليهن كما يتميزن بالشعر الطويل، كان هذا بادياً من أسفل الطرحة غير المحكمة الرباط حول الرأس.

#### مادلين:

كنت أستمع لما قاله الشيخ عرفان إلي بابا جبر والذي يتحدث العربية الفصحى مثل مدرسي اللغة العربية بالمدرسة وأنا في حالة من الدهشة والذهول والذي أكمل حديثه قائلاً:

يعود أصل تواجد قبيلتنا للعصر الفرعوني، البعض يقول منذ الملكة حتشبسوت حينما قررت القيام برحلة إلي بلاد بونت "الصومال" والبعض يقول منذ أيام رمسيس الثاني وفتوحاته ومعاركه الشهيرة، لكن الأصل والحضارة واللغة هي الفرعونية، وحينما نقومون بزيارتنا سوف تشاهدون الكهوف التي نعيش بها وقد نقشت عليها رسومات وعلامات اللغة المصرية القديمة.

أقبلت بعض نساء القبيلة للترحيب بي، كانت سعادتي لا توصف لأنني

عثرت علي بنات من جنسي بتلك البقعة المنعزلة عن العالم، كانت تحيتهم رقيقة ومخالفة عن التحية المتبادلة بين النساء بمدن مصر، هنا تتقابل المرأة مع الأخرى وجهاً لوجه والأنف بالأنف وكل واحدة تضع يدها اليميني علي الكتف اليسرى للصديقة أو القريبة، نتحدث بعض النساء بكلمات تنهيهها بكلمة الله وهي الكلمة الوحيدة التي استطعت أن أستوضحها من حديثهن، كانت النساء في غاية الجمال، كنت قد قرأت موسوعة العالم المصري الدكتور سليم حسن أول رئيس مصري لهيئة الآثار، كانت معلوماتي عن أجدادي الفراعنة غزيرة واستطعت التعرف علي حياتهم وأسلوب تعاملهم مع بعضهم البعض وبخاصة النساء، كنت أقوم بمقارنة ما أشاهده أمامي الآن وبين ما شاهدته بدار الآثار المصرية من تماثيل ورسومات خاصة بأجدادي الفراعنة، نفس ملابس النساء التي يغلب عليها اللون الفاتح والذي نطلق عليه سن القيل وتبين لي أنه عبارة عن قماش مصنوع من الكتان ومن نوع معين، كما أن الرجال يرتدون نفس الملابس التي كنت أشاهدها علي الجنود التابعين للقائد العسكري المصري أحسن قاهر الهكسوس.

تأكد لي أن نساء الفراعنة يتميزن بالجمال الفائق وتتاسق البنية الأقرب للنحافة والبعيدة عن السمنة ولون البشرة الخمرى، ما رأيته أكد لي ما سبق وأن قرأته للمؤلف الدكتور سليم حسن بأن هذا ناتج من نقاء الأصل؛ نظراً لأن هذا المكان لم يحدث به تزواج أو اختلاط بين الأجناس المختلفة التي أتت إلي مصر سواء للغزو أو للتجارة والهجرة، هذا المكان أقبلت به بعض العائلات بأمر من الملكة العظيمة حتشبسوت، ووزعت العديد من الأسر المصرية بطول ساحل البحر الأحمر بدءاً من منطقة السويس الحالية حتي بلاد الصومال مروراً بالسودان وأريتريا، وكونت تلك العائلات منظومة للعمل وحماية

طريق ذهاب وعودة الملكة من علي البر كما قامت أيضاً بتقديم الدعم الإداري من المياه وإعداد استراحة للملكة وحاشيتها؛ كانت الملكة تظل بكل مكان أربعة أيام ثم تغادره إلي البحر كي تستكمل الرحلة ثم تتوقف بمكان آخر وهكذا تلك المعلومات عادت لذاكرتي حينما علمت من حديث شيخها لبابا جبر بأن تلك القبيلة تتحدث وتكتب اللغة الهيروغلوفية أو ما يسمى " لغة الرطن " إذاً تلك القبيلة متأصلة منذ الفراعنة ولم تحدث علاقات نسب مع جنسيات أخرى هذا ما كنت أشاهده من فترة تلك النسوة المطابق للوصف الرائع للعالم الدكتور سليم حسن في موسوعته الكبيرة.

### حبر:

سألت الشيخ عرفان عن اسم تلك المنطقة فأسهب في الشرح والوصف في بداية الأمر لم أفهم أي شيء منه، بعدها طلبت منه توضيح ما قاله بروية وهدوء نظراً لغرابة المعلومات التي قالها حيث أفاد:

إننا فرع منفصل من قبيلة البشارية، المنطقة الصحراوية شرق النيل مساحتها كبيرة جدا وعدد سكانها قليل، بها قبيلتان أساميتان، البشارية والعبادة بين القبيلتين مشكلات وخصومة قديمة وحدثت منازعات بينهما ومن أجل هذا ظللنا بهذا المكان رغم سيطرة العبادة علي المنطقة من حولنا وهذا في نظير وجود بعض أبناء العبادة بالمنطقة التي تسيطر عليها قبيلتنا البشارية والتي تبعد عنا بقرابة ثلاثمائة وخمسين كيلو متر، سوف تلاحظ أن أبناء قبيلتي لا يتحدثون اللغة العربية وهذا ناتج من عدم احتكاكهم بعناصر تتحدث العربية سوي من بعض رجال قبيلتنا الذين يختارون أهدأ منا يرملون به للأزهر كي

يتعلم قواعد وأصول الدين بعدها يعود ليصبح هو رجل الدين والزعيم وهذا ما حدث معي، لذا لا تجدهم يعلمون شيئاً عن العربية سوى بالاستماع لتلاوة القرآن الكريم أثناء الصلاة.

المنطقة التي نحن بها الآن تسمى "مرسى حميرة" جنوبيها مباشرة "رأس صدرية" ثم "سلاطين" وقرية "أبو رماد وأخيراً منطقة حلايب على الحدود مع السودان التي تفجرت المشكلات بينها وبين مصر، لو تحركنا جهة الغرب مباشرة وعلى مسافة تسعين كيلومتر سوف نقابل أول منطقة سكنية وهي قرية "أبرق" أيضا فإن قبائل العبادة المنافسين لنا يتحدثون العربية وكما علمنا منهم أنهم من ضمن المسلمين الأوائل الذي رافقوا الصحابي الجليل "الزبير بن العوام" وظلوا بهذا المكان حتى الآن.

تلك المنطقة غنية جداً بالمعادن لكن الحكومة لا تهتم بنا ولا بالمكان بسبب البعد عن القاهرة وصعوبة المواصلات كما أنهم لا يقدمون لنا أى خدمات أو عون مثل التي كنت أشاهدها بالقاهرة، نحن شعب منسي لا تعليم ولا صحة ولا رعاية ولولا رحمة ربنا وكرمه بأن منحنا أشجار النخيل العظيمة وأيضاً أشجار الصمغ العربي وتقع على بعد عدة كيلومترات، إن شجر الصمغ كبير ويظل مساحة كبيرة على الأرض وارتفاعه يصل لأربعة أمتار، وهناك مراعي وعيون مياه عذبة تقوم عليها مراعي يعيش عليها الماعز الجبلي القوى كثير الإرتجاب والذي يحمل أوزاناً كبيرة بالإضافة إلى الغزال المصري الشهير المنقط وقوافل الجمال الكثيرة والمنتشرة جنوب بلدتنا "مرسى حميرة" .. كنت أستمع إليه في دهشة وقلت له:

. ياه .. كل ده موجود عندكم يا شيخ عرفان؟

- والله فيه خير كثير، يعني شلاتين المجهولة دية فيها سمك في مية البحر يوكل مصر ألف سنه لجدام لكن مين يسمال، سفن دول أجنبية تيجي تاخذ السمك بتاعنا وإحنا مزوجين في شوارع مصر والناس بتشتكي من الحاجه شوف الثروة الضخمة من الجمال، خير باعته رينا، قطعان الجمال بالآلاف بتزعي لوحدنا وترجع للقبيلة وهيا مثايله لحم وخلفه ولبن وصوف من غير ما تكلفنا حاجه، المنطقة من هنا لحد فرع النيل اللي بيشتغلوا فيه وبيعلموا السد الكبير اللي الزعيم جمال عبدالناصر جال عليه فيها جبال علبة وجبل الطويل دي جبال ضخمة جداً، تصور يا حاج جبر أن المنطقة بعد حلایب واللي تقع علي الحدود بها جبال ضخمة علي البحر الأحمر، يعني ما فيش ساحل ولا شاطئ زى عندنا هنا في "مرسى حميرة" بعد جبال عليه وطويله الطريق يوصل بنا إلي قريتين هما أندنان وقسطل واللي معناها الغبار المساطع ودول علي الشاطئ الشرقي للبحيرة اللي بدأت تتكون من السد العالي.

جلست صامتاً أستمع لتلك المعلومات الفياضة التي يعلمها يخبرني بها عرفان، كانت تلك المرة الأولى التي أعلم أن مصر بها تلك المنطقة وأن بها قبائل مازالت تتحدث اللغة الفرعونية وأن الدولة لا تعلم عنهم أي شيء ورجالها يكافحون ويتألمون وأيضاً أطفالها كما أن الله وهب نساءها نعمة الجمال الطبيعي الذي يدفعك لأن تشكر الله علي منحهم هذا الجمال الغاتن والذي يشبه الصور والتمائيل الموجودة بالمتحف المصري، وهذا الهدوء والسكينة والقرب من الله وعدم تلوثهم بأخلاق المدن فالكل هنا يحترم الآخر والشيخ عرفان هو

الرئيس والحاكم والقاضي والمأذون وله صفة اعتبارية وروحية.

سكت الشيخ ثم قال: يا شاويش جبر؛ نحن على حدود السودان وكما ذكرت بالقرب منا توجد منطقة جبل علبة وتشمل منطقة أبرق ومنطقة الدنيب وهي منطقة طبيعية، الحكومة بتفكر أن تجعلها محمية فقد حضر لهذا المكان وفد من المهندسين لهذا الغرض منذ عام ولو قدر لك يا شاويش جبر أن تزور منطقة جبل علبة سوف تشاهد مناظر طبيعية جميلة ونباتات نادرة وحيوانات برية بقطعان ضخمة "يشير جهة الماعز والغزلان" أكثر مما هو هنا بالإضافة إلي سلالة ممتازة من الجمال، كل هذا علمناه من الوفد الذي وصل إلينا العام الماضي وأخبرونا أنهم سوف يقيمون بها أنشطة سياحية يحضر إليها أجانب لزيارة المنطقة مثل الغردقة وسيحفرون عدداً من آبار المياه العذبة كي تقام زراعة عليها لأن الأرض هناك مستوية وصالحة لزراعة بعض المحاصيل.

أيضاً يوجد بالإضافة لوادي إيرق أودية العقرب والجاهلية وهي مساحات كبيرة شاسعة سوف تجذب أعداداً كبيرة لزراعتها وقد تعمر المنطقة وأعتقد أن تلك الحرب سوف تلغي أو تؤجل كل تلك المشاريع، كما تنتشر بتلك المنطقة النباتات الطبية، فمن نبات الحنظل شديد المرارة يستخرج مادة تسمى الجطران والتي تعالج بها الأوبئة التي قد تصيب الإنسان أو الحيوان أيضاً نبات بيض الجمل الذي يعالج الجروح والتسلخات ونبات ورد الجبل التي تعالج أوراقه الحمي بالإضافة إلي نبات الزعتر المنتشر وهو عبارة عن زهرة صفراء اللون لكنها تعالج المغص وأمراض المعدة وأيضاً البلح الناتج من هذا النخيل يعالج بعض الأمراض قلت له:

. كل هذا يا شيخ عرفان؟ فأجاب

نعم، بل يوجد العديد من الأماكن المهمة وهناك وادي أبي سعفة والذي  
يكثر به النخيل وبالتالي يستخرج منه السعف ولهذا أطلق علي الوادي هذا  
الاسم ومن جبل أبي سعفة الذي يقع أعلي الوادي ينبع منها عين مياه عذبة  
صافية تنتشر الخضرة بالمكان مثل عين الماء القريبة من هذا المكان فترعي  
قطعان الإبل والأغنام والماعز الجبلي والغزال المصري، كلها حيوانات تعطي  
الخير للناس اللذين يعيشون بهذا المكان ثم تمتد أشجار المانجروف من وادي  
الرحبة علي ساحل البحر الأحمر حتي تلك المنطقة وكما تشاهدها تنتشر  
الخضرة بالمكان كما أنها تنمو علي مياه البحر المالحة ، وتستخلص منه  
المياه العذبة أي أنها جهاز يقوم بتكرير ملوحة مياه البحر؛ صمت الشيخ  
عرفان قليلا ثم سألني:

- ما الذي أتى بكم إلي تلك المنطقة ومعك ابنتك وحفيدك والحرارة شديدة هنا  
والحياة صعبة؟ شرحت له الظروف التي تعرضنا لها فتأثر الرجل وقال إنه  
سوف يساعدنا علي الحياة بأن نعيش برفقتهم حتي تأتي الظروف المواتية  
والتي تكون عادة في شهر مارس أو إبريل حيث قوافل الجمال العابرة بسلام  
من السودان إلي مصر وحين وصولكم إلي جنوب مصر تصبح الرحلة سهلة  
لأن قوافل الجمال تعلم خبايا الطرق وتقاوم العصابات التي تهاجم تلك القوافل.

أما عن حياتي وكيفية تعلم اللغة العربية فسوف أقص عليك ما حدث لي:  
أرسلني أبي مع قافلة من الجمال إلي مصر، هناك ذهبت لأحد الرجال الذي  
يعرفهم أبي منذ أيام جدى حينما كان يعمل مع الجيش الإنجليزي خلال الحرب

مع السودان، قد تعهد بي الرجل وألحقني بالأزهر الشريف وظللت أدرس به اثني عشر عاماً تعلمت خلالها علي يد شيوخ أجلاء علوم الفقه والحديث وكتابة اللغة العربية الصحيحة والتحدث بها حين يتطلب الأمر وحين عدت قام أبناء القبيلة برفعي عليهم كي أصبح شيخاً بعد وفاة الشيخ يعقوب، هذا تقليد يتبعه الناس هنا، من يتعلم يصبح هو المييد عليهم ويتولي القيادة بل عليه أن يتزوج من أجمل فتاة من كل عائلة وبالتالي يصبح قريباً وصهراً لكل عائلات القبيلة وعدد تلك العائلات سبعة وعشرون وبالتالي يظل الشيخ يتزوج من كل عائلة، وهذا الزواج مرة واحدة بالسنة وحين يكتمل العدد أربع نساء يقوم بتطبيق الأقدم وهكذا ورغم أن عمري لم يصل إلي الخامسة والأربعين إلا أن لدى ثلاثة وعشرين ولداً وبناتاً كما أن جميع زوجاتي اللاتي ارتبطت بهن سواء مازلت علي عصمتي أو طلقن يقمن معي بالكهف الكبير وأيضاً العدد الكبير من أبنائي وبناتي كما يقوم أفراد القبيلة بتقديم الطعام والمشرب لنا وكل عائلة يجب أن ترسل بأحد أبنائها كي يقوم بخدمة أسرتي، كل هذا تقديراً لي وللعلم الذي حصلت عليه ومن أجل هذا لن نسمع من أحد من هؤلاء سواء من الرجال أو النساء كلمات أو جملاً واضحة ومفهومة رغم محاولاتني نشر لغتنا العربية بينهم ستلاحظ أيضاً أن النساء اللاتي قمن معي يحدثن ابنتك وهي تسمعهم ولا تفهم ما يريدونه منها.

عرض عليّ الشيخ عرفان أن أظل بضيافتهم وبرفقتي ابنتي وحفيدي ولكنني اعتذرت شاكراً كرمه، سكن وصمت قليلاً كأنه يفكر ثم قال: منذ الآن وحتى نعثر علي الطريق السليم لعودتك إلي محافظتك وبلدتك ستكون ضيفاً عزيزاً وتقوم القبيلة بتقديم الطعام والمشرب والخدمات اللازمة وسوف يظل قريباً منك ثلاثة رجال كي يقدموا الحماية وينفوا ما ترغبون به، صاح بعد هذا

وتحدث بكلمات غير مفهومة فشهدت ثلاثة رجال يقتربون منه وحدثهم ثم نهض وصاح في اتجاه الخيمة وبعد قليل بدأت النساء والفتيات يظهرن تباعاً برفقة مادلين وتبادلوا معها القبلات والتحية المشفوعة بالضحك والابتسام صافحني وأعاد كلماته القليلة: سيدي جبر منذ الآن وأنت ضيف عزيز علينا وبعد ساعة سوف يحضر الطعام والشراب؛ سار مودعاً ولقيف من رجاله يمسير خلفه ويتبعهم النساء، بدأت تتضاءل صورتهم أمام أعيننا لبعدهم عنا أو للخيار الناتج أثناء السير حتى تلاشي ظلمهم، خلال هذا كنت واقفاً وبقواي مادلين وابنها وتبادلنا الابتسام والسعادة .. صفقت مادلين مرعدة:

- كانت حماية الرب معنا، لقد أرسل إلينا بمن يونس وحدثنا ويؤمن خلوتنا ويساعدنا وقت العثرة ويطفىئ ألم أى جوع يقاجتنا أو ظمأً وعطش يهاجمنا الحمد لله، ظهرت الدموع من بين عينيها الخضراوين الجميلتين، قمت وواسيتها بأن ربت علي كتفها فالتصقت بي تجهش بالبكاء وتردد:

. كان مستحبي ليا ولإبني ولجوزي فين؟

لم تمض ساعتان إلا وشاهدنا ثلاث فتيات مقبلات ويرققتهن فتيان يحملون بعض الأشياء علي الأذرع، وصلوا إلينا وتحدثت الفتيات وكشفت الغطاء ثم تحدثن وغادرن المكان وسرن برفقة الفتيان وجلسن بعيداً مع الحرس حيث أحضروا لهم طعام الغذاء مثل حالنا، تقحصت مادلين الطعام ورددت: مش معقول، شوف يا بابا جبر، ريع معزة مشوي وبعض الأرز وأعتقد أنه معد علي هيئة الطهو العربي فايدت حديثها مؤيداً أن تلك الوجبة تسمى كبة بالدول

العربية حيث يطبخ الأرز ويوضع لحم الضأن بجواره بكميات.

لقد ضرب بنا الجوع والحاجة للطعام؛ لقد كانت المعدة مستعدة لهذا النوع من الطعام الذي غزت رائحته النفوس قبل أن تشاهده الأعين وقبل أن يتنوقه اللسان وقبل أن يدخل إلي الفم، سميت الله وأيضاً مادلين أدت صلواتها بطريقتها بتحريك يدها علي الصدر والرأس، بدأنا في تناول الطعام الذي هو نعمة من نعم الله علي عباده، تبقي جزء ليس باليسير ولكن مادلين قالت من المحتمل إن البعض منهم يحتاج هذا الطعام فيعودون به، بإشارة منها وصيحة للفتيات اللاتي أقبلن مسرعات تلبية لإشارة مادلين وحينما شاهدن الطعام المتبقي طلبن منها بإشارة بأن نحتفظ بهذا الطعام فلا يجب أن يعودوا بطعام معد للضيوف، تدخلت وأنقذت الموقف ونقلت باقي الطعام بالوعاء الصفيح الذي نستخدمه في كل أغراضنا، رحلت الفتيات وهن يقدمن البسمة الطيبة ولحق بهن الفتيان بينما تبقي الرجال الثلاثة للحراسة.

تبادلت مع مادلين النظرات حيث قالت لي إنها سوف تدخل خيمتها كي ترضع وليدها شادى ثم تحصل علي قسط من الراحة نظرا لما تكبدته من مجهود مع نساء القبيلة تحذراً ومحاولة فهم واستيعاب اللغة الغريبة علي آذاننا والانتفاعات التي حدثت نحوهم لما أبدين من محبة وتعاطف ورغبة بالصدقة والألفة؛ هكذا ظللت جالما خارج الخيمة بمفردي، شعرت بنسمات العاصري الرقيقة الرطبة فأدى هذا لشعورى بأنني مخدر وفي أشد الحاجة لطلب الراحة دخلت خيمتي المتواضعة ، وخلدت في نوم هادى هانى استيقظت منه بعد غياب شمس هذا اليوم السعيد.



## قتل وأسر ويغض وكراهية

شوقى:

هذا يوم لن أنساه، فبعد أن تأكدت أن زوجتي الجميلة والملاك الغالي شادى ابني أصبحا في أيد أمينة يتمتعان علي شاطئ الخليج في رعاية هذا الرجل الطيب عم جبر عدت إلي موقع عملي بجوار البريمة أشرف علي العاملين معي وعددهم أربعة عشر رجلا، أشرت للمهندس بطرس والفني أحمد عوف بأن يقوما بتثبيت احد دعائم البريمة كي لا تتحرك وتسقط أرضاً وتحدث دويا وقد يصاب البعض من العاملين المنتشرين بجوار البريمة علي الأجهزة المختلفة.

بدأ العد التنازلي وبدا الرجلان تنفيذ ما أمرت به وخلال هذا التفت لأحد الرجال أسفل جهاز الحركة "الونش" الذي يقوم علي تحريك البريمة لكني سمعت أصواتاً عالية وغباراً وضوضاء وغمر المكان الهرجلة وصوت الانفجارات وصياح العمال، حين أفقت من تلك الغيبوبة المؤقتة شاهدت المهندس بطرس وجواره الفني أحمد عوف يرقدان أرضاً والدماء تتدفق منهما وقد اختلطت أجسادهما ودمائهما معاً حيث التصقا خوفاً قبل سقوطهما أرضاً وقد أصبحا جثة هامدة.

شاهدت أمامي عربات مدرعة إسرائيلية بها جنود يشهرون السلاح بوجوهنا ويأمروننا بالانبطاح أرضاً نون حركة وإلا سوف نلقي مصير الرجلين وهم يشيرون إليهما، بعد قليل جاء أحدهم وأمرنا بالوقوف ووضعت الأغلال بأيدينا

باستثناء اثنين من العمال وأصدروا إليهما الأوامر بعمل حفرة كي تدفن بها الجثتان، ظللنا وقوفا والحرارة أنهكت أجسادنا وخيم الحزن الشامل علينا جميعا ونحن نشاهد جثمان الزميلين الحبيبين علي الأرض، مضت ساعة زمن انتهى بعدها العاملان من إعداد الحفرة فأمرهما القائد العسكري بإلقاء جثث الرجلين قائلاً: ألقيا بالكليين بالحفرة وهو "يشير إليهما" نفذ الرجلان الأمر وكان الإرهاق باديا عليهما من المجهود الذي بذل للحفر تحت أشعة الشمس المباشرة والعطش الذي لازم الجميع، طلب القائد الإسرائيلي منهما الوقوف بجوار الجثتين وحينما وقفا أطلق عليهما النيران فسقطا بجوار الزميلين وبهذا أصبح هناك أربعة من رجالي قتلي.

بعد قليل أحضروا باقي موظفي الإدارة ووقفوا صفا بجوارنا مقيدى الأغلال ثم طلبوا من بعضهم أن يهيلوا الرمال علي الرجال الأربعة الذين لاقوا حتفهم علي أيدي جنوده القتلة، نفذ الرجال الأمر، بعد هذا أمرونا بالتحرك نحو أحد اللواري ووأمرونا بالصعود أعلاه، نفذ الجميع الأمر ونحن نسير دون وعي وعلما الآن نهايتنا المفجعة، وقفنا جميعاً بداخل صندوق اللورى والشمس تلهب رعوسنا، لم يسع اللورى الجميع والتصق بعضها ببعض فزادت درجة الحرارة وغلفنا العرق ولازمنا العطش والإعياء.

هبط علينا الليل بوحشته وبرودته، أثناء الطريق كنت أفكر في زوجتي وابني، لقد تأكد لي أنهم لقي ربهما وصعدت أرواحهما النقية للأجداد السماوية مع يسوع والقديسين، فما شاهدته أريك عقلي وأكد لي أن أى إستنتاج سيء سوف يحدث لهما، فالرحمة نزعت من قلوب هؤلاء الأوياس وتخطوا بسفك

دماء الأبرياء الحيوانات المفترسة، كل شيء لديهم كان القتل والتعذيب والإذلال والإهانة، توقف الركب ولا نعلم السبب في هذا ومن المحتمل أن هبوط الليل دفعهم لهذا كي ينال الجنود الراحة، أصدر أحدهم إلينا أوامره بالهبوط من فوق اللورى فهبطنا مسرعين راغبين بإلقاء أجسادنا المحترقة المنهكة من فترة الوقوف علي الأرجل والتي ظلت لفترة خمس ساعات أو يزيد، في بداية عملية الأسر استولوا علي كل ما معنا من أموال وخواتم ذهبية وساعات يد، لم يتركوا أى شيء معنا وجردونا من كل ما نملك بما فيها الكرامة.

طلبوا منا الجلوس أرضاً بوضع القرقصاء، نفذنا ما أمرنا به؛ وكان من يصدر الأوامر يتحدث العربية بلهجة أبناء الجزيرة العربية وتبين لنا فيما بعد أنه من يهود اليمن والتي تغلفهم القذارة والغلظة وسوء الخلق، قاموا بعد هذا بفك قيود أيدينا محذرين الجميع من أية محاولة للهرب بإطلاق النار علينا مباشرة دون إنذار، بعد هذا قام هذا اليمني اليهودي بتوزيع الخبز الجاف علينا وأيضاً وضع أمامنا إناء يشبه قسعة البنائين به ماء، تدافعنا للحصول علي الماء، ورغم ظروفتنا تلك كان الرجال علي مستوى المسؤولية فرغم الحاجة الشديدة للماء إلا أن كل واحد منا حصل علي جرعة بسيطة كي يتيح لزميله الفرصة كي يروى ظمأه، جلسنا بعد هذا نقتات بتلك اللقيمات الجافة ونحن في ذهول وكأنه كابوس فظيع والبعض منا كان يردد:

. إحنا ملناش في الحرب، طيب بيعملوا فينا كده ليه؟

بالطبع لم نجد إجابة شافية سوى وصول عدد من جنود الأعداء الذين انهالوا علينا بعصي مثل عصي الجمال ويقومون بضربنا في الظلام وأنت وحظك

فقد تفقأ لك عين أو تأتي العصا علي وجهك مثلما حدث معي شعرت بعدها أن الدنيا أظلمت من حولي ولم أشعر إلا ببعض زملائي يطلبون مني النهوض من علي الأرض لأن الأوامر صدرت إلينا بركوب اللورى الذى سيتحرك مع باقي الركب.

ضحى اليوم التالي وصلنا للحدود الدولية بين مصر وإسرائيل، مازالت اللواري تسير بنا؛ تبين لنا أثناء الليل أن بعض لواري أخرى تحمل أسرى من الجيش المصرى قد انضمت إلي المجموعة التي نحن أسرى بها، مازال الركب يسير، هناك بمدينة بئر سبع سارت اللواري المحملة بالأسرى المصريين بوسط المدينة بين تهليل قاطنيتها والسباب لنا والإتيان بحركات باليد بطريقة سيئة تدل علي سوء خلق هذا المجتمع، كان يجلس علي كايينة كل لوري أحد الجنود ممسكاً بعصا طويلة يقوم أمام الأهالي بضرنا وسبابنا والبصق علينا مما يزيد الجمهور اشتعالاً وتصفيقاً.

واصلنا السير حتي وصلت اللواري إلي معسكر أو سجن يدعي عثيت وعلمنا فيما بعد بأنه من أشد السجون بإسرائيل قسوة وتعذيباً وقد أعدته القيادة الإسرائيلية للأسرى القادمين من مصر، وجدنا البعض به من المدنيين والعسكريين وقد سبقونا إليه وشاهدناهم يقفون ينظرون إلينا بحزن وألم كأنهم كانوا يتمنون بالألا نكون قد وقعنا في الأسر، هبطنا من اللورى قفزاً بناء علي الأوامر بعد أن حصل كل فرد منا علي العديد من اللكمات وأيضا الضرب المبرح بالعصا الطويلة، شعرت بأن أنفي اليمني قد طارت فلم أعد أشعر بها كما لم أعد أسمع بواسطتها، توقفنا علي هيئة صفوف كأوامرهم الصارمة وأثناء

هذا سمعنا صوت إطلاق رصاص، نظرنا من حولنا فشاهدنا عدداً من الأسرى المصريين يسبحون في دمائهم بعد أن أطلق عليهم أحد الجنود النار، شعرنا بأن شيئاً غريباً يحدث من حولنا ثم تبين بأن الجندي الذي أطلق الرصاص علي الأسرى كان يراهن زميله علي نوع معين من الرماية ولم يكن الرهان بالرمي علي هدف خشبي أو معدني بل كان علي أسرى أصبحوا في قبضة الجيش الإسرائيلي.

كانت الأوامر الصادرة إلينا كثيرة ومتنوعة وجميعها تهدف إلي إشعارنا بالمدلة والعذاب كما أجبرنا علي العمل في خدمة الجيش الإسرائيلي مخالفين بذلك القانون الدولي الخاص بأسرى الحرب، نقلنا من مكان لآخر للعمل تحت المخزة؛ لقد كنا أسوأ حالا من عمال الترحيل بمصر، فعامل الترحيل يمكنه الاعتراض أو ترك العمل لكن هؤلاء لم يكن أمامهم سوى إطلاق الرصاص شعرنا بأن ثمن كل واحد منا رصاصة بالصدر أو الرأس وزملاؤه سيتولون الباقي من أعداد حفرة وإلقائه بها، لقد كان شعوراً مؤلماً لنا نحن الأسرى.

تحسنت حالتنا المعيشية نسبياً بأن صرفوا لكل فرد منا عدد اثنين بطانية وتبين لنا أنها من مهمات الجيش المصري المستولي عليها، تأكد لنا أن اليهود يتصرفون بالبخل فلم يكفوا أنفسهم أي مبالغ تصرف علينا، فأدوات الحفر من مهمات الجيش المصري والملابس والبطاطين بل بعض مواد الإعاشة مثل معلبات شركة قها للخضروات المطبوخة المحفوظة، وإذا مرض أحد فعلاجه من الأدوية التي استولي عليها الإسرائيليون.

كون الإسرائيليون فرق عمل من الأسرى، كل فريق كلف بعمل محدد، فهذا

الفريق مكلف بإعداد الطعام وآخر للنظافة والفرق الباقية تقوم بالعمل بالسخرة في معسكرات جيش الدفاع بل أخذوا بعض الأسرى لتنظيف الشوارع والمدن بكل من حيفا وتل أبيب تحت الإهانة من سباب الأهالي وقذفنا بالحجارة والزجاجات الفارغة والصيحات العدائية التي يصاحبها العصابات والإتيان بحركات منافية للأداب، ظللنا علي هذا الحال لأكثر من شهرين ثم حدث توتر من عمليات عسكرية مصرية ضد الإسرائيليين فأصبح رد فعلهم علينا عنيفاً من سوء التعامل والقسوة أيضاً.

بدا الإسرائيليون يقومون بعملية غسل عقول الأسرى عن الفكرة الصهيونية وإشعارنا بالتخلف وأيضاً بأنهم أصحاب مبادئ وقيم ومن أجل هذا كانوا يجهزون ويعدون للقيام ببعض الزيارات لأماكن متميزة مثل المتاحف وبعض معسكرات الشباب الكيبوتز؛ كان الإسرائيليون بتلك المناطق مستعدين لاستقبالنا أحسن استقبال يتحدثون معنا بكل ذوق ورقة مبينين لنا أنهم ضحايا العنف العربي وعبدالناصر الراغب بطردهم من بلادهم التي تركوها تحت القهر والظلم فإذا ما عادوا قوبلوا بكل تلك التصرفات المهينة وبالحرور المتتالية وهم قوم ضعفاء راغبون بالعيش بسلام ولقد انفقوا الكثير من مدخراتهم أثناء طردهم لأوروبا كي يقوموا باستصلاح الأراضي وزراعتها وتنمية المنطقة.

قاموا أيضاً بالضرب علي الوتر الحساس الخاص بنا كمصريين بأن نبيهم موسي ولد ونشأ بمصر وقاوم الفرعون الكافر الذي رغب بأن يكون إلهها مؤيدين هذا بنص بالقرآن الكريم والذي يذكر حادث غرق الفرعون الذي كان يطارد النبي موسي المرسل من عند الله، يتساءلون: هل سنظل علي خلاف

وعراك معهم فنحن "مصر وإسرائيل" من أرقى الشعوب بتلك المنطقة وعليكم ترك باقي العرب المتخلفين، فنحن أصحاب حضارة ونشترك معاً في ميلاد الديانة اليهودية علي أرض مصر، أنتم مسلمون ومسيحيون ونحن يهود فنجيا ونعيش معاً بسلام، نرجو حين العودة لمصر أن تخبروا الشعب المصري العظيم بأن شعب الله المختار يرحب بكم ويفخر بأنكم أهل وجيران، وأنكم من حميتم وفديتم نبي الله المختار موسى وأخيه هارون.

كنا نشعر بأنها عملية غسيل مخ؛ لقد وصل تأثيرها للبعض منا متماءلين لماذا كل هذا الكره لهؤلاء الناس؟ إنهم يعملون في صمت كما أننا لم نقو علي محاربتهم خلال حروب ثلاث سابقة، إذأ يجب علينا الصمت والبعد عنهم إتقاء شرهم أو حباباً في مصالح مشتركة معهم وتساءل آخر: ماذا حصلنا من الدول العربية في مقابل مقاومة إسرائيل غير السباب والشتمات ومعايرة المصريين بأننا فقراء تارة ونتناول القبول مثل الحمير تارة أخرى ومن يدفعه سوء الحظ ويعمل لديهم يلقي من العنت والإهانة الكثير.

كان الله راغب بأن يكشف هؤلاء القوم الذين لا أمان لهم، فقد تبدلت المعاملة للأسوأ ولم نفهم السبب في ذلك إلا بعد عدة أيام، فبعد أن كنا ننتظر أن يفرج عنا ونعود لأهلنا بعد عدة أيام انقلب الحال من السيئ للأسوأ وأخيراً ظهر المستور من حديث لبعض جنود الحراسة الإسرائيلية ليلا بعد أن دخلنا سجاثر محشوة بالحشيش فطار المخدر برأسهم وعلمنا منهم بأن البحرية المصرية أغرقت مدمرة كبيرة لديهم تدعي إيلات بمياه البحر الأبيض ولم ينج من الحادث أي فرد، كان عدد القتلى يزيد عن المائة والخمسين فرداً.

تراجعت الآمال في الإفراج عنا؛ بعد مضي عدة أيام نما إلي علمنا أنه سوف يتم الإفراج عنا خلال يومين، شعرنا بأن هذا شيء غير طبيعي، كنا في دهشة من هذا الخبر السعيد حتي جاءت الفرصة وأخبرنا أحد الحراس وهو من أصل عراقي بكلمات كانت كافية للإجابة علي إستفساراتنا الخاصة بسرعة الإفراج والسبب وراء العجلة في ذلك بأن إسرائيل وافقت علي تبادل الأسرى رغم المصيبة الفادحة التي حلت علي القوات البحرية الإسرائيلية نظير أن توافق مصر لوحدات من الصليب الأحمر الدولي بالبحث عن الغرقى من رجال المدمرة بداخل المياه الإقليمية، شعرت لحظتها بأن للقوة مكاناً في المفاوضات حتي في الإفراج عن الأسرى.

خلال فترة الأسر التي تعدت خمسة أشهر تأكد لي أن زوجتي لاقت حقتها ومعها ابني الرضيع حيث كنت أشعر بتأنيب الضمير لأتني الذي دعوتها للمجيء وقضاء وقت ممتع معنا لكن زميلي المحاسب محسن كان يردد بأن كل ما حدث قضاء الله وقدره وأن الموت يلاحق الإنسان في أى مكان طالما جاء موعده ولا فكاك منه مهما كان، كانت تلك الكلمات تهدأ من حالة تأنيب الضمير وعذاب النفس التي كانت تهاجمني قبيل النوم حيث كنت أعمل مقارنة بخيالي بين لو كانت زوجتي تحيا هي وابني بمنزلنا الرشيق الجميل علي ضفاف نهر النيل بمدينة المنيا وحالها الآن هي ووحيدى بعد أن قُتلا غدرًا ولقي مصرعهما وهاجمتهم الضواري ونهشت أجسادهما، كان البكاء يهاجمني ولا أستطيع منه فكاكاً خاصة حينما بدأ وصول خطابات لزملائي الأسرى من مصر ولم يصلني أى شيء وهذا دليل علي أن زوجتى الحبيبة مادلين وطفلنا الغالي رقدوا بجوار الشهداء والقديسين.

كنت أقاوم حالة الانهيار التي كانت تتتابني من حين لآخر، لكن تأثير فقد الإيتين أثرا في حالتي المزاجية بشكل ملحوظ ولم يعد أمامي أي شيء يسعد القلب حيث كانت الأحزان تجرى في دمائي، فالحزن كان واضحا علي وجهي وهذا ما أكده أكثر من صديق وزميل من المتواجدين معي؛ حاول البعض أن يسرى عني لكن الضغط النفسي كان كبيرا، في كثير من الأوقات كانت صورهم أمامي بل وصل بي الحال بأنني اعتقدت أنهما يجلسان معي وأحادثهما ويتحدثان معي ورغم هذا الإحساس كنت أشاهد الأسرى من حولي ينظرون إليّ في دهشة وأنا أيضا أدهش لهذا وأتساءل: ألا ترون زوجتي الجميلة وابني الصغير يلعبني، شادى اذهب لعمك محسن وأعطي له قبلة شاهدت الاستنكار ومصمصمة الشفاة وسمعت أحدهم يردد بأن المهندس شوقي قبل أن يفرجوا عنه سوف يصاب بلوثة عقلية، في بعض الأحيان حين الإفاقة من تأثير الحلم كنت أشعر بهذا وبأنني مقبل علي كارثة سوف تذهب بعقلي.

وزعت علينا ملابس جديدة أحضرها الصليب الأحمر الدولي كي نرتديها قبل العودة لأرض الوطن وأيضاً ملابس داخلية وأشرفوا علينا بعد أن تأكدوا بأننا قد حصلنا علي حمام وقبلها حضر بعض الجنود الإسرائيليين لحلاقة شعر الرأس الذي طال وأيضاً لإزالة القذارة حيث تسربت الحشرات الضارة بأجسادنا، سمعت البعض من حولي يشيدون بقيافتني وبأنني وسيم وسوف تقع الكثير من بنات حواء في حبي لشدة جاذبيتي، كنت أنظر إليهم وأنا لا أعلم عن يتحدثون، مازال خيالي وفكري ملتصقا بزوجتي وطفلي، كنت سائراً مع الأسرى نستقل الحافلات وصولاً إلي قناة السويس استعداداً للعبور للضفة الغربية وداعاً للأسر وأشاهد كلا من زوجتي وابني أمامي بالسيارة التي تسبقني

وأشير إليهما بالأب بيتعدا عني حين النزول من اللواري التي نقلنا.

كل من حولي حاول إفاقتي بأنهما لاقى ربهما وكنت أنفي ذلك، بل حاولت التعدي علي أحدهم بالضرب وكاد هذا أن يدفع بالإسرائيليين لتأخير عودتي لأرض الوطن شهراً عقاباً لي علي الإخلال بالنظام والقوانين لكن بعض زملائنا أقتع الحرس المرافق لنا بأن شوقي قد أصيب بحالة من الهستيريا نظراً لفقدته زوجته وطفله وما عليكم سوي التخلص منه بتسليمه للحكومة المصرية وهي كفيلة بأن تفيقه بأن يقضي يومين بأحد أقسام الشرطة مما دفع بالحرس للضحك مؤكداً بأن هذا هو علمهم عن الشرطة المصرية وهذا ما كان الإسرائيليون يعايرونا به وبأن حكوماتكم تذيبكم الذل والمهانة وأن الشرطة المصرية أعدت لإهانتكم وليس لحمايتكم.

الحمد لله، وصلنا لمدينة القططرة شرق وهبطنا جميعاً من اللواري وقام مندوب الصليب الأحمر بمراجعة الأسماء وكل مجموعة تهبط لشاطئ القناة يقوم أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية بمراجعة الأسماء ويشير لنا بركوب اللنش الذي يتحرك بعد هذا متجهاً للضفة الغربية للقناة علي شاطئ مدينة القططرة غرب، بعدها يعود اللنش إلي الشرق لنقل باقي المجموعات تباعاً حينما وصلنا لشاطئ القناة الغربي استقبلنا بعض الرجال بوجوه عكرة وكل واحد منهم أمسك بشخص عائد من قفاه وقام بدفعه وسبابه ونحن لا نعلم السبب في ذلك، ركبنا لواري عسكرية وأغلقوا علينا أبوابها وسارت بنا لفترة لا تقل عن ساعتين ثم توقفت وفتح الباب الخلفي للواري، ظهر أحد الضباط الذي أصدر لنا الأمر بجملة:

-ولاد الكلب الجبنا ينزلوا من اللوري، هبطنا أرضا ولم نعلم بعد المسقوط حيث انهال علينا زبانية جهنم ضربا ونحن لا نعلم هل نحن عدنا لإسرائيل أو أننا بوطننا الذي ابتعدنا عنه قهراً وقسراً لأكثر من خمسة أشهر.

بعد أن نهضنا أمرونا بأن يضع كل خائن يديه الإثنتين فوق رأسه ثم أسرعوا بنا لأحد الأبنية، هناك قسمنا إلي مجموعات، كنا في أشد الحاجة لقضاء حاجتنا ولكنهم لم يسمحوا لنا ولم يعيرونا أي انتباه أو اهتمام وبالتالي بدأت روائح الإخراج للبعض بالانتشار بداخل المكان، كل هذا لم يؤثر في أي شخص من الذين يقفون حولنا ويقومون بإهانتنا، خضعنا لاستجواب وأسئلة غاية في الدقة ونحن لا نعلم ونخبرهم بأننا مدنيون لا نعلم أي شيء دون جدوي، خلال عرض الأسئلة كان من المعتاد إهانتنا من حين لآخر ببعض الضربات علي القفا أو بالثلوت من بعض الرجال الذين يقفون خلفنا.

زج بنا خارج المبنى وطلبوا منا خلع ملابسنا بالكامل، فعلنا هذا وأمرونا أن نتبعد عن الملابس مسافة عشرين متراً ثم فوجئنا بخراطيم مياه تضرب أجسادنا الهزيلة نهاية شهر نوفمبر والبرد علي الأبواب، علل أحدهم هذا التصرف بأنه نوع من النظافة لعدم تماسك البعض والقيام بإخراج ما في بطنه أثناء التحقيق زج بنا لعنبر قديم متهالك، وجدناه مفروش بقش الأرز وطلبوا منا النوم والراحة استعداداً للصباح، كل واحد منا ألقي بجسده المنهك وحالته النفسية المدمرة ورحنا في سبات رغم حالة البرودة والقذارة التي تغلف البعض.

نهضنا علي أصوات جافة بذينة تطالب ولاد كذا .... اللي أهمهم كذا ...  
باليقظة وإلا ح نمسوي بيهم كذا .... نهضنا علي عجل وكل واحد منا ينظر

للمجاور له وهو في دهشة بأنه لم يشاهده قبل ذلك رغم أننا قضينا معاً أكثر من خمسة شهور لكن ما تعرضنا له من إيذاء بدني ونفسي أبعدنا عن حالتنا الطبيعية التي كنا عليها خلال الأمر، شعرت بأن حالة الأمر كانت أهون لأننا نتعامل مع عدو لكن أن تعود لوطنك وتعامل بتلك القسوة وهذه الفظاظة فهذا في منتهى القسوة النفسية علي أعصابنا.

تحركنا تحت الأوامر للخارج بالخطوة السريعة، هناك توقفنا وأقبل قائد عسكري كبير الرتبة مرحباً بنا وبنجاتنا وأشعرنا بأن مصر تحملت ما لا طاقة لها به من أجل الإفراج عنا ثم تساءل عن أية مشكلات فلم يجب أحد تنفيذاً للتحذير الذي هددنا به البعض من داخل المعسكر بأن أي كلب سيتفوه بشكوي سوف يكون مصيره الدفن برمال تلك الصحراء المحيطة بنا، طلب القائد من رجاله بأن يعدوا العدة لإقطارنا استعداداً لمفرتنا لعائلتنا، هكذا دخلنا مطعم عسكري "ميس" وهناك كانت تنتظرنا وجبة عالية الجودة وبكميات كبيرة ومتنوعة وكان الجميع يتناول الطعام غير مصدق أن من أهانونا بهذه الطريقة يقدمون لنا الطعام الفاخرة وتوقع الكثير منا بأنها الوجبة الأخيرة ثم يطلقون علينا الرصاص مثل خيل الحكومة.

لم يحدث هذا بل عوملنا بأحسن ما يكون وكل واحد منا تسلم هدية ومبلغاً من المال وأقلتنا أتوبيسات شركة مصر للمياحة حتى ميدان رمسيس وقام المراقبون لنا بوداعنا بالأحضان والقبلات وكان ما حدث عبارة عن مشهد تمثيلي لأحد الأفلام، سرت مع السائرين وركبت القطار السياحي المار بمدينة المنيا؛ كنت أفكر ماذا سوف أقول لأسرة زوجتي، لقد حرمتكم من مانلين

وظفلها وُعدت لكم عاري اليدين؟ فكرت أكثر من مرة بالهرب والعودة لأي مكان آخر ولا يجب عليّ العودة لبلدتنا وأهلنا والدي مادلين لأخبرهما بالخبر الأكيد لوفاة ابنتهم، خلال الحوار النفسي المتصاعد توقف القطار وقرأت اسم المدينة "المنيا" شعرت بأن ساقى تتحركان دون سيطرة مني، سرت مغادرا محطة السكة الحديد وفي الطريق إلي منزل أسرتي ظللت سائرا وقبيل منزل العائلة شاهدني مصطفى صديقي الذي ظل معي بالدراسة منذ المرحلة الابتدائية حتي التخرج معاً من هندسة أسبوط الذي توقف وتمتم ببعض آيات من كتابه المقدس ثم تحدث بهدوء متمائلا:

. إزيك يا شوجي؟

. الله يسلمك .

. جيت إمتي يا شوجي؟

- لسه يادوب .. ثم أمسك بكفتي كأنه راغب بالتأكد من أن من يحادثه هو صديقه

. يعني أنت شوجي غالي؟

- ايوه يا مصطفى .. جرائك إيه؟ خلاص نسيتتي .. الكام شهر اللي فاتوا نسوك حبيبك شوجي، ساكت ليه يا مصطفى دا إنت كنت معايا في كل حتة حتي لما بأروح للكنيسة للصلاة بتكون معايا، فجأة صاح مصطفى مردداً:

- ياه .. شوحي غالي وصل يا شباب .. كررها أكثر من مرة بصوته المرتفع مما دفع بحشود من الناس نحوي وسمعت صياح البعض من حولي وآخرين أشاهدهم قادمين مسرعين في اتجاهي، البعض صافحني وأخذني بحضنه والبعض تخوف راجبا من التأكد بأنني شوقي غالي، حدث نوع من الضوضاء والجلبة بالشارع علي أثرها أقبل بعض أشقائي مرحبين مهللين؛ غادرت الشارع بصحبة أشقائي وزميلي مصطفى متجهين لمنزل الأسرة؛ هناك استقبلني كل من أبي وأمي بالحب والبياء والقبلات، كان يوما زاخماً مؤلماً علي من حولي حينما علموا بوفاة زوجتي وابني الرضيع.

اليوم التالي توجهت لمنزل أسرة زوجتي الراحلة، كان الجو العام بالمنزل يؤكد وجود حدث خطير، الظلام يخيم علي حجرة الاستقبال كما شعرت بأن والدها ازداد عمره عشرة أعوام علي الأقل كما هاجمته الأمراض وحين شاهدت والبتها شعرت بأنها أصبحت نحيفة وأن شعرها الأسود تغير لونه إلي الأبيض بلون البقعة كما يقول العامة، أشاهدها تسير الهوينا، جلست صامتة لا أستطيع الحديث، كنت أنظر للباب الواصل بين حجرة الاستقبال وبين باقي أرجاء المنزل متوقفاً بأن أشاهد مادلين زوجتي تدخل علي باسمه الوجه تشع نوراً وشباباً وجمالاً مثلما كان يحدث في السابق أثناء فترة الخطبة، أنظر للحائط وأسمعها ترسل لي بضحكاتها وكلماتها حين تتساعل إلي أين سوف نخرج تلك الليلة يا شوقي؟ عليك أن تعلم بأنني سوف أتاخر تلك الليلة بالعيادة نظراً لوجود العديد من المرضى الذين حجزوا موعداً للكشف علي أطفالهم، كنت أسمع بعض الففشات التي كانت تتخلل أحاديثها البريئة.

هاجمتني الدموع دون سابق إنذار وتلي الدموع البكاء بصوت

محموم والتشنجات التي تصاحب الرجال حين البكاء مما دفع بأبها وأبيها إلى النهوض والجلوس بجوار يهدئان من روعي وبأن ما يحدث من عند الرب وكلها أعمار وهي الآن بجوار مريم ويسوع والشهداء والرسول وتحيا بالأمجاد السماوية ويرفرف شادى ابنها مع الملائكة بالجنة الموعودة، لا أعلم الوقت الذي ظللت فيه أبكي وغادرت المنزل وأنا لا أشاهد الطريق من تورم عيني .

اليوم التالي توجهت للكنيسة كي ألتقي بالأب صمويل، هذا الرجل التقى الذي يحو كل حزن يلم بأحد أبناء الطائفة القبطية بمحافظة المنيا وبعض المحافظات القريبة المجاورة، دخلت عليه فاستقبلني بالسلام علي المسيح وأمه الطاهرة، سررت عليه موجزاً لما لاهيته وحزني لفقدى أسرتي الصغيرة ومازالت الدموع تملأ عيني، أجلسني أمامه ورفع يديه بالدعاء وطلب من الرب أن يمنحني الهدوء الذي بالأعالي وبأن يجعل الجنة مقام مادلين الطاهرة وأن يظل شادى يحيا بين الملائكة ويتبع بطرس الرسول .. ثم ردد: الله محبة .. الله محبة، هدأت نفسي وسكن فؤادى وتساءلت:

- أيها الأب الصالح .. ماذا تقترح عليّ أن أفعله، أثناء قدومي إليك التفتيت بزيميلي وصديقي المهندس مصطفى الذي أخبرني بأن الهيئة العامة للبتترول قامت بتعيين جميع المهندسين والعاملين المضارين من جراء الحرب بمواقعها بالصحراء الغربية، هل أقوم بالعمل بالبتترول وما عليّ القيام به؟

اسمعها مني أيها الابن الصالح، لقد قابلت صعاباً لا أعتقد أن أحداً قد قابل مثلها، لقد تم أسرك لأكثر من خمسة أشهر عانيت خلالها من ظلم هؤلاء الأعداء وأيضاً فقدت اثنين من أعز الناس إليك، الزوجة المحبة رفيقة حياتك

ومستقبلك وأيضاً الولد الامتداد الطبيعي لك كآب، فقدت كل هذا وتطلب مني النصيح والإرشاد، ابني العزيز عليك بعقاب من أذلوك والاقتصاص ممن حرموك من أحبابك، توجه للحرب مع باقي الشباب وليكن هذا هو هدفك الأساسي، هؤلاء القوم قتلوا المسيح وأيضاً سبوا الظاهرة السيدة مريم، لهم في كل مكان عمل إجرامي سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، قم وتوجه الآن وتقدم للخدمة بالجيش المصري للدفاع عن شرف وطنك وكيانه، انهض حتي إذا قمت بالقصاص من هؤلاء القتلة يمكنك أن تلتقي بكل من زوجتك وابنتك بالأجداد السماوية ويصبحان فخورين بك وتسعد بالجلوس بينهما بما قمت به.

تركت الأب المخلص وتركت باب الكنيسة وسرت بالطريق وأنا لا أسمع أو أشاهد أى شيء سوى الهدف المنشود، منطقة تجنيد أسويط بمعسكر منقباد سوف أتجه إليها الآن وأطلب من الرب أن يوفقي ويتم تجنيدى وأنضم لجيش مصر العفي الذي كنت أسمع عنه الكثير خلال فترة الأسر وعما يقوم به من ضربات قاتلة ضد العدو.

## التعايش مع الوضع الجديد

عم جبر:

هكذا أصبحت لنا حياة جديدة بعد أن أرسل الله إلينا بتلك القبيلة والتي غرس الله بقلوبهم الطيبة والحب والتعاون من أجلنا، كانت مساعدتي لا حدود لها؛ فقد كنت أشعر بمدى السعادة والراحة النفسية التي ظهرت علي وجه مادلين، كنت أشعر خلال الثهور الفائتة بأن لديها احساس بعدم الأمان وأعتقد أن هذا شيء طبيعي فهي لا تعرفني وسيدة صغيرة ضعيفة، تحمل علي عاتقها طفلها الصغير الرضيع، حمدت الله بأن أقبل هؤلاء القوم بعد أن منّ الله علينا بالكساء، كنت أتساءل: ماذا لو أقبل هؤلاء القوم ومادلين وشادي شبه عراه وكان الله حليماً ستاراً.

شاهدت مادلين تغادر خيمتها وتسير بهدوء وطلع ودلال متجهة ناحية البحر، تأكد لي أن شادي خلد في نومه بعد أن حصل علي رضعته من لبن الأم الحاني، نظرت إليّ مادلين ثم أشارت إليّ قائلة:

. باباء؛ ح أروح ألعب شوية في المية، تستني هنا جنب شادي والا تيجي تراقبني خوفا من الموج وفي الوقت نفسه تراقب خيمة شادي.

شعرت أن السيدة تبغي الحماية فقد أصبح بالمكان أناس آخرون، لحقت بها وعيني وسمعي متجه للخيمة، هناك علي شاطئ البحر قفزت تلهو بالماء حيث كانت تشعر بسعادة ومتعة بينما ظللت في انتظارها مثلما بدأت تلك

المهمة قبل نشوب الحرب، لقد مضى علينا منذ بدأ متابعتي لها قرابة سبعة أشهر، نحن الآن نقرب من فصل الشتاء كما أخبرني الشيخ عرفان لكني لا أعلم عدد الأيام والشهور.

انتهت مادئين من حمامها وبالتالي عننا إلي موقعنا، شاهدها تأخذ عبوة الماء العذب ثم اتجهت إلي دورة المياه البدائية، حصلت علي حمام منعش سريع أزال عنها آثار المياه المالحة ثم عادت وهي تشعر بمساعدة فدخلت خيمتها وأسدت الستارة التي تعني عدم دخول أحد عليها، بعد قليل ظهرت بعد أن استبدلت ملابسها وجلست أمام الخيمة تحدثني في موضوعات شتى ثم قالت لي:

- بابا .. أنا شفت الناس هنا غالبا ومعندهمشي وعي صحي أو اجتماعي بصفتي طبيبة أطفال ح أقدر أقدم لهم مساعدة ومعاونة حتي يتمكنوا من علاج المشكلات اللي بتقابلهم وخصوصا للأطفال لأن ده تخصصي بالجامعة كانت تلك هي المرة الأولى التي أعلم أنها طبيبة أطفال بل وتعمل منذ عدة سنوات ولها خبرة في هذا المجال، كان هذا ملخصاً لحديثها، شعرت بمساعدة بأنها ترغب بتقديم الخدمة والعون لهؤلاء الناس ومن ناحيتي فكرت بأن أقدم لهؤلاء الناس أية خدمة أستطيع تقديمها لكن عملي هو الأمن وهم كأفراد قبيلة لا توجد بينهم المشكلات الأمنية والإجرامية التي تنتشر بداخل المدن بالوادي.

تلك هي الليلة التالية بعد اللقاء الأول مع أفراد القبيلة وأقبلت ثلاث فتيات يحملن الطعام يرافقهن شابان من نفس العمر، تحدثن لمانلين وكانت الابتسامات والضحكات هي لغة التعارف بين النساء الأربعة، قاموا علي

وداعنا وسوف ينتظرن حتي ننتهي من تناول الطعام وخلال تلك الفترة سيجالسون الرجال الثلاثة الحرس، كل تلك المعلومات كانت بالإشارة مع الحديث غير المفهوم مني أو من مادلين، تناولنا الطعام الذي كان بكميات تكفي عدة أشخاص، انتهينا منه وأشارت إليهن مادلين فأقبلت الفتيات الثلاث عدوا وضحكا حتي واجهن مادلين التي قبلت كل واحدة منهن، غادرن المكان ولسان حالنا يقدم إلي القبيلة وإلي الفتيات كل شكر وتقدير.

أمضينا باقي اليوم حتي هبط الليل ونحن نشعر بالأمان سواء من الطعام الشهوي والذي تركز معظمه في اللحوم أو لوجود حرس بجوارنا وأيضا القبيلة برجالها ونسائها الذين تعرفوا علينا وعلمنا منهم بعض المعلومات ورغم هذا مازلت كالتعلب أغمض عين وأفتح أخرى فكما يقول المثل العامي "حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة" ولهذا تركت نفسي نهيا لتلك التوقعات؛ كنت أشعر بأنني لدى التزام أخلاقي نحو السيدة وطفلها؛ كنت دائماً ما أفكر: هل لو حدث المقسوم ونجحنا في العودة إلي محافظة المنيا والتقت هناك بأسرتها وبأسرة الراحل زوجها المهندس شوقي، في تلك اللحظة سوف أشعر بأنني نجحت نجاحاً باهراً كرجل أمن وأيضاً كأب يرعى بنات الناس ويحافظ عليهن.

صباح اليوم التالي أقبلت البنات الثلاث وبرفقتهن الشابات مثلما حدث بالأيام السابقة، قدموا تحيتهم المعطرة بالبسمة المضيئة والكلمات غير المفهومة كان طعام الإفطار عبارة عن فته لين، كان الطعام جديداً علينا لكنه كان شهياً يفتح النفس فنحن نعلم أن هذا اللبن حصلوا عليه من قطيع الماعز ومن المحتمل الغزال، جلست أتناول الطعام مع مادلين وأقبل شادي راغباً بتناول

الطعام مثلنا واستطاعت مادلين أن تقوم بإطعامه بكميات متناهية في الصغر خلال ذلك كان يدفع بيده الهواء كأنه يضرب أى شخص يحاول أن يمنعه من تناول الطعام بصحبة أمه.

كانت العلاقة بين المييدة وطفلها غاية في الرقة والرومانسية، لقد كانت تعتني به عناية فائقة سواء كأم أو كطبيبة أو لحالة الانعزال التي نحيهاها، كل هذا كان دافعاً لها لأن تعوضه عن حالة اليتيم لفقده أباه في هذا العمر المبكر كنت أنتبه من نومي أو إغفاء الظهيرة علي صوتها الشجي وهي تداعبه بأغنية وتلاطفه وأسمع صوته من داخل الخيمة ضاحكا سعيدا فيضحك قلبي وكيفاني معه، كنت أشعر أن هذا الطفل الملاك كان وجوده معنا شيئاً مهماً فقد قرينا من الله الذى وضع به كل صفات الملائكة، فالنظرة إليه تسعدك وتمسك ومتابعته لقطيع الماعز والغزلان الذى يحيا قريباً منا ولا يغادر المنطقة إلا في الصباح للرعي والشرب ثم يعود باقي اليوم والليل فيصبح هذا القطيع هو أسرة شادي ومدرسته وناديه الذى يتركنا للهو معه ولا يعود إلينا إلا حين شعوره بالجوع.

إن التأمل شيء مهم لأى إنسان يرغب بأن يصبح قريباً من الله، كنت أتأمل شادي وهو جالس بين قطعان الماعز والغزلان وأتساءل: أنا بشر ولا أعلم لغة تخاطب الإشارة التي يأتيها الطفل، كما أنني لا أفهم أصوات الحيوانات تلك ومعانيها، لكن من المدهش أن الطفل والحيوانات وبخاصة صغار السن منها يفهمون بعضهم البعض، فأى تصرف يقابل من الجهة الأخرى بحركة إيجابية صوتاً أو حركة، كيف أفسر أن يقف الطفل بعيداً ثم

يعثر علي شيء ما ويشير بيده أو يصرخ فتسرع إليه بعض الماعز أو الغزال الصغير ويلتقون حوله يشاهدون ما عثر عليه، بل أن البعض منهم كان يحاول خطف ما عثر عليه ويتبعهم سعيداً ضاحكاً.

إذاً هناك شفرة ما وضعها الله في مخلوقاته بأن يكون بينهم تفاهم حين فقد لغة التخاطب الرئيسية أو طالما أن لغة التخاطب لم تتم بعد ولم تصل لمرحلة الإدراك مثال ذلك الأصدقاء من الصم والبكم، فهم يأتون بإشارات بينهم يفهمونها ويحيون بها، هي بديل عن الكلام والسمع، سبحان الله؛ هذا ما كنت أشاهده وأراه بين الطفل وصغار الماعز، بل أن أصوات الماعز بخارج خيمته تدفعه للخروج إليهم رافضاً نداء أمه أو منعه من هذا وفي بعض الحالات كنت أسمع أصوات الماعز أو الغزال كبير السن فلا يغادر الصغير خيمة أمه كأنه يعلم أن من بالخارج كبار السن أو من أصحاب المعاش، ولأن أمه لا تعلم لغتهم وبالتالي لا تخرج لهم كام لتبحث معهم أحوال الأسرة والطفل، شيء محير كان يبعث بداخلي السعادة المقترنة بشدة الإيمان وأردد: سبحان الله.

هذا هو اليوم الثالث منذ لقائنا بأهل المنطقة، هؤلاء الناس الطيبين، لقد علمت منهم بأنهم فرع من قبيلة البشارية التي تقيم علي مساحة كبيرة حتي شمال السودان وقريباً من شلاتين، هذا اليوم حضر لزيارتنا الشيخ عرفان وبرفقته بعض النساء، كان عددهن ثلاث نساء وتبين لي أن هذا الرجل يتمتع بالذكاء وبالفطنة؛ فقد شعرت بأن النساء الثلاثة يقترين من مانلين عمرا وليسوا مثل نساء الأيام السابقة اللاتي كن خليطاً من الكبار والعجائز والصغار بل والفتيات اللاتي لم يتزوجن بعد.

استقبلت الشيخ عرفان واصطحبته بعيداً عن الخيمة بناء علي رغبته بينما دخلت النساء الثلاث الخيمة بصحبة مادلين، تحدثت معي في أشياء كثيرة تدور حول حياتهم المعيشية، كرر حديثه السابق عن إهمال الحكومة لهم وأيضاً محافظة البحر الأحمر، بل أنه أخبرني بأن تلك المنطقة لم يقرها منذ زمن أي شخص من المسؤولين سوى بعض قوات حرس الحدود التي أقبلت بداية العام أي قبيل نشوب الحرب بعدة أشهر، وقبلهم بثلاث سنوات شركة تعوير الصحارى "ريجوا" التي أنشأت بئر مياه عميقة تقدم لهم كميات كبيرة من المياه شديدة العذوبة، عدا هذا فلم تصل إليهم أيادى المسؤولين وهو كشيخ لهؤلاء القوم يشعر بالحزن لحالهم مقررأ بأنه متأكد أنهم يحيون حياة تخلف وتأخر نظرا لما شاهده في حي الحسين أثناء دراسته بالأزهر الشريف من تقدم ورقي.

أقبلت السيدات وتبعهن شادى مع بعض الماعز الصغيرة التي تقفز هنا وهناك لشعورها بالأمن، استأذنت مادلين بأن يجلسوا معنا حيث إنها ترغب بفتح موضوع محدد للحديث، جلست النساء وتحدثت مادلين موجهة الكلام للشيخ عرفان حيث قالت إنها علمت من بعض الكلمات التي استطاعت الفوز بها من النساء بأنهن يعانين من بعض الأمراض وأيضاً الأطفال ثم أخبرت الشيخ عرفان بأن عملها الأصلي قبل الحضور لهذا المكان رغم إرادتها هو الطب، نظر إلينا عرفان بتركيز وظهرت الابتسامة علي وجهه الطيب ووجه حديثه إلي طالباً مني لو استطاعت ابنتي الطيبية أن تساعدني في هذا المجال فالأعشاب هنا كثيرة وصالحة للعلاج وهم يعرفون كل نوع من العشب وخواصه في مداواة الأمراض، انتهى اللقاء بوعده من الشيخ عرفان بأن يحضر لنا جميع أنواع الأعشاب المنتشرة بالمنطقة للعلاج ويخبرنا باسم كل نوع من الأعشاب وكيفية استخدامه لعلاج الأمراض، ١٢٢ هذا ما حدث وتم بعد مضي أربعة

أيام فقد حضر الرجل وخلفه ثلاثة رجال يحملون أعشاباً كثيرة ومتنوعة وضعوا الأعشاب أمامنا وبدا أن أحدهم يعلم نوعية الأعشاب وكيفية الاستخدام، الرجل يتحدث والشيخ عرفان يترجم لنا اسم كل نوع، أما مادلين فكانت تضع كل نوع من الأعشاب بأحد أجناب ثم تكتب علي الرمال بجواره بعض حروف أجنبية علمت بعدها أنها اللغة الإنجليزية.

لم يمض هذا اليوم إلا وكان أمامنا أكثر من خمسة وثلاثين نوعاً من الأعشاب علي هيئة مجموعات وكل نوع كتب بجواره الاسم الشائع وتأثيره في العلاج واسم المرض الذي يتم العلاج منه، نظرت إليّ مادلين وطلبت مني العثور لها علي ورقة وقلم، لم يستطع الشيخ عرفان توفير هذا فطلبت منه أن نتجه نحو الشاطئ للبحث في نفايات المراكب التي تلقي بفضلاتها بالمياه نهض معنا الرجال للبحث بداخل النفايات، وكان واضحاً علي عرفان أثناء سيرة برقتنا مدى اهتمامه بهذا الموضوع المتعلق بالصحة، فقد شعر بأنه عثر علي الشخص الذي يمكن من خلاله علاج بعض الأمراض وتقليل آلام البعض وكل هذا تركّز حول ابنتي الطيبة، تركنا مادلين التي أشارت لابنها وأصدقائه من الماعز والغزال بالبعد عن المكان خشية إتلاف الأعشاب أو إزالة ما قامت بتدوينه علي الرمال.

علي الشاطئ كانت عملية البحث عن ورق كتابة وقلم في منتهي الصعوبة، من سوف يلقي بقلم بالمياه وكيف سيطفو وأيضاً أي أوراق بالمياه سوف تبلي بعد أن تبتل، ظللنا علي هذا الحال حتي كاد اليأس يقضي علي كل أمل نسعي وراءه؛ شعر القوم بأن تلك المهمة سوف تفيدهم وكانوا يركزون

علي مادلين وهي تفرز الأعشاب وتكتب فائدة كل نوع بجوارها فوق الرمال .

لم نستطع العثور علي ما توجهنا إليه ومن أجل هذا عننا دون أن نحقق الغرض الذي تحركنا من أجله، من حسن الحظ أنني شاهدت مادلين تجلس منهمكة وتكتب بقلم ومعها مجموعة أوراق تشبه كراسة المدرسة لكنها أصغر حجماً وأكثر سمكاً من الكراس المدرسي والذي كنت أشاهده مع أطفالتي حينما أقبلنا عليها وهي تكتب وتوزع الأعشاب كريط وحزم وتقوم بلف كل حزمة بخيط سميك، علمت فيما بعد أن تلك الخيوط عبارة عن حبال رفيعة أتت بها من خيمتها بعد أن سحبتها من الحبال النايلون التي كانت بالمظلة التي هبط بها الطيار الإسرائيلي واستطاعت قواته العمل علي إنقاذه والتقاطه تقوم مادلين بعد ذلك بكتابة الاسم الشائع لهذا العشب أو النبات ثم تكتب أسفله فوائد الطبية وتلصق عليه ورقة البيانات تلك، ظهرت الفرحة علي وجوهنا جميعاً؛ كنت راعياً بمعرفة كيفية العثور علي الورق والقلم، بعد أن انتهت مما تقوم بكتابته نظرت إليّ والسعادة تغطي وجهها الأبيض الناصع وقالت:

. بابا .. كتبت أسامي كل الأعشاب والمرض الذي يعالجه كل عشب، الأنواع كثيرة وتقريباً ما فيش مرض إلا والعشب بيعالجه، شيء عظيم، تعرف .. بعد كده حاجز الأعشاب دية في عبوات ونقوم بتوزيعها علي العائلات بس بعد ما أتأكد من فاعليتها للناس خصوصاً الأطفال، عايزه في المدة اللي أنا قعداها هنا أحسن الحالة الصحية للأطفال والستات، لاحظت فيهم بعض الأمراض وزى ما أنت شايف عايشين بعيد عن المدن ومفيش هنا لا طبيب ولا صيدلية ربنا يقويني.

كان الشيخ عرفان يستمع لهذا الحديث والسعادة تتضح معالمها من بين شعيرات نقنه القليلة والأخاديد التي تغطي جزءًا كبيراً من الوجه، شعرت أن الرجل مهتم بما تقوله مادلين وبخاصة حينما علم أنها طبيبة وهو كرجل بدوى عاش بالقاهرة عدة سنوات يعلم مقدار أهمية الطبيب وبالأخص طبيبة النساء لأن المجتمع البدوى لا يسمح بأن يقوم طبيب رجل بالكشف على نساء البدو.

حينما سألت مادلين: من أين عثرت على الورقة والقلم، ضحكت بملء فيها قائلة بأنها عثرت على الورق والقلم بقاع الصندوق الخشبي حين همت بالبحث عن غيار لابنها شادى بعد أن تلوّثت ملابسه بسبب اللعب مع الماعز والغزلان لقد كانت مساعدتها كبيرة، بعد هذا طلبت من الشيخ عرفان أن يقوم رجاله بحمل الأعشاب قريبا من خيمتها ووضعها بنفس النظام كي لا يختل ما قامت بترتيبه كما طلبت منه أن يأتي بالغد ومعه بعض الرجال والنساء العجائز الذين يقومون بتحديد المرض وعرض الوصفة الطبية على المريض.

اليوم التالي أقبل الشيخ عرفان ومعه عدد من النساء والرجال العجائز من أصحاب المعرفة والخبرة بالأعشاب، بدأت مادلين في السؤال والاستفسار عن اسم كل عشب والمرض الذى يقوم علي علاجه، تولى الشيخ عرفان الترجمة فتقوم مادلين بالكتابة وترجع ما سمعته بالأمس حتى قامت بتصحيح كل المعلومات والتأكد منها، سألت الشيخ عرفان بأن يقوم بسؤال العجائز من النساء عن الأمراض التي لم يتم علاجها بالأعشاب، كانت الإجابة غير محددة المعنى؛ فلا تشخيص محدد مما دعا مادلين للنظر إليّ بأن كل تلك الشكاوى ناتجة من الإهمال والقذارة وعدم مراعاة الشروط الصحية في الإقامة والمعيشة؛ ولهذا طلبت من الشيخ عرفان أن تقوم علي زيارة مساكنهم

بالغد، شعر الرجل بالسعادة لهذا الطلب واعتبره تقديراً منها لقومه.

صباح اليوم التالي أقبل الرجال الثلاثة القائمين على الحراسة، رافقنا أحدهم وظل الباقون بالمنطقة للحراسة، سرنا قرابة خمسمائة متر حتي وصلنا لبطن الجبل، هناك شاهدنا الكهوف والمغارات وعلما أنها مساكن هؤلاء القوم تفحصت مادلين المكان ورغم النظافة البادية عليه إلا أنها اكتشفت عدم وجود دورات مياة وعلي جميع أفراد القبيلة قضاء الحاجة بالخارج بمنطقة خلفية أعدت لهذا؛ وقد أعد مكان للنساء وآخر للرجال ومن أجل هذا طلبت من الشيخ عرفان أن يقوم رجاله بإنشاء دورات مياة، تساءل الرجل كيف هذا وقد شاهد وعلم بنوعية دورات المياة التي كان يشاهدها في أروقة الأزهر بالقاهرة.

من أجل هذا كون الشيخ عرفان مجموعة من الشباب والرجال بناء على طلب مادلين، كانت مهمتهم الأولى هي جمع كل النفايات التي يليقها البحر علي الشاطئ باستثناء جيف الحيوانات والأسماك الكبيرة، اعترضت مادلين وطالبته بأن يقوم رجاله بجمع الجيف وإعداد حفرة كبيرة بعيدة عن الشاطئ وتوضع بها تلك الجيف ويتم ردمها وتغطيتها بالرمال علي أن يصبح هذا هو السلوك المستمر حتي لا تنتشر الأمراض بالمنطقة والتي تساعد البكتريا والجراثيم علي إيذاء الأطفال والنساء.

تخيرت مادلين مكاناً لإنشاء دورات مياة علي أن يتخلله الهواء القادم للمنطقة بحيث يصبح التيار عكس مكان سكني العائلات حتي لا تنتقل الروائح الضارة إليهم، بعد هذا حددت أماكن للرجال، وقاموا بالحفر لأعماق محددة كما طلبت منهم عمل سور يفصل بين دورات المياة الخاصة بالرجال والأخري

الخاصة بالنساء، بعد مضي أكثر من أسبوع من العمل الدعوب انتهى الرجال من إنشاء الحفر التي أمرت بها مادلين وخلال تلك الفترة كانت إحدى فتيات القبيلة ترعى مصالح شادي رغم أنه في أوقات كثيرة كان يلهو مع أطفال القبيلة بالإضافة إلى صداقته ولهوه مع صغار الماعز والغزلان.

قام الرجال المكلفون بالبحث عن كل ما هو ملقى علي الشاطئ بتجميع كميات لا بأس منها من الألواح البلاستيك الكبيرة وبأحجام مختلفة والبعض أصابه التلف كما عثروا علي عبوات كبيرة الحجم من البلاستيك عبارة عن براميل خاصة بزيت أو شحومات ألقت بها المراكب وقطع كثيرة من ألواح خشبية غير مهذبة وعبوات صغيرة بلاستيك سعة أربعة لتر لزوم زيت بعض الماكينات، أما ما عثروا عليه من جيف لحيوانات نافقة فقد نفذوا نصيحة مادلين وأعدوا حفرة تبعد عن الشاطئ بما لا يقل عن ثلاثمائة متر ولا يقل عمقها عن مترين وألقوا بكل الجيف بها وأهالوا عليها الرمال مما قلل من الرائحة الضارة بالمنطقة.

كان أهل المنطقة من الرجال والسيدات بل الأطفال يدفعهم حب المعرفة كي يعلموا ما يحدث من وراء تلك الحركة والنشاط بين أفراد القبيلة، تعاون بعض الشباب في اختيار قطع من ألواح البلاستيك المقوى وتم هذا بناء علي ما طلبته مادلين من الشيخ عرفان وقام آخرون بوضع البراميل البلاستيك بالحفر بعد أن وضعوها مقلوبة علي الفتحة الرئيسية ثم حددت لهم عمل فتحة من أعلى لا يزيد قطرها عن عشرين سنتيمتراً ووضعت حولها الألواح البلاستيك ، بعد مضي أسبوعين علي هذا العمل أصبح هناك عدة دورات مياه مخصصة للرجال وأخرى للنساء والتي تقترب من الشروط الصحية

لمثيلاتها بالمدن الصغيرة بالدلتا كما طلبت من الشيخ عرفان أن يقوم كل فرد بعد الانتهاء من قضاء حاجته برش بعض الرمال بالداخل ثم يوضع حجر كاف لغطاء الحفرة حتى لا تسقط بداخلها الزواحف.

كما طلبت ملء بعض الأوعية البلاستيك من مياه البحر المالحة كي يقوم الأفراد بنظافة أجسادهم بعد الانتهاء من قضاء الحاجة، كل هذا تم وبدا أن البعض غير مستوعب التجربة الجديدة؛ حيث كان يتخير أى مكان يستخدمه كي ينهي خلالها مهمته تاركاً المكان بعدها لكن بتلك الطريقة أصبح هناك نوع معين من الإجراءات يجب اتباعه، مازالت مادلين تواصل شرح وتوضيح ما قامت به والفائدة المرجوة من وراء هذا والشيخ عرفان بصبر وأناة يقوم بشرح كل هذا لمن حوله من الرجال الذين سيتولون نقل كل تلك المعلومات والنصائح والفوائد المرجوة لنزوجاتهم وبناتهم.

خلال الفترة السابقة كانت مادلين تراقب ما يقوم به الرجال ثم تعود لخيמתها ومعها بعض النساء فتقوم علي تدريبهن علي الأسلوب الأمثل لاستخدام الأعشاب الطبية، تبين لها أنهم لا يراعون الأصول السليمة في الاستخدام فيتركون بعض الحشائش والأعشاب معرضة لأشعة الشمس المباشرة بعد الحصول عليها تصبح جافة مثل الحطب وبالتالي تفقد المادة الطيارة التي بداخلها، تلك هي المادة الفعالة وبالتالي تصبح دون فائدة من استخدامها، كما استغلت بعض العبوات البلاستيك ووضعت بكل عبوة نوعاً محدداً من العشب الطبي بعد تقطيعه إلي أجزاء صغيرة والبعض الآخر طلبت طحنه وبالفعل تبين وجود مطحنه يدوية صغيرة قامت بالغرض.

هكذا أعدت مادلين صيدلية غنية بالأعشاب الطبية وكتبت علي كل عبوة اسم العشب والمرض الذي يستخدم لعلاجها، بل أنها وضعت علامات بجوار اسم المادة الفعالة حتي يتعرف عليها رجال ونساء القبيلة، فمثلا رسمت قرص الشمس بجوار عشب بيض الجمل المخصص لعلاج الجروح والتقيحات وهلال القمر علي عبوة عشب لبن الحمارة والذي يقوم علي علاج الأمراض الجلدية والميكروبية كما وضعت رمز الجمل علي عبوة عشب الحرجل الذي يعالج المغص وآلام المسالك البولية ووضعت شكل عنزة علي عبوة حنة الغول والذي يعالج أمراض الحلق .. استمرت مادلين علي هذا العمل الدؤوب وخلال هذا حددت خمسة وثلاثين نوعاً من الأعشاب أصبحت معدة لعلاج الأمراض.

كانت الخطوة التالية كيفية تعليم بعض السيدات اللاتي لديهن استعداد علي كيفية تشخيص الأمراض ومن أجل هذا كن يرافقتها عند الشكوى من أية حالة مرضية؛ كانت توضح لهن نوع المرض وتعيد وتكرر الاسم عدة مرات حتي تحفظه النساء عن ظهر قلب ثم تشير إلي العبوة الخاصة بالعلاج وتحدد مقدار العلاج وهل يتم العلاج بوضعه وغليه بالماء أو بعمل عجينة أو مستحلب وحصلت علي تلك المعلومات من أبناء القبيلة.

سارت الأمور بنا سيراً حسناً كما علقّت بأذاننا بعض كلمات من لهجتهم كما تبادلنا النساء بعض كلمات حصلن عليها من مادلين ثم أتبع هذا جملاً قصيرة وبدا أن أسلوب التعامل مع النساء يتضح تأثيره علي مادلين؛ فقي إحدى المرات وبعد لقائنا بالنساء عادت إلي خيمتها وبشرتها لامعة بيضاء ويمسأها أجابت والبسمة تضيء وجهها أن النساء أتين بشيء مستحلب استطاع إزالة بقايا الشحم الذي سبق وأن وضعته علي وجهها منذ عدة

أشهر؛ كل هذا أدى إلي أن تصبح مادلين جزءاً منهم وهم أصبحوا كأهل لها رغم أن حلم العودة لمحافظة المنيا مسقط رأس مادلين لم يغادر عقولنا كما تأقلم شادي مع الأطفال الذين في مثل عمره وقل اعتماده علي لبن الأم.

هذه هي إحدى ليالي شتاء نهاية عام ١٩٦٧ والتي عانيت مع السيدة وطفلها أسوأ أيام أتذكرها طوال حياتي التي تعدت الخمسين عاماً، أثناء توجهي للخيمة اتقاء البرد القارس والرياح الشديدة سمعت أصوات طلقات منفع رشاش آتية من جهة البحر، توقفت قليلاً كما أسرع الرجال الثلاثة الحرس ونظروا معي جهة البحر، تكرر صوت إطلاق الرصاص لكن في تلك المرة شاهدت أضواء صغيرة الحجم في جوف الليل بعدها بثوان سمعنا صوت طلقات المدفع وتبين لنا أن الضوء كان صادراً من المنفع وبالتالي فإن فوهته في اتجاهنا.

أصابني التخوف والتردد، هل مبعث صوت إطلاق الرصاص أت من سفينة معادية؟ أجبت علي السؤال بتأكيد ذلك فمن غير المعقول أن تكون سفينة مصرية، كيف تطلق الرصاص علي من يتواجدون علي شاطئ البحر في هذا المكان شديد الوعورة عديم الفائدة شحيح السكان، هناك شيء ما حدث ولا بد أنه صادر من سفن العدو الذي لا يهدأ حركة وغدرا فخلال الشهور السابقة كنا نسمع أصوات أزيز الطائرات ومن بينها طائرات هليكوبتر عمودية الإقلاع والهبوط وقد أخبرني الشيخ عرفان بأن صوت إطلاق رصاص مدافع قادم من جهة البحر حدث قبل هذا أيضاً لطائرات العدو العمودية الهليكوبتر التي حضرت مرات عدة قريباً من موقعهم وظلوا لفترة ساعتين عادوا بعدها من حيث أتو ولم يعارضهم أحد من رجاله القبيلة الذين إختبأوا خشية القتل.

## وصول بعض الزوار

استمرت الحياة علي هذا النهج، حيث تقيم مادلين ووليدها بالخيمة البدائية بينما أقيم أنا بالقرب منهم بعشة بسيطة، إقترب حلول فصل الشتاء وشعرت بالبرودة تضرب جسدي الهزيل؛ كنت أشعر ليلا بشدة البرودة مما دفعني بأن أطلب من الشيخ عرفان أن يرسل لي ببعض رجاله كي أعد خيمة محكمة الغلق كي أتمكن من النوم بهدوء بعد أن يلقني الدفاء، بالفعل أرسل لي عرفان ببعض رجاله وتحت إشرافي وتوجيهي وبمساعدة من مادلين استطعنا أن نقيم خيمة أو عشة تقارب حجم عشة مادلين مع استخدام فوالق النخيل كما أعددت سريراً وضعت عليه المرتبة كي تصبح مرتفعة عن الأرض كي يمكنني الجلوس فوقها والتحدث مع الآخرين.

مساء نفس اليوم شاهدت بعض الفتيات قادمات يحملن أكلمة مصنوعة من وبر الجمال؛ أهدين مادلين بواحدة منها وأنا حصلت علي الأخرى وعلمت أنها مهداة إلينا من الشيخ عرفان، تلك الليلة شعرت بالدفاء وحصلت علي نوم هادئ خاصة حينما كنت أنظر من خلال فتحة الخيمة فأشاهد الحرس جالسين يتحدثون مع بعضهم البعض علي أضواء نيران أشعلوها لتتير المكان وتتشرب الدفاء والمكينة بينهم.

مضت بعض الأيام وهذا أحد أيام شتاء العام الجديد والأمواج البحرية ترتفع بداخل البحر والبرودة تلهب الوجوه المعرضة لتيارات الهواء القادم من جهة البحر الأحمر، رغم سوء الأحوال الجوية إلا أنني سمعت صوت إطلاق الرصاص من أحد مدافع السفن بعد غروب الشمس بساعتين تقريباً، في

الصباح توجهت لشاطئ البحر كي أعاين "الجوبيا" أو شبكة الصيد حتي أتأكد بأنها نجحت بالإيقاع ببعض الأسماك؛ كنت ومادلين في حاجة إلي وجبة من الأسماك، وصلت للشاطئ وسرت قليلا في اتجاه المكان التي ربطت بها الشبكة فشاهدت كومة من الأقمشة البالية علي شاطئ البحر، توجهت إليها بحب الفضول فتيين لي أنهم لخمسة رجال وبدا لي أنهم فقدوا حياتهم غرقاً أو موتاً من شدة البرودة.

أسرعت بالعودة وطلبت معاونة الحرس الذي أسرع ناحيتي بناء علي صياحي لهم مما دفع بمادلين للقدوم برفقتهم، إستطاعوا حمل الرجال، كان اثنان منهم يربط بينهما قيد حديدي بينما الثلاثة الآخرون مقيدون بقيد حديدية تربطهم ببعض، قمت بتحرير القيود الحديدية من أذرع الرجال مما مكن الحرس من نقلهم إلي جوار الخيمة وأثناء هذا سمعنا أحدهم يتألم ويتحدث بكلمات غير مفهومة، طلبت نقلهم لداخل الخيمة وطلبت من الآخريين إحضار بعض بقايا النار المشتعلة والثالث طلبت منه نزع ملابسه بعد أن قمت بفك القيود بالمفتاح الذي أحمله لهذا الخصوص.

بعد أن سرى الدفاء بالمكان والتحف الرجال بالغطاء الصوفي أسرع أحدهم بإحضار ملابس رجالي عبارة عن جلباب مثل جلباب رجال الصعيدي لا يستخدمونها إلا فترة الشتاء أما باقي العنة فيظلون شبه عراة كما شاهدتهم أول مرة، تبين لنا أن رجلين من الخمسة ماتا غرقا وتبقي ثلاثة أحياء، شعرت بأن الرجال الثلاثة قد يتتبهون بعد الدفاء الذي سرى بأجسادهم وتناولوا الشاي الدافئ الذي أنعشهم فتنبه أحدهم ونظر إلي وإلي ملابسي وصاح مدعوراً:

. البوليس وصل هنا عشان يقبض علينا ويرحلنا، لا حول الله، ضاع مجهودنا علي الفاضي ومات صلاح وعوض وأخرتها ح نترحل، تتبه زميلاه الآخران وبدا عليهما حالة من الحزن حينما سمعا صراخ زميلهما بأن قوات الشرطة قد وصلت للمكان كي تلقي القبض عليهم، هدأت من روعهم وأخبرتهم بأنني لن أقبض عليهم وهم أحرار منذ الآن وإذا كنتم راغبين في ترك المكان فأهلا بكم شريطة أن توضحوا وتشرحوا لي ملابسات الحادث بعد أن نقوم بدفن زملائكم ثم نعود لنجلس ونتحدث.

نهض الرجال الثلاثة وبمعاونة الحرس أعدوا حفرة تبعد عن الخيمة بقراية خمسمائة متر وضعنا بداخلها الرجلين ثم قمنا بتأدية الصلاة علي روحهما ثم أهلنا عليهم الرمال، تحركنا عائدين وقبل وصولنا شاهدت الشيخ عرفان قائما في اتجاهنا ومعه بعض رجال القبيلة يستقشرون عما حدث؛ شاهدوا الرجال الثلاثة الذي تم إنقاذهم من البحر، تحدث معهم عرفان وطلب منهم السكن وعدم الكلام إلا بعد أن يتناولوا طعامهم الذي كان قائما برقعة بعض الرجال؛ قدم إليهم الطعام وبدا أن الرجال في أشد حالات الجوع من اندفاعهم نحو الطعام؛ أنهى الرجال على الطعام ولم يتبق منه سوى عظام العنزة.

بعد فترة هدوء شعر الرجال بأنهم استعادوا جزءاً من صحتهم ونشاطهم البدني والذهني، تحدث أحدهم وعرفنا بنفسه وبزملائه وما الذي حدث لهم حيث قال: نحن جنود بالجيش المصري بقوات الصاعقة المصرية، كنا نحارب بأرض اليمن ومنذ عام أخطأنا نحن الخمسة بأن قمنا بسرقة بعض مواد غذائية من الجيش وبيعها بمسوق تعز باليمن، علمت المخابرات الحربية بالأمر وألقي القبض علينا وفي المحكمة العسكرية اعترفنا نحن الخمسة فصدر الحكم

علينا بخمسة أعوام بالسجن الحربي منذ عدة شهور، بعد قيام حرب ١٩٦٧ وهزيمة الجيش المصرى صدرت الأوامر للجيش بالعودة من اليمن للمساعدة في حماية الوطن من أي هجوم إسرائيلي، هكذا تحركنا وركبنا سفينة نقل الجنود؛ حيث كنا نقبع بالسجن وترتدى البدلة الزرقاء ونقوم علي الخدمة الشاقة ونظافة ظهر المركب.

شعرنا بأن مصيرنا أصبح مظلماً حين الوصول لمصر وبداخل السجن الحربي سوف نلقي صنوف العذاب، فكرنا بالهرب ولكن كيف الهرب ونحن محاطون بقوات من الجيش وأيضاً من زملاء لنا من رجال الصاعقة الكارهين لتصرفنا المشين، قررنا أن نقفز من فوق ظهر المركب حين وقوفها ليلاً خشية اصطدامها بالشعاب المرجانية بعد أن سمعنا وعلمنا هذا من أحاديث بين الجنود، تلك الليلة أسرعنا في جنح الظلام ورغم أن أيادينا مقيدة بالقيود الحديدية استطعنا إنزال قارب مطاطي من الذي يستخدم علي السفن الحربية بواسطة حبل وهبط علي الحبل اثنان من زملائنا ومعهم القارب ثم جذبنا الحبل وهبطنا نحن الثلاثة عليه، قمنا بفرد القارب علي سطح المياه الهادئة في هذا الوقت من منتصف الليل لأن موجة الجزر كانت تنتشر فوق سطح المياه بمجايف القارب الصغيرة جدفنا كي نبتعد عن السفينة ولكن تبين لنا أن أحد الحراس اكتشف عدم وجودنا فأبلغ قائده الذي قام بالبحث عنا دون جدوى أسرع المركب بإعلان الإنذار وأضيئت الكشافات وسلطت علينا الأضواء ونحن وسط الماء ومن فوق ظهر المركب أطلقت علينا الرشاشات التي أصابت زميلينا فلقيا حتفهما في الحال كما تدمرت أربع غرف هوائية من القارب ولم يتبق سوي اثنتين، بعد أن هدأ الحال وتأكد للحرس علي المركب بأننا لقينا حتفنا واصلنا تحركنا ٣٤ ساعة بعد أن وضعنا الزميلين فوق

القارب غير الصالح لأن ترك أى زميل منا يغوص بالماء سوف يقضي علي  
الباقيين الذين مازالوا علي قيد الحياة نظراً لإشترانا في القيد الحديدي.

بصعوبة بالغة وصلنا للشاطئ وقد عاونتنا أمواج المد فدفعت بنا إلي  
اليابسة؛ خارت قوانا والبرودة أنهت علي الجزء المتبقي منها والتي مازالت لدينا  
ظللنا نرقد علي الشاطئ نسمع أمواج البحر ولا نستطيع التصرف أو طلب  
المساعدة أو العون، نحن الآن رهن إشارة السلطات فنحن الثلاثة هاريون من  
السجن الحربي ولكم الحق في التصرف معنا، لقد اكتشفنا أن مغامرة الهرب  
كانت أشد قسوة من مساويئ السجن.

طغي شعور بالهدوء علي الرجال بعد أن تناولوا الطعام وشعورهم بالدفء  
وتناول عدة أكواب من الشاي، بعدها غط كل منهم في نوم متصل ولم يعد  
صادر منهم سوى الشخير الذي يدل علي أن هؤلاء الشباب قاموا الكثير خلال  
تلك الرحلة المميّنة، فلم يكتف القدر بأن يهبطوا علي سطح الماء العميق بهنجح  
الظلام لكن القوات هاجمتهم بإطلاق الرصاص فمات اثنان كانا قادرين علي  
الغوص وإغراق الباقيين الأحياء لكن رحمة الله كانت بهم

نهض الرجال صباح اليوم التالي أشد نشاطاً وأقوى حركة وتبادلوا معنا  
الأحاديث العامة، قام كل واحد منهم يعرفنا بنفسه:

• أنا منصور عبدالرحيم، من مواليد حي المديح بالمسيدة زينب، عمري ٢٣  
عاماً وأعمل نجار بلدي وباب وشباك.

• أنا يعقوب محمود، من مواليد ١٣٥ محافظة قنا وأعمل عامل بناء

وتظهير الحوائط وتظيفتها كي تصبح ناعمة الملمس وذات منظر طيب  
وعمرى ٢٢ عاماً.

• أنا رمضان عبد الكريم من مواليد محافظة الفيوم وأعمل ترزي بلدي أى أقوم  
علي خياطة الجلباب البلدى أو المنزلي وعمرى ٢٣ عاماً.

جند الشباب الثلاثة منذ عامين وانضموا إلى قوات الصاعقة المصرية ومنذ  
عام ونصف العام وهم يخدمون بمناطق العمليات الحربية باليمن، الثلاثة  
يجيدون الاشتباك والدفاع عن النفس واستخدام السونكي والخنجر ومهاجمة  
الأعداء بعمليات الإغارة والكائن كما أنهم يجيدون استخدام البندقية الآلية  
والرشاش الخفيف والقنابل اليدوية، قصوا علينا بعض عمليات قامت بها  
وحدثهم ضد الأعداء بجبال اليمن وشاركوا فيها ونالوا تقدير قائد الكتيبة حتى  
لعب الشيطان برؤوس الرجال الخمسة فأعدوا العدة لسرقة بعض من مؤن  
الجيش وبيعها حتى ألقى القبض عليهم خلال العملية الثالثة واقتيدوا للمحكمة  
العسكرية التي أنزلت بهم العقاب المشدد بالسجن خمسة أعوام وشهادة إنهاء  
الخدمة العسكرية بدرجة رديئة والتي تقف حائلا أمام أى واحد منهم يرغب  
بالعمل في وظيفة حكومية.

اندمج الشباب مع رجال القبيلة وقدموا يد المساعدة والعون لهم بعد أن  
ارتدوا البدلة الزرقاء التي قموا بها بعد أن جفت من المياه المالحة، لم يتفهم  
أبناء القبيلة معنى لهذا اللون، كان الشباب يسرون مرفوعين الهامة وقد بدت  
عليهم معالم الصحة والفتوة من التدريبات التي حصلوا عليها إبان تجنيدهم

وانضمامهم لقوات الصاعقة المصرية.

شعرت بأن بعض فتيات القبيلة ينظرن للشباب بتركيز دون باقي زويهم ولم يلفت نظر الرجال الثلاثة هذا السلوك؛ حيث كانوا راغبين بالحصول علي ثقة وحب أبناء القبيلة وهم لا يرغبون باحداث مشكلات تزيد من حالتهم سوءا كما أنهم يعلمون أن البدو بالصحراء يكرهون ويمقتون من يتناول علي كرامتهم وبالأخص من ناحية النساء، كنت ألاحظ أن الشباب الثلاثة يأتون إلي طالبين مني أن أوجههم للأعمال المطلوب تنفيذها ولا أعلم المسبب في هذا؟ كنت أعتقد أن السبب في هذا كبر السن أو بسبب أنهم جنود بالجيش وأنا رقيب بالشرطة فنحن بالتالي أقرب فهماً وسلوكاً عن الآخرين أو لشعورهم بأنني ابن الوادي وأعلم الكثير عن الطباع المخالفة لهؤلاء الناس.

بعد مضي عدة أيام سمعنا أصوات لطائرتين هليكوبتر تحلقان بعيداً عن موقعنا بمائتي متر، توقف الرجال الثلاثة يحدقون بالطائرتين وأحدهما كرر كلمة الأعداء، طائرات الأعداء .. ماذا نفعل وليس معنا سلاح ومازلنا رجالاً بالجيش المصري ونشاهد العدو يخترق أجواء بلادنا ونحن نقف مكتوفي الأيدي، كان واضحاً الضيق الذي ألم بالرجال وعلمت منهم بأن تلك الطائرات تنقل قوات كوماندرز إسرائيلية وهي الفصيل المقابل لقوات الصاعقة المصرية وبالتالي كان الرجال في أشد الحاجة لأن ينازلوا الأعداء، مازالوا في ضيقهم فاقتربت منهم واقترحت عليهم التوجه لمكان هبوط الطائرتين خفية دون أن يشاهدونهم وتعلموا ما يقوموا به من أفعال حتي نستعد لهم في المستقبل.

شعر الرجال بأن هذا الاقتراح أفضل من الصياح والضيق، بالفعل أسرعوا

في اتجاه هبوط الطائرتين وظلوا هناك حتى أقلعت وغادرت المنطقة باتجاه البحر، بعدها بقرابة ساعة عاد الرجال وجلسوا معي ويرددون كلمة وحيدة "لا نعرف .. لا نعرف" .. لكن من المؤكد أن الأعداء يعدون لشيء ما في هذا المكان ومن أجل هذا يجب أن نكون في انتظارهم، طلبوا مني تركهم لتلك المهمة كي يتفرغوا لها وسوف يقومون بما يجب عليهم القيام به فمسئولية حماية الوطن تقع علي عاتقهم بصفة أساسية.

لم أعد أشاهد الرجال منذ أن تناولوا طعام هذا الصباح؛ علمت أنهم غادروا المنطقة في الاتجاه التي هبطت به الطائرتان منذ أسبوع، لقد تكرر المشهد بعودة الطائرتين وحين البحث عن الثلاثة يتبين لي أنهما ينتظران بالمكان الذي تهبط به الطائرات، تحركت يهدوء وخفة لأكون قريباً من موقع الحدث، هناك شاهدت الرجال الثلاثة يحيطون بإحدى الطائرات بعد أن قتلوا أحد رجالها بمسكين وحصلوا علي مدفعه الرشاش، نجحوا أيضاً في القضاء علي حارس الطائرة الثانية رغم أن الوقت منتصف النهار الذي نشر ضيائه إلا أنني لم أسمع أو أشاهد عملية القتل تلك، هذا ما استطعت تحديده واستنتاجه، في نفس الوقت شعرت أنهم يعدون لشيء مهم قادم لا أعلمه حيث ينشرون سعف النخيل الجاف أسفل إحدى الطائرات.

لم تمض نصف ساعة إلا وعاد رجال الكوماندر ناحية الطائرتين حين اقترابهم من الطائرة شعروا بأن زميلهم لا يسمعون له صوتاً ثم شاهدوا جثته ملقاة بأحد الأجناب، علي الفور قاموا بفتح نيران أسلحتهم في كل اتجاه بالمنطقة، لكن من المدهش أثناء تلك العملية أن أقلعت الطائرة الثانية دون أن تتببه لفقد أحد رجالها، حين حدثت الاشتباكات فجأة من جانب واحد

شاهدت الطائرة التي أقلعت تميل لأحد الأجناب وتتأرجح ثم سقطت دفعة واحدة بعد أن تحطم جزء بأسفلها، حين سقوط الطائرة اشتعلت بها النيران التي امتدت لمسافات بعيدة فوصل بعض لهيبها إلي مكان وقوف الطائرة الأولي فاشتعل سعف النخيل الجاف الذي امتد للطائرة.

أدى هذا إلي حالة من الهلع بين الأعداء ومازالوا يطلقون النيران بعد مقتل عشرة من رجال الطائرة الثانية التي هوت وانفجرت في الحال، أصبحت المنطقة شعة من النيران والجثث المتفحمة وطلقات الرصاص التي تدوى في كل مكان، شعرت بأن أصوات طلقات الرصاص بدأ يقل سماعها إلي أن انتهت تماماً ومازلت أشاهد جنود الأعداء يتحركون يميناً ويساراً دون فتح نيران أسلحتهم، كانت المفاجأة المباغطة هي سماع أصوات الرشاشات من الاتجاه العكسي؛ حيث قام رجال الجيش الثلاثة بفتح نيران الرشاشات التي استطاعوا الاستيلاء عليها بعد مقتل الحارس والطيار نبأ وظلوا صامتين إلي أن تأكد لهم أن الأعداء استهلكوا ذخائرهم، كان المنظر مرعباً وفي نفس الوقت يسعد أي إنسان حين يشاهد عملية القتل وحين يشاهد الأعداء الذين اقتحموا أرضه جثثاً هامدة.

أثناء هذا سمعنا أصوات طائرات مقاتلة قامت بالدوران حول المنطقة بارتفاع منخفض ثم استخدمت الرشاشات والصواريخ وانقلب حال المنطقة مرة ثانية، ظل هذا لأكثر من نصف ساعة حضر خلال هذا ثلاث طائرات هليكوبتر وتحت حماية من الطائرات القاذفة هبط بعض رجال الكوماندز الأعداء، شاهدتهم يحملون الجرحى والقتلى، أما عن رجال الطائرة الثانية التي هبطت محترقة فقد أحضروا أكياساً كبيرة الحجم لوضع الأجساد

المتفحمة بكل كيس، بعد أن إنتهوا من مهمتهم طارت الطائرات الهليكوبتر بينما ظلت الطائرات القاذفة التي ألقت بقنابل شديدة الانفجار بالمنطقة ولم يتركوا أى مكان إلا وقنفوه بالنيران.

بعد مضي عدة ساعات هدأت المنطقة ولم يتبق سوى الأدخنة وبقايا الطائرتين الهليكوبتر المحطمتين، عدنا إلى الكهوف اتباعا لنصيحة الشيخ عرفان، كانت الحالة واضحة علي رجال الصاعقة الثلاثة من الإصابات والدماء التي غطت أجسادهم؛ أسرعنا مالدلين وبعض السيدات بالعناية بالرجال وفحص وعلاج الجروح، تبين أن بعض طلقات رصاص اخترقت الأجساد ونفذت من الجانب الآخر ورغم هذا كان باديا علي الرجال الثلاثة السعادة لما قاموا به وللتناج التي حدثت، شرح الرجال الثلاثة ما قاموا به حيث قال منصور:

. اسمع يا عم جبر، لما رحنا لمكان اللي نزلت فيه الطيارات قبل كده لقينا أنهم بيعملوا مبني صغير تحت الرمل ويحطوا فيه شيء به أسلاك، معرفشني ليه لكن ده معناه أن فيه حاجه ضد مصر .. ضدنا، كان التفكير إننا ندمر الطيارتين، إزاي وإحنا مش معانا حاجه، سبق إننا تدرنا علي عمليات الإغارة والكمائن ولكن ده يتم بالليل وإحنا في وضح النهار، كان أهم شيء نعمله إننا نستغل طبيعة الأرض الصخرية والانخفاضات والارتفاعات حتي نحتمي بالأرض ونقترب قدر الإمكان من الطائرة الأولى، بالفعل وصلنا لها وأعتقد أن من كان قائماً علي حراستها لم يكن يتوقع أن يهاجمه أحد؛ حيث كان واقفاً مستنداً علي جسم الطائرة يدخلن سيجارة ويتغني ببعض أغاني أجنبية.

فوجئ الجندي الإسرائيلي برمضان يضع السكين في قلبه واليد الأخرى علي

فمه، لم يستطع التنفس أو حتي إصدار صوت الألم؛ سقط أرضاً جثة هامدة نظراً لأن الساكنين الموجودة هنا قديمة وسيئة وحجمها كبير، علي الجانب الآخر كان طيار هذه الطائرة قد توجه لزميله الطيار بداخل الطائرة الثانية يتحدثان ولم يسمعا أو يشعرا بما حدث لجندي الحراسة علي الطائرة الأولى في الحال هاجمناهم وسقط الطياران الاثنان وحصلنا علي أسلحة القتلي الثلاثة وبعض رشاشات موجودة بالطائرتين لزوم المقاومة.

كنا قد شاهدنا خلال الأيام السابقة "وير" سلك سميك من الصلب تركته شركة حفر الآبار نظراً لقدمه وبروز بعض شعيرات منه والسلك كان مثبتاً بقاعدة خرسانية أعدتها الشركة لإتمام عملية حفر البئر التي لم تتم، وضعنا خطافاً بنهاية السلك وثبتناه بالعمود العرضي الواصل بين العجلتين الخلفيتين للطائرة الثانية ، أنا وزملائي نعلم أن الطائرة لو طارت والسلك معلق بها لا يمكنها التحليق لأكثر من مائة متر وسوف تسقط دفعة واحدة حينما ينكسر العمود العرضي الواصل بين العجلتين الخلفيتين وبالتالي سوف يتوقف موتور الطائرة ولا تدور المروحة فتسقط من هذا الارتفاع تحت ثقل وزنها، كنا نعمل هذا ونجربه ونحن غير متأكدين من نجاحه، أما الطائرة الأولى فقد وضعنا الكثير من سعف النخيل بأسفلها وغمرنا السعف الجاف ببقايا القطران والمواد الكيماوية التي ألقتها السفن وفردنا خط من سعف النخيل لمسافة مائتي متر إلى المخبأ الذي نختبئ به بعد أن نثرنا عليه القطران والمواد الكيماوية وحين البدء سوف نشعل سعف النخيل فتصل النار إلي العشب أسفل الطائرة فتحترق أو تمنع إقلاعها، هذا بديل عن فتيل الاشتعال الذي نستخدمه في التدريبات.

كانت المفاجأة أن الطائرة الثانية أقلعت قبل الأولى عكس توقعنا

حيث كان نتوقع أن تطير الطائرة الأولى أولاً لكن هذا لم يحدث وطارت الثانية وحدث الاشتباك مع رجال الطائرة الأولى، أعتقد أن الطائرة الثانية حين شاهدت الاشتباك أبلغت قيادتها فأسرعت الطائرات القاذفة بالمجيء، أثناء ارتفاع الطائرة الثانية لأعلي وجدت مقاومة قوية من الوير الصلب المثبت بالقاعدة الخرسانية بالأرض ولهذا كسر العمود الأفقي الواصل بين العجلتين والذي جذب بعض أجزاء من جسم الطائرة التي هوت بسرعة للأرض مما أدى إلى سقوطها واشتعال النيران بها ولسعف النخيل الواصل بين مكان الاختباء والطائرة الأولى والذي عجل من عملية تدميرها وبالتالي وفر علينا إشعال السعف الذي كان من المحتمل أن تفسد عملية الاشتعال نظراً لشدة الرياح التي ساعدت علي نقل نيران الطائرة الثانية للأولي.

\*\*\*

كنا نسمع حديث الرجال الثلاثة ونحن بصدد حالة من اللا معقول ونردد سبحان الله، حزننا رجال الجيش من مغادرة الكهف لأن من المجتمعل حضور رجال الكوماندز للانتقام ومن أجل هذا فليبق كل منا بمكانه حتي لا يعثروا علي أي كهف وبالتالي يعتقدوا بأن وحدة عسكرية مصرية كانت بانتظارهم.

مضت ثلاثة أيام علي تلك المعركة التي حدثت بين رجال الصاعقة المصرية غير المزودين بالسلاح وبين الكوماندز الإسرائيلي، لم نعلم مقدار خسائر العدو لكن من المؤكد أن هناك ثلاثة قتلي بالسلاح الأبيض في بداية المعركة، بغلاضافة إلى الطائرة التي هوت من علي ارتفاع وكان على متنها عشرة من الجنود، فلو قتل النصف وأصيب النصف الآخر لوصل عدد قتلاهم

إلى ثمانية بالإضافة لأكثر من خمسة مصابين وتدمير الطائرتين تماماً، مازالت هياكل الطائرات الحديدية شاهداً على هذا العمل البطولي.

أثناء الليل كنت أشعر بسعادة وفخر بأن أبناء مصر مقاتلون أشداء ورغم أن هؤلاء الثلاثة من الخارجين على القانون العسكري إلا أنهم وقت الجهاد لم يركنوا أو يتخاذلوا بل فكروا وخططوا ونفذوا عملية جريئة لو علمت بها القيادة العسكرية لمنحتهم أكبر الأوسمة والنياشين العسكرية، انتابني الحزن لأنني تعديت مرحلة الشباب ولم أعد قادراً على القتال أو التصويب ومقاومة الأعداء صمت قليلاً أفكر وأسترجع سير الصحابة الأجلاء الذين تجاوزت أعمار بعضهم الستين عاماً وظلوا يقاتلون ولم يقعدوا مع القاعدين متعللين بأنهم عجزة ومن كبار السن بعد أن مضت فترة الشباب وأصبحوا شيوخاً غير قادرين على الكفاح، شعرت بضآلة نفسي وخزي بداخلي ثم عادت إليّ الهمة مرة ثانية متذكراً ما قمت به منذ أكثر من ستة أشهر وتلك المغامرة البحرية التي قمت بها من أجل إنقاذ السيدة وطفلها ولو لم تواتيني الشجاعة لما قمت بهذا العمل إذأ فأنا رجل لا أهاب الموت وأفدى وطني بروحي مثلما فديت السيدة وطفلها بروحي وما بالي والوطن أعز وأغلي وأرفع منزلة من الأفراد.

صباح اليوم التالي نهض الجميع على أصوات طائرات وانفجارات وهلع بين الناس ومن نعمة الله أنني ومادلين وشادي كنا نقيم بداخل الكهوف مع القبيلة، أسرع رجال الجيش لأسلحتهم التي تم الاستيلاء عليها من القوات الإسرائيلية رغم إصابتهم كما لم تتدخل جراحيهم بعد إلا أنهم خرجوا خارج الكهف كي يتصدوا لجنود الأعداء إذا ما تقدموا صوب الكهوف وفي تلك الحالة سوف تصبح خمائر البشر بين أفراد القبيلة مرتفعة للغاية

شاهدت مادلين قادمة تتسائل بلهفة عن شادى، وقفت صامتاً فقد كان الطفل ينام بجوارها ثم نهضنا وتناولنا الطعام وأعتقد أنه عاد إليها مرة أخرى ولكن إحدى الفتيات الصغيرات رددت : شادى هناك .. مع الغنم .. رددتها أكثر من مرة.

كادت مادلين أن تسقط أرضاً من فرط الخوف علي صغيرها، فالطفل بالخارج يلهو مع الماعز ومعركة حربية نسمع انفجاراتها، ونشعر بأن الأرض تتحرك من تحت أرجلنا من شدة الانفجارات، ماذا أفعل يا ربي؟ لو خرجت خارج الكهف سوف أصاب ومن المحتمل أن ألقى مصرعي ويحرم مني أبنائي وبناتي الذين هم في احتياج لعونى، وإذا ظللت قابلاً بالداخل بجوار النساء والعجزة سوف يقتل الطفل وسوف أحتقر نفسي، ضربت بأصابع يدي اليمنى علي قورتي وأنا أردد: إمبراح بس كنت بأفكر في الحكاية دية، ياه .. لن أظل ساكناً ومما زاد من اندفاعي وشجاعي هو نداء رجال الجيش بالخارج للشيخ عرفان بأن يرسل الشباب الذين قاموا علي تدريبهم خلال الأيام السابقة علي القتال واستخدام الرشاش الإسرائيلي والذي نكروا اسمه أكثر من مرة حتي حفظته "عوزي"، أسرعت ألحق بالرجال ونداء مادلين لي:

. رايح فين يا بابا، نظرت إليها متردداً:

. سوف أبحث عن شادى، بكت ولطمت خديها وتردد:

. سوف أفقدك كما فقدت شادى.

غادرت الكهف وبالخارج كانت الصورة أوضح، فالدخان الأسود يعم

المكان وانفجارات وأضواء اللهب تتصاعد من هنا ومن هناك وأصوات طلقات المدافع الرمشاشة تسمع طرقعتها في الهواء ولا نعلم من أين يأتي إطلاق النار لم أنتظر لأستوضح رغم أن أحد جنود الجيش دفعني قليلا مرددا:

خليك جوه يا عم جبر، متقدرشى علي المواجهة معاهم، خرينا إحنأ فداء القبيلة نظرت إليه وكادت الدموع تقارق عيني وشعرت بأن بغمي وفكي أسناني رعشة ورغبة بالبكاء لما شعرت به من إهانة، لقد أصبحت يا جبر خرقة بالية لا يرغب أحد بك ولا منفعة لك، إلي هذا الحد وصل الحال بي؟ تركني الجندي تنفيذاً لنداء زميله فأسرعت مغادراً باحة الكهف متجهاً إلي الخيمة القديمة التي كنت أحيأ بها مع مادلين والطفل، نظرت بداخلها فلم أشاهد الطفل، توجهت لأشجار المانجروف فلم أشاهده بجوارها، خطر في بالي خاطر:

ألا يعتقد بأنه مع الماعز والغزلان بالوادي بالأسفل، أسرعت إلي عين المياه ونظرت من أعلى فشاهدت القطيع ولم أشاهد الطفل، تحيرت بعد أن غادرت الكهف، ماذا فعل الطفل؟ وأين هو الآن؟ أثناء تفكيري هذا شعرت بخيال مرتفع قادم من خلفي وحين النظر إليه اكتشفت أنه لطائرة هليكوبتر للعدو قائمة في اتجاهي؛ لم أتمالك نفسي وفقدت اتزانتي وتدرجت علي المنزل الذي تستخدمه الماعز في الصعود والهبوط لكن الرصاصات الغاشمة كانت من حولي والغبار الناتج منها يعمي النظر، شعرت بأن دماء حارة تتبثق من ساقبي اليمني ومازلت أتحرج حتي توقف جسدي، خلال هذا كنت أشاهد السماء ثم الأرض فالسماة فالأرض.

لم أشعر إلا وبعض الأشياء تحيط بي لم أتبينها لحالة الإغماء التي لبستني

وطغنت علي مشاعري لكني سمعت أصواتها التي لا تخطئها الأذن، لقد كانت أصوات الماعز والغزلان وشعرت أنني أتجه لغيوبية، بعد قليل تنبّهت وأقفت وأنا علي هذا الحال حينما سمعت الكلمات الرقيقة بصوت شادي " عامة تبر .. عامة تبر " عم جبر .. عم جبر .. شعرت بأن علي وجهي ابتسامة عريضة ورحت في غيبوبة لا أعلم مداها وأعتقد أنها دقائق؛ حيث مازالت أصوات الانفجارات تملأ المكان والأدخنة الكثيفة حجبت ضوء الشمس عن المنطقة التي أنا أحيأ بها.

لقد تبين لي أنني ملقي أرضاً بين أقدام الماعز وسمعت بأذني اثنين من الجنود الإسرائيليين المترجلين يتحدثان قريباً مني وأحدهم يؤكد أنه شاهد الجندي الذي يرتدي البدلة السوداء وأسرع بالهبوط للوادي فيجيبه الآخر:

- إننا ببطن الوادي ولم نره، هيا بنا نعود لزملائنا حتي ننتهي من تلك المعركة البائسة السيئة، يجب زميله بضيق:

. معركة مع مجرمين قتلوا وأصابوا زملاء لنا تصبح معركة بائسة؟ يجب:

. نعم بنيامين، معركة بائسة بأن نترك الجيش المصري ونهاجم عامة الشعب في السويس والإسماعيلية وتلك المنطقة، القتال مع الجيوش وليس مع الأطفال والشيوخ.

غادر الجنديان المكان دون مشاهدتي، تبين لي أن الله أوعز للماعز أن تقف علي جسدي وتضعني بين أرجلها الأمامية والخلفية بحيث كانت شبه مصطفة وأنا ممدد في الفاصل بين ١٤٦ الأقدام الأربعة وينام علي صدري

شادى سليم حياً معافى، بعد ساعة من هذا الإعجاز الإلهي صممت أصوات الانفجارات ولم أعد أسمع أصوات الطائرات وتفرقت الماعز بعيدا عني كي تقمح لي المكان كي أحصل علي هواء نقي، جلس شادى بجاني ومازلت ممدداً وسمعت صوته ينادى علي "عامة تبر" كنت أسمع وأشاهد قليلاً ثم شاهدته قد انهمك في رضاعة الماعز الأم، تحيرت رغم ظروفى تلك، فالطفل أنهى الرضاعة منذ شهر فماذا حدث له وتبين لي أنه يقلد أبناء الماعز الذين هم في مرحلة الرضاعة، شاهدت قطيع الماعز تتحرك بسرعة وشادى في أثرهم وتركوني بهذا المكان وحيداً غير قادر علي حماية نفسي أو التحرك رغم محاولاتي نون جدوى، كل ما استطعت القيام به هو الجلوس وقمماى ممددتان للأمام والدماء تغطي البدلة الميري.

لم يمض من الوقت فترة طويلة وأعتقد أنها أقل من ساعة زمن، وقد استعدت شمس هذا اليوم الحارق بنيران الأعداء وغلهم علي الرحيل، بعد قليل شاهدت جمعاً من الرجال قادمين بصحبة الشيخ عرفان، رحبوا بي وبنجاتي ويطولتي وحملوني وعادوا بي إلي الكهف، هناك شاهدت الرجال الثلاثة وفردين آخرين من رجال القبيلة وهم في حالة من السكون وعلمت فيما بعد أنهم في حالة إغماء من أثر العلاج بالكي بالنار، هذا ما قرره الشيخ عرفان وأبو جعفر كبير المداوين بالقبيلة، شاهدت سكيناً عريضاً تم وضعه بالنار واحمر لون سلاحه، أقبلوا علي الجرح وجففوا الدماء من حوله، وضع أبو جعفر السكين فصرخت ولم أعي أى شيء بعد تلك الصرخة.

تنبهت علي صوت مادلين الذي أحفظه عن ظهر قلب، سبعة أشهر صعبة قضيناها معاً نقتسم خلالها الأحداث والأنواء يجمعنا هدف وشيء واحد

هو حب وحماية شادى، كما تجمعنا أمنية واحدة وهي العودة إلى بلدها  
محافظة المنيا، سمعتها تتحدث وترتبت علي كتفي:

. بابا .. قوم .. ورينا يشيل عنك الألم ، أنا كنت باصرخ إمبراح وهما بيعالجوك  
عمرى ما شفت النموع بعيونك، أو سمعت منك صرخة ألم، كنت بتعيط، كنت  
دائماً تتحمل كل المصاعب، كنت مثل أحد تماثيل الفراعنة والذى نشاهده علي  
حال واحد ولكنك تحمل قلب نبي وتسير علي خطى المصلحين، مبتردش ليه؟  
لمه تعبان؟

. أبدا .. بأسمع كلامك الحلو، فين شادى عشان أبوس إيده؟

. أنا اللي لازم أبوس إيدك

. لا يا بنتي متعلميش كده أستغفر الله

. بابا ، أنت شجاع وخرجت تدور علي ابني وكانت مخاطرة كبيرة علي حياتك  
صحيح مكنتش مقدره إيه اللي بيحصل بره لكن اعذرني حبي لابني فوق كل  
اعتبار وأنت أب ومجرب، كنت عايزه اى حاجه تظمني عليه لحد ما لقيت  
شادى والمعيز جايه تعمل صوت بره ويتمأماً وشادى يردد ويشير بيده للخلف  
"عامه تبر .. عامه تبر" .. تتبه الشيخ عرفان وقال إن هناك شيئاً حدث  
فالماعز الجبلي لا تتصرف بمثل هذا التصرف إلا بسبب حدوث شيء فوق  
طاقته ثم تساعل عما يقوله شادى فأخبرته أنه يقول عم جبر ، أسرع الشيخ  
عرفان بطلب رجاله وأسرعنا جميعاً خلف بعض المعيز ويصحبة شادى أيضاً  
عثرنا عليك وأنت تجلس فارداً ساقيك وتنتظر للأمام وشعرنا لحظتها أنك

ملك تلك المنطقة ورغم حالتك الصحية المتدهورة من الجروح والإصابات إلا أن الرجال هللوا حينما شاهدوك وحملوك وأتيت لهذا المكان وقام عرفان بعلاجك خشية تلوث الجرح وحدث غرغرينا تؤدي لبتير الساق بابا .. بابا .. أنت نمت؟ .. نوم العوافي وربنا ينجيك عشان خاطر ولادك.

ظللت شبه مستلق قرابة أسبوع استطعت بعدها أن أقوم وأسير متكئاً علي عصا بصحبة رجال الجيش الذين كانت حالتهم مثل حالي، جلسنا نتندر ونتذكر معركة الأيام السابقة ونحن في دهشة من أن نقوم بمعركة بمثل تلك أستكمل الرجال رواية ما حدث خلال المعركة الأخيرة ، لقد هبط بعض رجال الكوماندز راغبين بأمر البعض وقتل آخرين لكنهم لم يشاهدوا سوانا واثنين آخرين وحدث تبادل لإطلاق الرصاص، كنا قد قررنا قبلها أن نقتصد في الذخيرة لأنها ناضبة وليس معنا ذخائر احتياطية، وهذا النوع من الذخائر غير مصنع بمصر أو مستخدم بها.

ظللت المعركة ساعتين تبادلنا خلالها الاشتباكات وتأكد لنا أن هناك ثلاث إصابات مؤكدة وإصابتين غير مؤكدة ، ومن أجل هذا قرر العدو ترك المكان اعتقاداً منه بأنه متخم بالقوات وسوف يخسر المزيد ومن المحتمل أنه اعتقد أن هذا المكان لا يسبب له أية فائدة تذكر ومن أجل هذا غادروا المنطقة والحمد لله علي النصر المبين.



## تطور الحياة

مضي علينا أكثر من أربعة أسابيع منذ المعركة غير المتوقعة مع الأعداء كنا نعتقد أن كل يوم سوف يهاجمونا، لكن تبين لنا أنهم يفرون من المناطق التي نقاوم وتعاقد، أنهم مثل الضباع التي تهاجم الحيوانات الضعيفة ولا تقوى علي مهاجمة حيوان قوى لأنه سوف يفتك بها، هذا ما توقعه وأيده رجال الجيش الثلاثة، رغبت مادلين في العودة للحياة بمخيمها بعيداً عن الكهوف التي تغشاها الظلمة بالإضافة إلي سوء التهوية ولا تدخلها أشعة الشمس، لقد تأكد لها خلال فترة معيشتنا بتلك الكهوف أنها المتمسبب الأول في انتشار بعض الأمراض الجلدية والفطريات وكانت ترغب بأن تستقل مع ابنها بالمبيت بالخيمة لأنها تحيا معي في نفس الكهف.

أبدت هذا صراحة وطلبت رأبي فيما ترغب فعله، أخبرتها بأن الجميع يعلم أنك ابنتي وكى أذفع بالشيخ عرفان أن يخصص لك كهفاً مستقلاً مع ابنك فلا بد أن أخبره بالحقيقة بأنك لست ابنتي؛ رفضت مادلين هذا بشدة مرعدة: أحمل العيش معك بكهف واحد فأنت أبي لكن أن تتخلي عني أمام هؤلاء فهذا الأمر في منتهى القسوة، وسوف يضر بي ضرراً بليغاً، توصلت معها لحل أمثل بأن انقل خيمتها في المنطقة المواجهة للكهوف فتصبح في حماية القبيلة وأيضا تحصل علي راحتها.

اليوم التالي تم لها ما أرادت وأصبحت أبيت مع رجال الجيش الذين أمتعوني بنوادهم وحكاياتهم الطريفة وبعض القصص الممثلة، أحد الأيام وأثناء جلوسنا

قريباً من بعض الأخشاب المشتعلة أمام باب الكهف الرئيسي تساءلت مادلين:

شيخ عرفان، لماذا لم نعلم بتعليم أفراد القبيلة اللغة العربية؟ لقد تعلمتها بالقاهرة ولم نعلم أنت بتعليم أهلك وعشيرتك، صمت الرجل قليلاً وكأنه لم يعثر علي الإجابة، تحدثت مادلين مقررة أن نبدأ بتعليم الجميع اللغة العربية، تهلل وجه عرفان ومن أجل هذا طلبت إنشاء مبني خارج الكهف علي هيئة حجرة كبيرة الحجم تشبه الفصل الدراسي، وافق عرفان وتساءل كيف سيتم إنشاء هذا المبني؟ أشارات للجنود الثلاثة بأن يقبلوا فأسرعوا بالحضور وبدأ عليهم الشعور بالسعادة التي كانت واضحة المعالم علي الوجوه حين سماعهم للفكرة التي خرجت علي لسان مادلين، أحدهم تساءل: نعم سييتي: أجابته من منكم النجار؟ أشار منصور بيده دليلاً علي أنه المقصود ثم تساءلت من فيكم البناء؟ فأشار يعقوب بيده فقالت مادلين، نحن نرغب بإقامة وتشبيد فصل دراسي، ما المطلوب لهذا الغرض؟

تحدث الرجال وأسهبوا في الحديث عن المواد المتوفرة بالمنطقة والتي يمكن أن نقوم بإعدادها لتجهيز قوالب من الطوب من خليط من مادة الرمل والطفلة ويضاف إلي الخليط بعض عشب وسعف النخيل بأحجام صغيرة بديلاً عن التبن الذي يدخل في مكونات قالب الطوب بالوادي، كم نحتاج إلي أخشاب ومنشار ومسامير وبروة للمحارة، نظرت مادلين للشيخ عرفان الذي أفاد بأن تلك الأشياء غير موجودة هنا لكن من الممكن أن نوفرها بعد الزيارة التي سيقوم بها رجال القبيلة إلي سوق شلاتين القريب منا وخلال تلك الزيارة بيتاعون تلك الأشياء ويعودون بها، أشار رمضان الترنزي بيده طالبا توفير مقص وإبر وبكر خياطة ولو ماكينة خياطة يدوي مستعملة حتي يمكن له ولزملاء

إعداد ملابس مناسبة ومخالفة لملابس السجن والتي تشعرهم بأنهم مازالوا بالحبس.

أيدت مادلين هذا وتساءلت هل من الممكن توفير أموال لشراء أقمشة كي يتمكن الخياط من إعداد ملابس للرجال والنساء، ابتسم الشيخ عرفان موضحاً بأن كل ما تريدينه يمكن توفيره، فسوف نزيد عدد رعوس القطيع المباعه اثنتين لزوم تلك الأشياء، هكذا تقرر بأن يقوم رجال عرفان بشراء منشار لقطع الأخشاب وقنوم ومسامير ذات أطوال ويرة لزوم المحارة وماكينة خياطة يدوي ومقاس متر "مازورة" وخيط وإبر وبكر وعدد إثنان توب قماش نسائي وثلاثة أبواب دمور ومقص وزراير وبعض أشياء تخص الخياطة، من أجل هذا تقرر السفر إلي منطقة حلايب القريبة من حدود مصر مع السودان والتي تتوافر بها كل تلك الأشياء والمطلوب شراؤها كما طلب من رجاله التقصي عن أي أخبار للمشكلات المستمرة بين العباددة والبشارية حتي يتمكن الحاج جبر وابنته وحفيده من العودة لمحافظة المنيا.

مازلنا في انتظار عودة رجال قافلة التمسوق التي غادرت القبيلة منذ أسبوع، هذا هو موعد وصولهم، عصراً وصل الرجال الأربعة واستقبلهم الأهل بكل حفاوة، بعد أن قاموا بتتخيخ الجمل "أي تبريك الجمل" أنزلوا مشتريات القبيلة من السكر والطحين وحبوب "لوبيا فاصوليا وفول وكل ما يلزم الطهي" من فوق الجمال ثم أتبعوها بطلبات الرجال الثلاثة ولم ينس الرجال إحضار أي شيء طلب منهم، فقد أحضروا كل الأغراض ولهذا وققت النساء يتفحصن ماكينة الخياطة ومستلزماتها، كما أخبروا الشيخ عرفان بأن الطرق غير آمنة

بالمناطق التي تعيش بها قبائل العبادة.

حينما سمعت هذا نظر إلينا الشيخ عرفان مقدماً اعتذاره بأنهم سعداء بأن نقضي معهم فترة أخرى، لم تعلق مادلين ونظرت إليّ والحزن كامن بوجهها ودموعها تكاد تغادر عينيها الخضراوين.

صباح اليوم التالي شمر الرجال عن سواعدهم وكل واحد منهم حدد له الشيخ عرفان عدداً من المساعدين يقدمون له العون ويحصلون علي الخبرة المطلوبة، أعد النجار عدداً من القوالب الخشبية كي توضع بها الخلطة وبدأ مع رجاله في تجميع الخلطة المكونة من الطفلة والرمل والتي أضيف إليها سعف النخيل الجاف المهروس الذي ظل رجال القبيلة يقومون بهرسه قبل أن يتحرك وفد القبيلة للتسوق أي منذ عشرة أيام، أعدت الخلطة وقام يعقوب وعرفان بتدريب الرجال علي صب قوالب الطوب ونزع البرواز الخشبي بعناية كي يظل القالب في حالة سليمة حين يجف، كنت أجلس مع الشيخ عرفان وأشاهد أكثر من عشرين رجلاً يعملون بهمة ونشاط بينما قام منصور النجار وبصحبه بعض الرجال بالبحث عن أشجار نخيل مدمرة أو التي ماتت كي يستغل سيقانها كتعريشة، كما توجه البعض منهم إلي ساحل البحر ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وقاموا بجلبها وتخزينها، كل هذا كان بأوامر مباشرة من الشيخ عرفان.

بعد مضي أكثر من شهر تبين لنا أن الرجال قد انتهوا من صب آلاف من قوالب الطوب كما استطاعوا تجميع العديد من جذوع النخيل وسيقانها وكميات كبيرة من السعف بالإضافة إلي ما حصلوا عليه من نفايات السفن من بلاستيك

وقوارير وقطع خشبية بأحجام مختلفة، قامت مادلين بالتخطيط لإقامة أول منشأة تعليمية بالمنطقة عاونها في ذلك كل من منصور النجار ويعقوب عامل البناء، تم التخطيط لحدود المبني المراد إنشاؤه بحيث تكون الشبائيك من إتجاه الشمال للتهوية، صباح اليوم التالي تم رفع القواعد وكان البناء يتم علي قدم وساق؛ كان الرجال شديدي الوله بمشاهدة هذا المبني الذي يشابه أبنية القرى بمناطق دراو وأسوان والنوية وشلاتين وحلايب، كما استقل يعقوب أحد حبال المظلة التي تغطي خيمة مادلين كحبل كي يقوم علي ضبط المسطور أثناء البناء وأيضا أعد ميزان ميه كي يستخدمه أثناء البناء حتي تظل المسطور موازية للأرض فلا يختل البناء.

نهاية الشهر أى بعد أربعة أسابيع انتهى البناعون من تشييد المبني المنشأ علي هيئة مستطيل بطول عشرة أمتار وعرض أربعة أمتار وارتفاع ثلاثة أمتار كان النجار خلال تلك الفترة قد أعد أسقفاً لهذا المبني والشبائيك التي حدد أبعادها ليعقوب البناء، شرع يعقوب في إنشاء المبني التالي وكان عبارة عن مبني مشابه للمبني الأول لكنه مقسم إلي قسمين، القسم الأول أعد كعيادة وصيدلية أما الجزء الثاني فكان محلاً للترزى، انتهى تشييد هذا المبني في أقل من شهر، ظهر واضحاً أن رجال القبيلة قد اكتسبوا الخبرات ومازلت مادلين تعد العدة وذلك بأن أعدت شيئاً مشابهاً للعبورة وطلبت من الشيخ عرفان تحديد مجموعات تلقي الدروس التي سوف يتولي تدريسها لأهل القبيلة، بينما انهمكت في العيادة والصيدلية وملاحظة رمضان الخياط الذي شعر بسعادة غامرة بأن يعود لمزاولة مهام مهنته التي انقطع عنها منذ أكثر من عامين بسبب تجنيده بالجيش.

أعد المبني الثالث والذي تبين لنا أنه خصص لإقامة مادلين وطفلها وحجرة جانبية خصصتها لي، تلي هذا إعداد مبني كبير مشابه للفصل للقاء العائلات كي يجلسون ويتحدثون ويعملون معاً سواء في غزل أصواف الإبل أو إعداد العجوة من بلح النخيل أو إعداد الجبنة من فائض البان الماعز والغزلان، كل هذا انضم لنشاط السيدات واللاشي أقبلن علي رمضان الخياط نظراً لأنهن يعانين من سوء إعداد الملابس أو حياكتها بالإبرة يدويا، هذا ما دفع مادلين لتقديم يد المساعدة في إعداد موديلات للجلباب التي سوف ترتديه نساء القبيلة كما تكالب الرجال من أجل إصلاح ملابسهم ومن أجل هذا قرر شيخ القبيلة أن يقوم الرجال بارتداء الجلباب سواء بالصيف أو الشتاء والتخلي عن الإقتداء بما كان الأجداد الفراعين يتبعونه من العرى خلال فترة الصيف، إستطاعت مادلين بمعاونة كل من الشيخ عرفان ورجال الجيش الثلاثة أن يقوموا علي تدريب العديد من نساء ورجال القبيلة علي بعض المهن الإضافية سواء حياكة الملابس أو صب قوالب الطوب أو البناء أو الضمارة "المحارة" التي كانت تجعل الحوائط شبه مستقيمة وملساء.

أصبح الشيخ عرفان هو المدرس والناظر وواضع برامج التدريب وأصبحت هناك حركة بين الجنسين لمحاولة التعلم، انعكس هذا علي البعض، فقد خرجت من أفواههم كلمات بعد فترة من التعلم مثل " صباح الخير / أنا مصري / نحن أبناء البشارية / الشيخ عرفان / مادلين / شادى / عم جبر / ..... " وخلافه كما بدا البعض في تجويد وتلاوة آيات من الذكر الحكيم أثناء حصص التلاوة كنت أستعيد نكري الشهور الأولي حينما وصلنا إلي تلك المنطقة بعد حادثة تدمير العوامة؛ فقد كنا نعيش بمعزل عن العالم ولا نعلم نهاية تلك الرحلة، لقد منّ الله علي هؤلاء الناس بتلك ١٥٦ الأفكار التي نبتت في عقل وفكر

مادلين، لقد أكد لي هذا العمل بأن التعليم أهم شيء بالوجود ومن أجل هذا بدأ نزول الوحي علي سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم بصورة اقرأ حيث كان الإسلام هاديا للعالم.

كانت مادلين تتحرك وتتجول بكل مكان؛ كنت أشاهدها تمسك بيد فتاة بعد أن تكشفت حالتها المرضية، لم تكن تستكين وتمسريح، ظلت علي حالها ويدا لها الاستعانة ببعض الأدوية وبالأخص الأدوية الخاصة بأمراض النساء ومضاعفات ما بعد الإنجاب التي أودت بحياة الكثير من نساء القبيلة، لقد كانت حمي النفاس تحصد في النساء ولا يعلمن سبب هذا وما العلاج الأمثل كل تلك الأمور أوضحتها لهم مادلين كما ظلت النساء الثلاث المعاونات يقتنين أثرها لمحاولة فهم ما تقوم به من أعمال وعلاج وكيفية التشخيص ونوع العلاج المطلوب؛ فقد أقتنعن بأنها تحيا هنا لفترة وسوف تعود لمحافظة المنيا لاستكمال حياتها الطبيعية كما دربتهم علي كيفية الحقن بالوريد والعضل انعمت حصص الشيخ عرفان بفائدة كبيرة علي أفراد القبيلة؛ لقد أصبحت النساء يتفهمن نصائح مادلين بسهولة أكثر من السابق.

مضي عام علي نشاط مادلين ویدانا نسمع بعض كلمات عربية أثناء النقاش والحوار كما تضاعلت بدرجة ملفتة للنظر أمراض الجلد مثل القراع والقوب والتعلبة بالإضافة إلي التحمس الواضح في ملابس الرجال وسترتهم بعد حالة العرى التي ظلوا عليها لعقود طويلة؛ كان الشيخ عرفان يردد بأنهم يعلمون أن أجدادهم كانوا علي هذا الحال، تم توزيع الرجال علي الأنشطة المختلفة ولم يعد الرجال مختبؤن بداخل المغارة لا يبرحونها إلا وقت جمع محصول البلح أو التوجه لمسوق المواشي بمنطقة دراو<sup>١٥٧</sup> أو أسوان أو شلاتين وحلايب، شعر

الشيخ عرفان أنه يؤدي مهمة قومية يجب أن يستمر عليها، وبدا التحسن الواضح في اللهجة والأسلوب ومن أجل هذا منع الشيخ عرفان التحدث باللهجة القديمة محدداً عقوبة لكل من يخالف هذا الأمر .

بداية العام التالي شعر الناس بأن رجال الجيش أصبحوا منهم وأنهم ليمسوا بغرياء خاصة بعد البطولة التي شاهدها والتي قاموا بها العام الماضي بالإضافة إلى الخدمات التي قدموها للقبيلة سواء في البناء أو صناعة الأخشاب والأبواب والأسقف بالإضافة إلى الخياط الذي أصبح محل عمله يشغى بالنشاط، خلال تلك الفترة حدث تبادل للعواطف بين الرجال الثلاثة وبعض فتيات القبيلة، أخبرني الرجال بهذا الأمر فطلبت منهم التريث والحذر حتى أخبر زعيم القبيلة.

بجلسة هادئة بعيداً عن أعين الجميع أخبرت الشيخ عرفان بمشاعر الرجال نحو الفتيات الثلاث، قال قولته المأثورة " ها نحن نمير علي سنة رسولنا الكريم بعد الهجرة من مكة إلي المدينة" ومن أجل هذا تمت خطبة الرجال الثلاثة علي الفتيات الثلاثة من بنات القبيلة، عم الفرح والسعادة ومن أجل هذا قرر الرجال الثلاثة أن يقوموا بإنشاء منزل مصغر لكل فرد منهم، هكذا بدأ تطور آخر في القبيلة بأن ينتقل الناس من الحياة بداخل الكهف إلي منزل مفتوح متمتع تغزوه أشعة الشمس والهواء المتجدد.

سارت بنا الأمور سيراً حسناً وأصبحنا نحيا مثل هؤلاء القوم الطيبين وهم بالأحرى شعروا أن وجودنا كان له فائدة كبيرة علي حياتهم، انصرم عام ١٩٦٨ وأصبحنا في الثلث الأخير من عام ١٩٦٩ حيث أخبرني الشيخ عرفان إذا

رغبت بأن تعود إلي قريتك بالمنيا فهذا ممكن؛ وسوف يتحرك ركب من القبيلة إلي منطقة دراو جنوب أسوان لتبادل السلع والماعز؛ الطريق طويل وشاق لكن ليس أمامك طريق آخر، أمامك ثلاثة أسابيع كي تعد نفسك وأسرتك لهذا الأمر رغم أننا جميعاً نرغب ببقائكم معنا فإن وجودكم معنا عاد علينا بالخير والمنفعة وأن نساء القبيلة أسعدهم وجود ابنتك الطيبة، فقد لاحظن تحسناً مطرداً في الحالة الصحية للأبناء والبنات بل أن جميع حالات الإرتجاف تمت بيسر وسهولة ولم يصاحبها أى مضاعفات من الحمى التي كانت تصيب الأمهات وتؤدي بهن إلي الوفاة.

قدمت شكري للرجل وأسرت وأخبر مادلين التي هفتت وصفقت وقرزت لأعلي مرددة: وشك حلو عليا يا بابا ولم تدعني دون أن تقدم مكافأتها لي بأن حضنتني وقبلت وجنتي فسالتي دموعي أمامها فوقفت صامتة مندھشة تتعامل عما يبكيك؟ أجبته لا شيء المهم أن نستعد لتلك الرحلة الشاقة ومانيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا علي رأي سيدة الغناء العربي أم كلثوم جلست بعيداً بأحد أركان المنزل أستعيد الماضي منذ الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ هذا اليوم الكريه في حياتي فلم أقابل خلال مشوار حياتي مواقف صعبة وجمة مثل التي قابلتها خلال الأيام التالية للحرب كما حرمت حب وحنان أبنائي وبناتي وأيضاً زوجتي الطيبة التي لا تتواني عن تقديم رعايتها وخدماتها لي ولأبنائنا، إنها سيدة عظيمة وأتساءل هل سيمد الله في عمري حتي ألقاهم وهل مازلوا علي قيد الحياة؟ فنحن هنا لا نعلم من أمور بلادنا أى شيء وماذا حدث لهم بعد الهجوم الإسرائيلي علي سيناء، كل تلك الأسئلة كانت تدور بعقلي وفكرى وأصبحت مثل إنسان في مفترق طرق بين الماضي السعيد

والحاضر المستقر والمستقبل غير مأمون العواقب والنتائج.

### مائلين:

لقد فاجأني عم جبر أو أبي الروحي بهذا النبأ حيث شغلنتي الحياة عن الماضي الذي كنت أحياء وأعيشه وتدور في رأسي أفكار كثيرة تدور كلها حول الماضي والمستقبل، ماذا سوف يحدث لي حين لقائي بأسرة زوجي الراحل؟ ماذا سأقول لهم وما ردى علي استفساراتهم، كيف نجونا وتركناه يلقي مصيره المحتوم ومن الجائز أن تعتقد أسرته بأن زوجي وحبيبي دفع حياته ثمناً في سبيل إنقاذي أنا وابني، ماذا سأقول لصديقاتي وزميلاتي الطبيبات وأيضاً ما مصير العيادة التي كونتها مع الراحل شوقي بالعرق والجهد والمثابرة، لقد ظل يعمل بحقول البترول بالصحراء كي يعود علينا بعائد مجز كي نتمكن من تشييد تلك العيادة، لقد أصبح لها روادٌ أكثر كلهم يقدمون الشكر لي بعد شكرهم لله صاحب العطية والشافى من كل ألم ومقم.

بابا جبر؛ لو حدث ووصلنا بعناية الله إلي عائلتي بالمنيا فم سوف أفتقدك وسوف تصبح تلك هي النقطة الحزينة في مستقبلتي، لقد اعتدت علي المعيشة معك وسماع صوتك ومشاهدتك وأنت تسمير بتمهل بعد الإصابة التي سببتها لك حين سألتك عن ابني شادى ، بل أن شادى هو الآخر سوف يفقدك فبعد أن فطمته من الرضاعة أصبح يتبعك وتقوم بحمله ورفع له لأعلي وتلاعبه بيداك وتغني له بعض الأغاني من التراث، بل كنت تقلد له أصوات الطيور والحيوانات فينام هائى البال ساكن الفواد وأنت مازلت ترعاه وتحميه، كل هذا سوف أفقده ولا أعتقد أن لقائي بعائلتي سوف يعوضني عن فقدى لك؛ لن

أنساك أبداً وسأظل دائماً أتذكرك إلي أن أقابل ربي وحينها سوف أنذكرك بكل خير أمام الملائكة والقديسين، لقد كنت الحامي والمدافع عني وعن طفلي وكان بإمكانك أن تستغل وحدتي وخوفي من الحياة التي نحيها بأن تقريني منك وأن اصبح الونيمة والأليفة والعشيقة لك وما كان في مقدوري أن أرفض أو أحتج كنت فقط سألتزم الصمت والبكاء لكنك فضلت علاقه البنوة عن علاقه الجسد التي يلجأ إليها الكثير من الرجال معدومي الضمير حين تتاح لهم فرص أقل من الفرص المتعددة الطويلة التي كانت أمامك دون قانون أو مسئولية، فنحن النساء يصيبنا الضعف حين فقد الأمان ودائماً ما نحتاج لهذا الأمان من رجل يقترب منا حتي لو كان هذا ضد العقيدة والتربية الكريمة، أنت وأمثالك سوف يكافئكم الله بما تستحقون، لقد نوه الله عن أمثالك من الرجال الأظهار، لم أعد أستطيع التفكير ولم يعد أمامي سوى البكاء الصامت لتلك العلاقه الإيمانية الطيبة التي جمعتني بهذا الرجل الكريم.



## قسوة رجال الإدارة

تركت الأب صمويل وتوجهت لشقتي وأدخلت المفتاح بكالون الباب، بعد جهد فتح الباب وتبين لي بأن أحداً من العائلتين لم يستطع الاقتراب من شقتنا تلك، كانت الرطوبة تملأ المكان والهواء الراكد يدفع برائحة غير مقبولة كما هاجمتي المشاعر والأحاسيس الحزينة، أسرعت بفتح الشبابيك وابواب البلكونة وجلست بالصالة أنقظ أنفاسي من المشاعر الحياشة المؤلمة التي هاجمتني تبدلت رائحة الرطوبة برائحة مادلين التي تشابه رائحة زهور الربيع، سمعت صوتها قادماً من داخل المطبخ تسألني ماذا ترغبه من شراب؟ شاي أم قهوة حتي أنتهي من إعداد الطعام، أسرعت بالذهاب كي أقدم لها يد المساعدة، لم أجدها أو أعثر عليها، شاهدت حوائط المطبخ ومكوناته يغلفها التراب والغبار وقفت أستعيد اتزانتي، لقد سمعت صوتها .. أيوه، أنا متأكد؛ وضعت يدي علي وجهي وركنت ظهري علي الحائط واندفعت في بكاء شديد.

أردد: لقد رحلت هي وطفلنا الصغير، لقد تحطم كل شيء في حياتي، لقد ضاعت البسمة وحل محلها الغم والنكد، من المسئول عن كل ذلك؟ لا يوجد مسئول سوى الأوغاد الإسرائيليين الذين هاجموا أرض مصر وقتلوا وشردوا وأسروا، لقد نالني الأسر أما القتل فكان من نصيب زوجتي وابني وبعض زملائي بالشركة، سوف أتوقف عن البكاء، لا بكاء بعد اليوم وكما يقول المثل العربي " لا يقل الحديد إلا الحديد " أي لا تقاوم المعتدى بالبكاء والدعاء ولكن قاومه بالقوة كي يشعر بطعم الهزيمة ويفقد أحباء له حتي يتذكر بعد هذا بأن الحياة دوارة، ولا يمكن له أن يستمر في انتصاراته علي الدوام، فالوضع الحالي شاهد علي هذا ، فقد سمعت من ٦٣٣ أصدقائي أمس عن مدى قوة

الضربات الموجعة التي تقوم بها قوات الجيش ضد العدو على الضفة الشرقية لقناة السويس، هذا هو الأسلوب الوحيد لمقاومة العدو.

عدت لمنزل والدي وجلست مع بعض الأقارب الذين أتوا مهنيين علي سلامة العودة، أنظر إليهم وأشاهد البسمة على الوجوه فتنتقل إلي داخلي بسكاكين تقطع نياط قلبي، أي تهنئة تلك؟! تهنئة علي فقد أعز اثنين لدي الصبر يارب، أطلب منك الصبر كما أعطيتَه لنيك المسيح ومسحت عليه فأزلت عنه حزنه وآلامه، افعلها معي فأنا ضعيف أمام العاطفة نحو زوجتي وطفلي، امنحني الصبر وأسكنه بقلبي يارب.

هذا صباح يوم جديد ، ارتديت ملابس عازماً علي التوجه إلي أسيوط ومن هناك أذهب مباشرة إلي منطقة التجنيد، بعد أن غادرت الباب الرئيسي للعمارة التي أظن بها شاهدت عم حمزة العجلاني قادماً وبصحبه شخص غريب الهيئة، صافحني عم حمزة مشيراً إلي من معه يعرفني به:

. حضرة المخبر معفان

مددت يدي لمصافحته فبادلني التحية ببرود ثم أعقب هذا قائلاً:

- معايا علي مديرية الأمن دغري، مطلوب القبض عليك لأنك متهرب من التجنيد!!

نظرت إليه بشيء من الدهشة والرغبة مردداً كلماته:

. متهرب من التجنيد؟! إزاي الكلام ده، مين قال كده، لم يعطني فرصة للحديث  
وتحدث بكلمات محددة وكأنها العقاب والزجر

. جاي معايا وألا أجييب لك أمر من النيابة ضبط وإحضار؟

لم أستطع الإجابة فانبهرى عم حمزة يخبره بأن البية لسه واصل من إسرائيل  
بقاله يومان، نظر إليّ الرجل وشحب وجهه قائلاً:

. يا نهار أبوك اسود، كنت في إسرائيل بتعمل إيه؟ أكيد جاسوس، شعرت بأن  
هذا الرجل همجي ولسانه زالف فصرخت به بشدة محذراً إياه من الخطأ في  
شخصي، ترتب علي هذا أن غادر المكان متوعداً بأنه سوف ينزل بي أشد  
العقاب، وسوف يتسبب في دخولي اللومان "السجن المشدد".

ترك المكان بعد أن ترك رائحة نتنة مثل تصرفه الغبي، أقبل احد الجيران  
الطبيب بمساده الذي عرض عليّ النصيح بألا أعطي هؤلاء المتخلفين فرصة  
لمضايقتنا وعليك تنفيذ تعليماته، أخبرته بأنني كنت في طريقي لمنطقة التجنيد  
دون أن أعلم أنه جاء في طلبي، أخبرني عم حمزة بأن هذا الخبر جاء منذ  
شهرين وأخبر بعض الشباب بالتوجه لمنطقة التجنيد وحينما قرأ اسمك أخبرته  
بأنك مفقود بالحرب، عليك الآن سرعة تقديم نفسك لمنطقة التجنيد قبل أن يعود  
ومعه كوكبة من الجنود يلقون عليك القبض وتظل بالحجز عدة أيام.

أسرعت بمغادرة المكان وركبت سيارة أجرة إلي أسيوط، وصلت عصر  
اليوم، هناك توجهت لصديقي المهندس ديمترى وهو ابن عمه الراحلة مادلين  
زوجتي، رحب بي الرجل وأخبرني ١٠٠ بأنه علم منذ ساعة بوصولي من

سيناء وأنا حي أرزق وهو يأسف لفقدى زوجتي وابني، ظللت في ضيافته وأسرته التي رحبت بي كثيراً، صباح اليوم التالي كنت أقف مع جموع الشباب المحتشدين أمام باب منطقة التجنيد.

خرج علينا شاووش بيده بعض الأوراق ثم قال:

- اللي اتبعت لهم إخطار يروحوا عند الشباك رقم واحد، والمتخلفين يجفوا جدامي هنا، ظللت واقفا مع نفر قليل وتبين لي من حالتهم أنهم شباب بسطاء أشار إلينا الشاوش أن نتبعه، بداخل الحوش بمنطقة التجنيد سأل كل واحد منا عن اسمه ومحافظة التي ينتمي إليها ومدينته، كنت أشاهد الشاوش حينما يعثر على اسم أحد من الذين سبقوني بالحديث بأن يشير لأحد الجنود قائلاً:

. خد ابن الكلب الجبان ده، ارميه جوه مع الكلاب اللي زيه ، شعرت لحظتها أن كرامتي سوف تهدر ولكن ما باليد حيلة، ظل هذا الشاوش على حاله وظللنا نحن على هذا الحال حتي جاء دورى ونظر إليّ باسماء ويردد:

. مهندز وهريان من الجندية، دى حد يعجلها، أشرت إليه قائلاً:

- لو سمحت، أنا مكنتش متهرب بخطرئى، ابتسم طالبا مني التوضيح بعد أن أفاض ببعض كلمات بذيئة

- شاووش أنا كنت أسير بإسرائيل و..... ترك الرجل كل شيء ولم يسمع باقي الكلام واختفي وعاد ومعه بعض الجنود بأسلحتهم وأشار إليّ قائلاً خدوا

الواد ده ابن الكلب الجاسوس.

لا أعلم كيف انتشرت المعلومة وأثناء سيرى تحت حراستهم حين يلتقي بهم أحد الضباط فيسأل عما قام به هذا الشاب فتخرج الإجابة:

. أصله جاسوس يا أفندم

شعرت بأن تلك الكلمة مرعبة ولا أعلم كيف انطبقت علي شخصي وجدت نفسي في حجرة لها باب حديد وهواية من أعلي عليها ستارة من الحديد ظللت علي هذا الحال حتي حل الممساء ولم يسأل أحد علي شخصي سواء بالطعام أو بسؤالي إن كنت أحتاج زيارة دورة المياه لقضاء الحاجة، صباح اليوم التالي سمعت من يقوم بفتح الباب وشاهدت "مساعد" صول كبير الحجم وشنبه يملأ نصف وجهه وصاح متسائلاً:

- أنت يا ابن دين .... يا جاسوس، رافق كلماته تلك صفعات متتالية هويت علي أثرها صارخا علي الأرض، أمرني بالنهوض فلم أقو فطلب من رجاله رفعي والمير بي خلفه، وصلت إلي مكتب يجلس بداخله أحد ضباط الجيش برتبة نقيب الذي طلب من الحرس تركي علي راحتني وشاهد أثر ما فعله الصول بي فقدم اعتذاره ثم سألني إن كنت تناولت طعام الغداء فنفيت هذا فأمر أحد رجاله باصطحابي لكنتين الوحدة وشراء طعام لي علي حسابي لأنني كما قال لست مقيدا "متأمد" علي التعيين اليوم وسوف يتم "تأميدي" علي التعيين بعد مضي اثنين وسبعين ساعة "ثلاثة أيام" ؛ فكرت وأنا في حالة من الذهول، هل يظل الجندي دون طعام ثلاثة أيام حتي يحصل علي طعامه

الميرى، كانت الإجابة تلك هي التعليمات والأوامر.

وصلت للكانتين وهناك اشتريت أطعمة جافة أى رغيف من عيش الفينو وقطعة من الجبن وضعتها بداخله وجلست القرفصاء بجوار مبني أتناول طعامي وقد اسودت الدنيا أمامي، وشعرت بأن نهايتي قد قاربت وسوف ألحق بزوجتي وابني وأستريح من هذا العنت وسوء الخلق والملوكيات البذيئة التي قوبلت بها والتي تعاملوا بها معي خلال الساعات الماضية، كان الجندي الحرس يقف في انتظار تناول طعامي فرق قلبي لحاله فناولته قطعة من سندوتش الجبن فشكرني وأخذها في فمه بسرعة وهو ينظر في كل اتجاه خشية أن يلاحظه أحد، نهضت وسرت والجندي خلفي ممسكاً بسلاحه في يده بعد أن وضع السونكي في مقدمة السلاح، عاد بي الزمن لأكثر من ثمانية شهور ونحن نستقبل في معسكر عثليت للأمرى، نفس الأسلوب والنظام وكان الدولتين قد اتفقتا علي أن هذا هو الأسلوب الأفضل للتعامل مع المصريين.

وصلت مكتب الضابط واستأذن جندي الحراسة بالدخول فصرح الضابط له فأدى التحية العسكرية علي السلاح ووقف خارج المكتب، نظر إلي الضابط قليلا وأشار إلي كرسي أمامي قائلاً:

- تقضل، استريح، إيه حكاية إسرائيل؟ حاولت التملص من هذه المعلومة فقد شعرت بأن موضوع الأسر حمل علي وضع آخر، أوضح لي الضابط أنني تخلفت عن موعد التجنيد وأمامه خطاب من مباحث المنيا يفيد بأنهم توجهوا لمسكنك أكثر من مرة وأبلغوا الجيران ولم تحضر ولهذا سوف يوقع عليك عقوبة بقضاء سنة ميلادية زيادة عن مقرر التجنيدى الذى هو عام واحد

لأنك مؤهلات عليا ومن أجل هذا سوف تظل بضيافة الجيش عامين بينما زملاؤك قد غادروا الجيش وخرجوا لحياتهم، من صالحك أن تثبت أين كنت خلال تلك الفترة.

أخرجت من طيات ملابسي الخطاب الصادر من المخابرات الحربية والموجه للهيئة العامة للبتروول والذي يوضح أن المذكور " شوقي غالي " وقع بالأسر خلال حرب يونيو ١٩٦٧ حين كان يعمل مهندسا للتقيب عن البتروول بصحراء سيناء، وتم وصوله لمصر يوم ١٩٦٨/١/٢ خلال عملية تبادل الأسري بين مصر والعدو الإسرائيلي وقد تنبه عليه بتسليم نفسه للهيئة يوم ١٩٦٨/١/٨ .. تلي هذا توقيع المسئول وختم شعار الجمهورية، صمت الضابط قليلا ثم علق قائلا إن هذا الخطاب يعفيك من العقوبة، إذا ما حكاية الجاسوس؟ شرحت له ما حدث فقدم اعتذاره وطلب الصول فحضر وويخه علي نقل معلومات مخلوطة وأنذره بالمثل أمام مكتب القائد غدا وأمره بحسن معاملتي وطلب منه مرافقتي للمكتب المختص لإتمام إجراءات تجنيدى، سار الصول بجانبي مقدماً اعتذاره وحين وصلنا للمكتب المسئول التقى بالشاويش الذي قابلني أول مرة فصرخ فيه وأنبه وأنذره مكتب القائد لنقله معلومات كاذبة عن أحد المجندين!!

هكذا رقيت وانتقلت من الشباك المخصص للمتخلفين إلي الشباك الخاص بالمطلوبين أول مرة، قضيت تلك الليلة ولا أعلم كيف مضت علي سواء من سوء حالة أماكن النوم أو دورات المياه التي كانت بحالة سيئة بالإضافة إلي الحالة التي عليها الشباب القادم من النجوع والقرى، وتبين لي أن الكثير من أبناء الشعب المصرى مازالوا يرزحون تحت ضربات القدر من

الفقر والجهل والمرض والبلادة الحسية وسوء المعاملة وهم صاغرون لا يتذمرون أو يزأرون بالشكوى.

صباح اليوم التالي أكملت مشوار الفحص الطبي وأيضاً بعض الاختبارات التي تدل علي الذكاء وبنهاية اليوم تم توزيع علي سلاح المهندسين، لم يمض يومان عليّ إلا وكنت أستقل لورى من لواري الجيش المتجهة بنا من منطقة التجنيد إلي محطة قطارات أسيوط، بمحطة أسيوط للقطارات ركبنا قطاراً لا أعرف وصفاً له لكن من المؤكد أن حظيرة المواشي أنظف منه بدرجة كبيرة وصل القطار إلي محطة مصر ومن هناك تحركنا مع المندوب المرافق لنا لخارج المحطة حيث كانت لوار مركز المهندسين العمكربين في الانتظار حشرنا حشراً في صندوق اللورى وأعتقد أن ما به من جنود لا يقل عن أربعين شابا من خريجي كليات الهندسة، وصلنا لمركز التدريب القابع علي بحر يوسف قريباً من منطقة أهرامات الجيزة وظللنا به ثلاثة أشهر تدريباً خلال تلك الفترة علي أشياء كثيرة بدءاً من النظام وإطاعة الأوامر دون تردد وسرعة تنفيذ ما يلقي علينا من تعليمات وصولاً إلي شرب المياه التي كانت مرتفعة درجة حرارتها كأنها ساخنة والآتية من حنفيات المعسكر بالإضافة إلي تناول أطعمة ليس لها طعم لكن لها رائحة وخليطاً من ألوان الطيف.

شكراً للسماء وللعنءاء، فقد انتهى التدريب الأساسي وبعد قليل سيتم توزيعنا علي الوحدات، أقبل مساعد تعليم المركز ويبيده كشف به أسماء الجنود والوحدات الموزع عليها كل فرد، حين ينادي اسم معين ويجيب الجندى نعم أفندم يجد يد المندوب تتلقه بسرعة ويشير إليه بالوقوف بجانبه، كان ترتيب البدء بالنداء علي الجنود المتجهين للجيش الثاني الميداني وبعدها بقليل

كنت من ضمن من سمع اسمه ووجهتي الجيش الثالث الميداني، تحركنا مع المندوب كل واحد منا يحمل مخلّة بها مهماته يضعها علي كتفه، تحركنا سيراً من المعسكر حتي بداية شارع الهرم لمسافة لا تقل عن ثلاثة كيلومترات من أجل أن نستقل اللوري العتيق الذي سوف يقلنا إلي السويس، جلسنا أعلي اللوري نتحدث بعد أن قضينا ثلاثة أشهر منذ انضمامنا للجيش خلال تلك الأحاديث كنا ننظر للناس من حولنا كأننا كنا نعيش بمعقل أو كأسرى حرب وعدنا بعد عدة أعوام، كانت شدة الأوامر وتنفيذها قوية بحيث لم تترك لأحد منا أن يفكر في شيء خارج المعسكر، وصلنا ليلا إلي مدينة السويس وحصلنا علي راحة بأحد المعسكرات، في الصباح وزعنا علي الوحدات الفرعية؛ كنت وزميلان آخران من خريجي هندسة جامعة عين شمس قد تم ضمنا لكتيبة المهندسين العسكريين لإحدى فرق الجيش الثالث.

قائد الوحدة التي أصبحت من قوتها رائد مهندس، رجل دمّت الخلق وبالطبع كان يعلم أن من أمامه زملاء له مهندسين، أقبل الرجل يرحب بالجنود الجدد، لقد تذكرته، إنه صلاح خيرى رئيس اتحاد طلاب كلية الهندسة؛ كنت أدرس بالمعنة الثانية وهو بالمعنة النهائية، بعد أن انتهى الحديث معنا عرفته بنفسي وذكرت له بعض الأحداث التي حدثت فشرع بالسعادة وضحك لهذا طلب من مساعد الكتيبة أن يجعل إجازتي سبعة أيام بدلا من خمسة لأنني من أبناء الصعيد، هكذا حصلت علي أول تقدير بعد دخولي الجيش، وصلت المنيا بأول إجازة وأنا أرتدى النزي العسكري وفكرت بأن أول من أقوم علي زيارته الأب صمويل راعي الكنيمة الأرثوذكسية.

بداخل الكنيمة التقيت به وكانت مساعدته لا توصف وشد من

أزرى قائلاً: هكذا يكون الحساب وهكذا يكون تصرف الرجال الشجعان بوضعك هذا سوف تلقى بالأعداء ولحظتها تثبت لنفسك أنك سوف تنتقم ليس لزوجتك وابنك فقط لكن لكل من أصيب من عنت وجهل هؤلاء القوم، غادرت الكنيسة سعيداً، أسرعت لمنزل أسرتي فاستقبلني أشقائي وشقيقاتي بسعادة بعد عودتي من غياب استمر قرابة أربعة أشهر خلال تلك الفترة لم أكلف نفسي عناء إرسال خطاب أطمئنهم فيه علي حالي عوضاً عن أيام وشهور الأسر بالعام الماضي، حينما شاهوني أثنوا علي لياقتي البدنية والتحمن الواضح لحالتي الصحية والنفسية.

صباح اليوم التالي توجهت لثقتي ومازلت أرثدي البدلة العسكرية وبداخل الثقة ناجيت زوجتي وطفلي؛ كنت أتخيل وجودهما بالثقة بل كنت أشم أنفاس زوجتي ورائحتها الطيبة، وصل بي الحال بأن أقبلت زوجتي مادلين وشاهدت وسامتي بالزي العسكري فقدمت تهنئتها مرددة: ربنا يخليك أنت وشباب مصر لمصر، مين ح يدافع عنها، ما فيش غيركم .. ربنا معاكم، شعرت بالتأثر من كلماتها الطيبة المشجعة فبكيت على كتفها؛ بعد دقائق تبهت وتذكرت أنه لا يوجد أحد بالمنزل فنظرت حولي فشاهدت نفسي وقد أقيت بجمدي علي السرير وتخيلت أن الوسائد الكثيرة التي وضعت مصطفة هي كتف زوجتي الحنون، نهضت ووقفت أجفف عيوني من أثر البكاء مردداً: الله يخرّب بيت إسرائيل واللي عمل إسرائيل، والمسيح لا بد أن أقتص منكم يا قتلة.

غادرت المنزل متجهاً لمنزل عمي ميخائيل والد زوجتي وبعد أن فحصني قليلاً تعرف علي وريت علي كتفي مشجعاً انضمامي لجيش مصر، جلست مع حماتي ماما سارة، ولاحظت أنها هادئة الطباع كأنها تتذكر أن الذي

يجلس أمامها هو من اقترن بوحيدتها، وأنجبت منه طفلها شادى، كنت أشاهد عينيها تلمعان من أثر دموع رغبة بالخروج للعلن، كانت تحاول أن تتماسك جلست بعض الوقت وغادرت المنزل وعدت لأسرتي وقضيت يوماً طيباً معهم ظل هذا هو حالي خلال أيام إجازتي تلك، شاهدني عم حمزة العجلائي فرحب بي بطريقة أبناء البلد مهلاً بالباش مهندز اللي ح يموت اليهود ويجطع خبرهم.

عدت لوحدي بعد انتهاء الإجازة، اليوم التالي التقيت بسيادة الرائد قائد الكتيبة الذي طلب مني أن ألحق به علي المكتب، هناك جلست أمامه وطلب مني أن أجلس معه بصفة المهندس الزميل، أسعدني هذا وطلب من الجندي الساعي أن يعد لنا مشروب الشاي، مال ناحيتي قليلا وكان ممسكاً بخطاب رسمي من خطابات الجيش المتبادلة بين الوحدات وتساءل:

. إيه حكاية إسرائيل اللي بعين ليا ينبهوني أنني أخذ بالي منك لتكون في يوم من الأيام عميل لهم؟

أثارت الكلمات القليلة ضيقي وشرحت له كل تفاصيل الموقف، سكن قليلا ثم قال دى مشكلة مصر، لو شكوا في واحد يفضل قدامهم خاين لحد ما يندفن في التراب ويتأكدوا أنه مات يقوموا يغلقوا صفحة شكهم فيه مشكلة متحطهاشى في فكرك، خليك زى ما أنت وميهمكشني يا شوقى، أدى الجواب المعفن بتاعهم أهه، شاهدته يمزق ورق الخطاب وطلب من الجندي الساعي أن يحرقه أمامه هكذا طويت صفحة العمالة لإسرائيل لأنني كنت أسير حرب لديهم.

كانت التدريبات تجري علي قدم وساق، بالمعسكر تعرفت علي الجنود البسطاء الذين لم يحصلوا علي أى قسط من العلم والبعض حصل علي شهادة إتمام الدراسة الابتدائية أو الإعدادية أو الدبلوم والبعض مثل حالتي خريجي جامعة، جمعت بيننا الخدمة بالجيش، كنت أنظر للجنود "العادة أى الذين لم يحصلوا علي شهادة تعليمية" بكل الحزن والأسى علي حالهم، كان البؤس واضحا علي الوجوه وهم يشعرون بالضآلة بالمقارنة بأمثالي، لم تكن التفرة في المعاملة ناتجة من سلوك شخصي سواء مني أو من زملائي أبناء الجامعة لكنه نظام فرض نفسه علي الذين يخدمون بالجيش، فإذا طلب عدد من الجنود للذهاب للقاء قائد الجيش في حفلة أو لوصول رئيس الجمهورية لقيادة الجيش في الحال يكون أصحاب المؤهلات الجامعية هم المختارين، وإذا طلب بعض الجنود للحفر أو لحمل براميل البنزين والمازوت أو للعمل بالمطبخ يكون المختار هم الجنود العادة وفي حالة التعامل مع الجامعيين يقوم من يرافقهم بالتعامل معهم بأسلوب "لو سمحت، أرجوك، ...." أما الجنود العادة فيكون التعامل معهم بأسلوب غير كريم؛ يقوم من يتولي الإشراف عليهم حين اختيارهم بأن يمد يده بين صفوف الجنود ويمسك الشاب من ياقة السترة ويدفعه للأمام مردداً معاك نلوقتي خمس كلاب كفاية وإلا أجيلك بغلين تانيين.

كان الجندي العادة يأتي إليّ يحدثني ولا بد أن يسبق حديثه بحضرة المهندس ثم يكمل " عريف مؤهلات عليا شوقي ... " عارضا علي أن يقوم هو بملء عبوة المياه الخاصة بي أو أن يقوم علي نشر البطاطين الخاصة بي في الشمس، كان هذا هو سلوكهم مع كل الجامعيين، صحيح أننا أكبر منهم سناً ولكننا لمننا أحسن منهم حالا فلقد حصلنا علي حقهم في التعليم وتعلمنا ألا يكفي هذا، كان هذا السلوك ٧٤ يضايقتني ويضج مضجعي، أيضاً

كانوا يحاولون الجلوس معنا يسمعون لنا ويضحكون لضحكاتنا وإذا سرنا في اتجاه ما فهم تابعون لنا وفي كثير من الحالات كانوا ينصتون ويهزون رؤوسهم كأنهم يفهمون حديثاً جرى بيني وبين زميلي عمرو وصلاح، حديث تخصصي أي في مجال الهندسة والمعادلات الرياضية لحالة كنا نناقشها.

كدت أبكي علي حال هؤلاء الشباب، لقد ساروا علي نهج الأجداد حين حفر قناة السويس، المسخرة مقابل لقمة عيش، الذل والامستكانة في مقابل أن تتركني أنام أنا وأبنائي بجوار حائط قديم متهالك، أنا وأبنائي خلقنا كي نقوم بخدمتكم ورعايتكم، سوف نظل هكذا حتي يسقط الإثمنا منا مريضاً فلا يجد الدواء للعلاج فيلقي ربه بعد أن يلقي من صنوف العذاب والعبودية الكثير كنت أفكر وأتساءل في نفس الوقت: متى يتحرر هؤلاء من رق العبودية والإستكانة؟ في بعض الحالات كنا نشاهد أحد ضباط الصف من المتطوعين يصرخ في وجه جندي من هؤلاء، بل في بعض الحالات يسبه ويشتمه بأسوأ العبارات وقد يتطور الأمر إلي الضرب بالشلوت أو علي القفا، كان يصيبنا الضيق وفي إحدى المرات نهض زميلي عمرو يدافع عن أحد الجنود ضد غطرسة وسطوة الضابط صف الذي طلب من عمرو أن يظل في حاله ولا دخل له بهذا، وإمعاناً في الضيق ضرب ضابط الصف الجندي علي وجهه في تلك اللحظة اندفع عمرو وضرب ضابط الصف بالبوكس في وجهه فتركت علامة أدت إلي دخول عمر المكتب وتوقيع عقوبة عليه لأنه قام بالتعدي بالضرب علي ضابط الصف المسئول عن القصيلة التي هو أحد رجالها.

رغم كل هذا الضيق من سوء المعاملة بالجيش المخالفة لأسلوب التعامل بالحياة المدنية إلا أنني شعرت بأن أسلوب الجيش الرسمي غاية في

الرقبي والتقدم، فجميع حقوقك محفوظة ومصانة، سوف تتال إجازتك في موعدها ولا داعي للتقرب والرشوة مثل الحياة المدنية، راتبك رغم أنه ضئيل إلا أنه سوف يصل إليك ولا يمكن لأحد أن يستولي عليه، أيضاً يمكنك التظلم والتقدم بشكوى شفهية أو مكتوبة ضد أى شخص ضايقك أو منع عنك حقاً من حقوقك بأن تحصل عليه، كنا سواسية، فنحن جميعاً ننام أرضاً وكل واحد منا يمتلك ثلاث بطانيات بلون واحد ونوعية واحدة أيضاً، الطعام يأتي للجميع من المطبخ ولا تفضل لشخص دون الآخر ونحصل على حمامنا بالصحراء تحت ظروف العوامل الجوية السيئة.

ورغم كل هذا العنت والضيق إلا أن الحب أصبح هو الغلاف الرقيق الذي يجمعنا والإخوة التي تربط بيننا، كان الحب هو سمة الحياة بيننا وأصبح من المعتاد أن يعود أحد الجنود من إجازته ليخبرنا عن أسرته وأحوالهم، وإذا كانت هناك مناسبة طيبة أو قصة حب هو أحد أبطالها فيقوم بروايتها أمام الأصدقاء أو الصديق المقرب له، كانت حياة وسعادة أى جندي تخص جميع زملائه ودفننا هذا نحن الشباب المتعلم لأن نطيب من خاطر زملائنا الذين لم يحصلوا على نعمة العلم والتعلم؛ وذلك بحسن المعاملة والتبسط والألفة معهم وعدم الترفع على أحد منهم مما زاد من رابطة الحب بين جميع الجنود على اختلاف أعمارهم ومستواهم العلمي والثقافي والاجتما

## بداية رحلة العودة

انتهى عام ١٩٦٨ ولم نستطع مغادرة منطقة " رأس حميرة " نظرا للظروف غير المواتية بين القبائل، دخلنا العام الذي يليه ومضى جزء كبير منه ثم اقترب عام ١٩٦٩ من نهايته ولهذا بدأ الاستعداد لرحلة العودة التي أخبرنا عنها الشيخ عرفان بعد أن وصلته المعلومات بأن اتفاقا قد وافق عليه زعماء قبيلتي البشارية التي يتبعها والعبادة المناقسة والتي تقطع الطرق علي فرع القبيلة بهذا المكان البعيد النائي والذي يقع جنوب رأس حميرة بأربعين كيلو مترا ، أحد أيام شهر ديسمبر والطقس مشمس دافئ أعد الشيخ عرفان حفلاً بسيطاً كي يقدم شكره لمجهود مادلين، وقف الرجل يتحدث ويعلن للجميع أن مشروع الطيبة مادلين ابنة الحاج جبر بدأ منذ عامين أي نهاية عام ١٩٦٧ بعد المعركة القتالية التي قام بها رجال الجيش الذين أصبحوا منا ويقومون معنا ومن الله عليهم بالبنين والبنات.

قبل عامين لم يكن أحد من رجال أو نساء القبيلة أو أطفالها يتحدث اللغة العربية في تعاملتنا، كنا نتحدث بها حين تلاوة القرآن الكريم، أي عن طريق الحفظ لكن الآن وبعد أن شجعتنا الطيبة مادلين فقد تعلم الكثير منا كلمات عربية، وأصبحنا نستبدلها بلغة الأجداد القديمة والتي أطالكم بالاحتفاظ بها بجانب اللغة العربية، فلن ننسى أننا أبناء المصريين القدماء أتباع الملكة حتشبسوت والذين رافقوها برحلة الصومال أو بلاد بونت وهذا هو الاسم القديم لقد ظللنا بهذا المكان أجيالاً بعد أجيال ولولا الدين الإسلامي ما نطق أحد منا بلغة نفهمها، وما حدث ويحدث من إهمال لظروفنا نذبه يقع في رقاب الحكام الذين تجاهلوننا ولم يلتفتوا إلينا، وقد رضي الله عنا بأن أرسل إلينا بالحاج

جبر وابنته وحفيده والتي قدمت لنا الخدمة الطبية، في البداية أعدت صيدلية بها جميع الأعشاب الطبية واستخداماتها الصحيحة حتي تأتي بالنتيجة المرجوة كما أنها أوضحت لبناتنا وسيدات القبيلة كيفية الوقاية من بعض الأمراض التي تصيب النساء.

كما استطاعت أن تدرب العديد من نساء القبيلة علي التمريض والحقن بالأدوية، لقد بدأ التدريب بثلاث نساء وزاد العدد الآن ليصبح سبع عشرة سيدة وفتاة، وكانت لها اليد الأولي في إقامة أول مبني وفصل دراسي وقامت بتشجيعي كي أقوم بالتدريس بهذا الفصل، كما أعدت مباني الصيدلية والعيادة ثم منزلاً صغيراً لها وتبعها البعض من نساء القبيلة فالجميع راغب بأن يحيا خارج الكهوف لما يعود علينا بالصحة والراحة النفسية.

بعد أربعة أيام سوف يغادرننا عم جبر وابنته وحفيده عائدتين إلي قريتهم بريف محافظة المنيا بوسط الصعيد، الرحلة مرهقة ومتعبة لكن ليس أمامنا خيار سوى هذا، أما إذا رغبوا بإسعادنا بأن يظلوا معنا نحيا معاً ونستفيد بخبرات الطبيبة العظيمة فهذا يعتبر كرمأ كبيراً منهم؛ كنت راغبا بأن يرافقوا وفد الرجال المتجهة لمنطقة دراو ولكن وصلت لي أنباء بإحتمال نشوب مشكلات مع قبيلة العباددة ومن أجل هذا سوف نستبدل طريق العودة بالتوجه جنوباً إلي شلاتين والتي تبعد عنا قرابة ٦٥ كيلومتراً، يحصلون على الراحة ثم يكملون طريقهم إلي حلايب والتي تبعد عن شلاتين قرابة ثلاثمائة كيلومتر يمرن خلالها علي منطقة أبي رماد، بعد هذا يواصلون السير غرباً في اتجاه قريتي أوندان و قسطل اللتين تقعان الآن علي ما يعرف ببحيرة ناصر والتي بدأت تمتلئ بالمياه الفائضة عن نهر النيل، من هناك يمكنهم ركوب أية

سفينة حتي الشلال ثم بعد هذا يرافقون تجار الجمال المتجهين للجيزة.

سوف يرافق ضيوفنا الأعرء أحد شبانا الأقوياء وهو إبراهيم الجعفري "تهليل وتصفيق" لما يمتاز به من الشجاعة ومعرفة طريق العودة والذهاب ويمكنه أن يظل مرافقاً لهم حتي منطقة الشلال علي حدود السودان والتأكد من ركوبهم السفينة وسوف يقوم بدفع نفقات الرحلة ببيع أحد الجمال المرافقة لهم تلك هي أول طريق العودة من غرب البحر الأحمر إلي الجنوب حتى حدود السودان ثم غرباً للشلال وركوب السفينة، تلك الرحلة تستغرق شهرين حتي الشلال ولا تقل عن خمسمائة كيلومتر، من هناك حتي محافظة المنيا يبلغ طول الرحلة ثمانمائة كيلو، وتستغرق شهرين أيضاً.

سوف يتسلم عم جبر رشاش عوزى إسرائيلي من مكاسب وأسلاب المعركتين السابقتين مع العدو، فقد منّ الله علينا بالعثور علي خزن نخيرة إضافية لهذا الرشاش، والحاج جبر بصفته يعمل بالدوليس المصري يستطيع استخدامه للدفاع عن النفس ضد بعض الحيوانات والضواري التي قد تفاجئهم وسوف نرسل معهم بزوج من الماعز الحلابة كي تمدهم بلبنها أثناء الطريق في المنطقة القفر والتي تبلغ طولها سبعين كيلومتراً والمحصورة بين شلاتين وأبى رماد، سوف نمد الطيبية بجميع أنواع الأعشاب كعينة كرجبتها كي تقوم بعمل دراسة عليها بالجامعة قد تفيدنا وتفيد جميع أبناء الصحراء والبادي المتطرفة، نرجو من الحاج جبر أن ينبه المسؤولين لوضعنا ويخبرهم بأن أعداداً كبيرة من بدو الصحراء المجاورة للبحر الأحمر لا يهتم بهم أحد وأنتم لا حظتم مقدار التخلف الذي نعيشه بالنسبة للقاهرة التي درست بها وشاهدت

كيف يعيش الناس حياتهم.

انتهى الشيخ عرفان من كلمته جلس بعدها ونهضت فتاة من القبيلة تدعى "ربيعة" ، الفتاة رائعة الجمال ولا يتعدى عمرها السابعة عشرة تحدثت بلغة عربية سليمة النطق لكنها بطيئة وخلال هذا أشادت بالطبيبة الجميلة مادلين تصفيق من النساء" وظلت تعدد المزايا التي عادت عليهن من وجود مادلين وأنهن سيظلون يذكرون كل أعمالها الطيبة لعلاجهن وحقنهن ثم توجهت لمادلين وقبلتها ووضعته شالاً جميلاً علي كتفها وأخبرت الجميع بأن هذا الشال القيم ظلت هي وبعض زميلاتها يقمن بإعداده لمدة شهر .

اليوم التالي أرسل الشيخ عرفان في طلبي فتوجهت إليه رغم أنني مازلت أشعر بالألم منذ عملية الكي التي قام بها أحدهم لعلاج حالة النزيف من الإصابة التي لحقت بي من أثر قيام الإسرائيليين بإطلاق النار علي حين كنت أبحث عن شادي، شاهدته يجلس وأمامه جمل ووضع علي الجمل عبوتين من برميل بلاستيك دائري وقد وضعت البراميل بطريقة أفقية كما أقام فتحة بثلاث البرميل من أعلي كما أعده إعداداً جيداً وثبته بمحمل الجمل.

أشار إليّ قائلاً: حاج جبر ، بنتك وولدها حيناموا ويجعدوا في ناحية ببرميل وأنت في الناحية الثانية، دي أحسن طريقة مريحة فكرنا فيها لركوب الجمل، لو بنتك جعدت كيف الرجال فوج الجمل ضهرا ح ينكسر بعد ساعة ولا حيفعها الطب اللي بتعالج بيه المرضي، جرب كده يا حاج جبر وأجعد بالبرميل، توجهت وجلست بداخل البرميل، شعرت أنه مريح فلا يقل طوله الأفقي عن متر وارتفاعه الراسي عن أربعين سنتيمتراً ويمكن الجلوس بداخله

فأرداً المساقين مستنداً بظهرى علي أحد أجنابه كما زود بغطاء من الأكلمة الصوفية.

كما أعدوا شيئاً يشبه الشمسية كي تحجب ضوء الشمس وبالتالي الحرارة المباشرة عني وعن مادلين وطفلها حين الجلوس، كان وضع البرميل مشابهاً لوضع الوحدة المرفقة بالموتوسيكل التي تركب بجوار الموتوسيكل نفسه والتي تعد كي يجلس بداخلها المهندس الزراعي أو مفتش الري أيام الملكية أو ببعض الألعاب التي بالملاهي ويركبها الأطفال للتسلية وتدور بهم كانت الفكرة زكية وسهلة ولا يوجد البديل عنها أو يحل محلها، حضرت مادلين وشاهدت الفكرة وأعجبت بها، بل حملت شادى وجلست ووضعته بجوارها فشعرت بأنه لن يصيبها الضيق حين الجلوس وهو بجوارها.

تأكد لنا أن تلك الفكرة حازت القبول وسوف تزود بشمسية كما سنحمل معنا أمتعتنا وبالأخص الغطاء الصوف لحمايتنا ليلاً من برودة فصل الشتاء القارس قررت مادلين أن تضع الصندوق الذى به أغراضها وأغراض طفلها فوق ظهر الجمل في الفاصل بين البرميلين، وجد الشيخ عرفان أنه من الممكن وضعه بهذا المكان؛ كانت مادلين كثيراً ما تكرر بأنها لم تنس ما حدث لها وحالة العرى التي لازمتها لفترة طويلة والتي سببت لها حرجاً بالغاً وضيقتُ وألماً من لدغ بعض الحشرات كالنخاب والناموس، أصبح طريق السفرُ معداً وأيضاً الجمل بتجهيزاته بالإضافة إلي الجمل الذي سوف يرافقنا صاحبه إبراهيم الجعفرى، أعدوا الجمل الذى سوف يحمل العنزتين المرافقتين لنا وزود هذا الجمل بتجهيزة مناسبة مثل التي نجلس بها أنا ومادلين وشادى، كما تأكدوا بأن العنزتين ليس لهما صغار يحتاجون إليهما نظراً لأن العنزتين لن تعودا

حيث سيقوم الجعفرى ببيعهما بمنطقة أددان.

تحدد موعد الرحيل يوم غد حيث ستتحرك بعد أذان الفجر، لم أستطع النوم خلال تلك الليلة، لا أعلم السبب ولكنني كنت أشعر بشعور داخلي غريب الشأن، شعور المنتصر أو شعور المسافر الذي سوف يترك عائلته وأهله، لقد أثرت في نفسي الثلاثون شهراً التي قضيتها في تلك المنطقة المعزولة عن العالم، كنت أستعيد وأسترجع الأحداث من بداية الحرب حتي الآن، لم أصدق ما قمت به ورحلة العوامة البحرية التي ظلت شهراً قطعنا خلالها قرابة ستمائة كيلومتر وأثناء تلك الرحلة كدنا نموت من احتراق اجسادنا من مياه البحر أو من عنف أسماك القرش المفترسة وأخيراً المعركة الجوية بين الطائرات المصرية والإسرائيلية والتي انتهت بتدمير العوامة وقذفها خارج المياه.

كنت أتذكر ما حدث للطفل شادي وأن الله الذي حمى موسى حين ألقيه أمه بأليم، هو أيضاً الذي حمى شادي وألقي به فوق أشجار المانجروف اللينة والتي تحتوى علي حبيبات ماء عذب الطعم ثم نزوله من فوقها ولقاؤه بالماعز والغزلان وكيف تم هذا وما الذي دفع أنثي الماعز لأن تبذل من أسلوب حياتها في إرضاع صغارها وقوفاً إلي أن تنام علي جانبها الأيمن كي يظهر ضرعها واضحاً أمام الطفل فيقبل عليه يرتوى بهذا الطعام الإلهي الذي كونه الله من خليط من الأعشاب والمياه بداخل هذا الحيوان العجيب.

أيضاً كيف ظل الطفل في حماية ذكور الماعز وما شاهدته رؤيا العين لهو أكبر دليل حين لقيته ورغبت بأخذه وسمعت أنثي الماعز تصدر صوتاً كأنها تخبر زوجها بأن يقوم علي نجنتها من هذا المعتدى علي صغارها

وحياتها الخاصة، تذكرت أيضاً زوجين من حيوان الضب الذى يشبه التمساح الصغير والذي أقبل ووقف أمامي يعالج الحيوان الآخر كأنه يقوم بتدريبي على كيفية علاج مادلين من حالة التسمم التي كانت أشبه بمرض الحمى.

ثم كيف تسمح أنثى الماعز لمادلين أم الطفل أن ترضعه بجوارها ثم تأخذه دون طلب النجدة من زوجها الفتوة المسيد تيس، لماذا تلك التفرقة؟ هل تعلم أن تلك أم وأنا رجل أو تعلم بأنني غريب عنه وهي أقرب الناس وأحنهم عليه، تذكرت هؤلاء المجرمين اللصوص الذين سرقوا ونهبوا مستودعات الجيش المصرى باليمن ثم هربوا من أعلى سفينة نقل الجند القادمة من اليمن لمصر كي تقدم يد المساعدة للجيش المصرى المنكسر الذى لاقى هزيمة منكرة كيف يصبح هؤلاء أبطالاً ويتسببون في قتل بعض رجال الكوماندز الإسرائيليين والاستيلاء على أسلحة والتدمير لطائرتين هليكوبتر واللذان مازالت الهياكل الحديدية الصداة تتبئ عن الحدث والبطولة، كيف تقوم مادلين بتوجيه أبناء القبيلة للعلم والعلاج وتقلب أمور القبيلة من الكسل والخمول وانتشار بعض الأمراض الخاصة بالنساء إلي أن تتطور إلي عمليات تصحيح وتعليم ونهضة حتي في السكن بل استطاعت أن تقيم أول مدرسة بالمنطقة وعيادة وصيدلية ومحل ترزى ومشروع بناء منازل خارج الكهوف والذى مازال مستمراً حتي الآن وبالتالي أصبح نصف سكان القبيلة يسكنون المنازل دون الكهوف وسوف يحول الشيخ عرفان الكهوف لتصبح مخازن للأطعمة والحبوب وأيضاً ملجأ لأفراد القبيلة حين الخطر كما أخبره رجال الجيش الهاربون الذين أصبحوا أزواجاً وأنجبت زوجاتهم بنين وبنات.

سمعت صوت الشيخ عرفان يرفع أذان الفجر، نهضت وتوضأت

وأديت الصلاة بعد أن أيقظت كل من مادلين وشادي، كانت مادلين قد أعدت أغراضها منذ مساء أمس، بعد نصف ساعة تناولنا خلالها كوب لبن من لبن الماعز ذى الطعم الجميل، شاهدنا إبراهيم الجعفري ومعه ثلاثة جمال حيث وقف أمام منزلنا ويجواره اثنان من أنثى الماعز الحلابة، نهض أغلب سكان القبيلة وأقبلوا مودعين ما بين متحدث معنا ومن يقوم بالبكاء، احتضنت النساء مادلين بعدها تحركنا وجلسنا بداخل البراميل البلاستيك وفردت الشمسية رغم أن الظلام مازال يعم المنطقة؛ سلمني الشيخ عرفان الرشايش الإسرائيلي بالإضافة لعدد من خزن النخيرة الإضافية التي عثروا عليها بداخل حطام الطائرة نهضت الجمال؛ حيث وضع إبراهيم الجعفري إناث الماعز علي أحد الجمال وركبت أنا ومادلين وشادي الجمل الثاني بينما ركب هو الجمل الثالث، تحرك الركب متجهاً إلي شلاتين ومنها غرباً إلي أندان علي مجرى نهر النيل القادم من السودان.

سار الركب بحيث جلسنا وظهورنا لاتجاه السير حتى لا تقاجتنا رياح أو زويدة هوائية محملة بالغبار فتؤثر علي أجسادنا، مازال الناس يقفون حول الشيخ عرفان ملوحين والبعض من النساء والفتيات يبكين الفراق، كانت أجسادهم الهزيلة تتناقص أحجامها أمام أعيننا وفي نفس الوقت مازلنا نلوح لهم وبدا أن التأثير قد وصل مداه مع مادلين فسمعت صوت بكائها من الجانب الآخر من الجمل، لا أستطيع رؤيتها لأنها وضعت الصندوق الخشبي فوق صنم الجمل وبالتالي أصبح حاجزاً بيننا وكنت أخشي الوقوف فييختل توازني وأسقط وتلك تعليمات إبراهيم الجعفري.

فقدنا رؤية أفراد القبيلة لبعد المصافاة ، أصبحنا نشاهد خلفنا

الصحراء القاحلة المترامية الأطراف، كنت أشاهد إبراهيم الجعفرى بالخلف  
يجلس علي الجمل بطريقة تدل علي التمكن وخفة الوزن، كان يجلس علي  
حافة الصنم الأمامية مانلاً بجسده للأمام ويتحرك بجسده جيئة وذهاباً مع  
حركة الجمل، يفرد ساقيه المتشابكتين من الأمام عند القدمين ووضعها علي  
رقبة الجمل، ويده عصا طولها يتعد المتر ويلف حول فمه وعينه لفاقة من  
القماش تغطي رأسه أيضاً، لم يكن واضحاً من وجهه سوى العينين.

كان يلوح لنا من حين لآخر ويتساعل إذا كنا في حاجة إلي الراحة من  
عدمه، ظللنا في سيرنا دون راحة أو كلل أو ملل رغم شعوري بهذا وأثناء  
الطريق كنت أناجي مادلين من حين لآخر متسائلاً إذا كانت في حاجة إلي  
الراحة كي تفرد ساقها علي راحتها أو تقوم باستبدال ملابس شادي التي  
تلوثت بفضلاته، تصمت قليلاً ثم تجيب:

. خلينا في طريقنا يا بابا عشان نخلص من رحلة ابن بطوطة، كنت أعتقد أن  
هذا الاسم التي كررته قبل هذا عدة مرات هو اسم لأحد أقاربها أو جار لهم  
ومن أجل هذا كنت أصمت ولا أتضايق حين سماع كلمة ابن بطوطة خشية  
أن أثور علي تصرفه المحب للرحلات والسفريات وبالتالي قد يغضب هذا  
مادلين، قررت أن أحترم مشاعرها وألا أهاجم قريبها ابن بطوطة بيه.

كنت من حين لآخر أشاهد المعزتين علي الجمل الآخر وهما تقفان  
وتظهران برأسيهما من خلال التجهيزة الخيش التي أعدت لهما، وتصدران  
أصواتاً فنتبه إليهما شادي وأسمعه ينددن ببعض كلمات تتخللها كلمات ماما  
وفي بعض الحالات أسمعه يناديني بلقب "عم جبر" فقد أصبح قادراً علي

النطق الصحيح لبعض الكلمات والأسامي، لقد تعدى عمره الأربعة أعوام كنت فرحاً بهذا الطفل الجميل، قبيل الغروب قرر قائد الرحلة السيد جعفرى أن نهبط من فوق الجمال لنحصل علي راحتنا فقد ضرب بنا المجهود جهداً كبيراً.

هبط من علي جملة برشاقة وخفة وبرك جملة ثم اتجه إلينا وطلب منا أن نتمسك بالتجهيزة التي نجلس بداخلها، هبط بنا الجمل ونحن نشعر بأننا سوف ننقلب علي ظهورنا جهة الخلف؛ حيث نشاهد مؤخرة الجمل التي تهبط آخر جزء بالجمل، خرجت بصعوبة من البرميل البلاستيك وقدم لي المساعدة وحركت قدمي بصعوبة واتجهت لمادلين فناولتني شادى الذى كان يعوم في فضلاته ووضعته أرضاً ورغب بالوقوف فمسقط أرضاً بينما حاولت مادلين أن تقف وكادت أن تسقط بداخل البرميل وأسرعت إليها وأمسكت بيدها وساعدتها علي الهبوط مثلما ساعدني الجعفرى.

وقفت مادلين تهتز وبدا عليها التعب والإرهاق؛ لقد قطعنا المسافة دفعة واحدة لفترة إحدى عشرة ساعة، أسرعت إليها بتقديم عبوة الماء، شكرتني وطلبت مساعدتي أثناء نظافة طفلها، كنت أصب عليها الماء بناء علي إرشادها، وتقوم بنظافة كل جزء من جسد الصغير الذى كان يلهو أثناء ذلك بمعكاسة أمه بالقبض علي خصلات شعرها، انتهت من نظافة جسده واستبدلت الملابس المتسخة بأخرى نظيفة من داخل الصندوق.

نظرت إليّ مرودة:

- بابا ، خليك مع شادى وأنا ح أروح ورا الصخرة دية عشان أبقى لوحدى

والجعفرى نايم جانب جملة، باتعبك يا بابا، ابتسمت لها وناولتها عبوة الماء وغادرت المكان وظللت الأعب شادى الذي جلس بحجزى يمعك تقني طويلة الشعر تارة وفي تارة أثناء تحدثي معه، عشر دقائق وأقبلت مادلين ثم أحضرت عبوة الطعام ونادت علي الجعفرى كي يتناول طعامه فشكرنا وأخبرنا بأنه يتناول "العجوة" أثناء السفر وبعض البلح الجاف.

جلست مع مادلين نتناول الطعام التي أعدته القبيلة والذي لا يخرج عن الجبن والخبز وبعض قطع العجوة، نهض الجعفرى وقام بإنزال العنزتين فحضرنا نوحنا وهما تماماً، أحضر الجعفرى عبوة بلاستيك وقام بحلب العنزة الأولى ثم العنزة الثانية، كانت كمية اللبن كبيرة وناولها لي، أخذت مادلين اللبن ووضعت منه كمية في الكوب التي تحمله معها ودفعت به للطفل الذي ظل يشرب منه لفترة حتى ارتوى وسكن وغفلت عيناه وخذ في نوم هادئ علي صدر أمه، تبادلت مع مادلين شرب اللبن وما تبقى ظل بالعبوة وقامت بتغطيته ووضعها بجوار الجمال المبارك حتى لا تضربه الماعز بأقدامها حيث كانت تتجول بجوارنا ترعي الكلاء، ساعدت مادلين للجلوس والنوم بداخل البرميل ولم تتم إلا بعد أن تأكدت أن شادى خلد في نومه بالبرميل الذي كنت أجلس به.

كانت مادلين راغبة بأن تقضي الليل بمفردها تحرك أجزاء جسدها براحتها وكان الطفل مقيداً لحركتها، نامت والتحفّت بالغطاء وأيضاً شادى بينما نمت أنا أرضاً بجوار الجمال المبارك والماعز مازلت تجوب المكان بحثاً عن الطعام كما نام الجعفرى بجوار الجمال بعد أن استطاع جمع بعض الحشائش ووضعها أمام الجمال الثلاثة، كان الطقس مائلاً للبرودة أول الليل شديد البرودة بعد

المنتصف ، ولولا نومي بجوار جسد الجمل الدافئ لتيسمت مفاصلي من البرودة.

سمعت صوت مادلين ينادي عليّ ونحنما أجبتهما سألتني عن أحوال شادي حيث كنت أنام أسفل البرميل الذي ينام به، أجبتهما بأنه بخير وسألتهما هل تشعر بالبرد فأجابتنني بأنها بخير والدفء يسرى بجسدها ومكان النوم مريح جداً، حمدت الله وأكد لي هذا أن الطفل يشعر بنفس مشاعر الراحة التي تشعر بها أمه، صباح اليوم التالي قبل ظهور أشعة الشمس في السماء سمعت الجعفري ينادي عليّ:

. حاج جبر، جوم يا راجل وجوم الدكتوراه والصغير من النوم، بدنا نتحرك وناخذ مسافة جبل الشمس ما تحمي علي الجمال، عاد الجعفري بعد قليل وما قام به أمس من حلب الماعز قام به في الصباح، كانت كمية اللبن المتبقية بالأمس والتي حلبت صباح اليوم كبيرة، بعد أن نهل شادي منها تناولت أنا ومادلين كمية منها وأضفنا له كمية من معجون البلح "العجوة" أما ما تبقى من اللبن فوضعتة مادلين في برطمان بلاستيك خصصته لهذا الغرض حتي تطعم شادي أثناء النهار فلا يستطيع الانتظار حتي المساء، تلك كانت تعليمات الجعفري الذي أخبرنا أيضاً بأن حلب الماعز في الصباح والمساء فقط.

استمر حالنا علي هذا الوضع ومضي علينا ثلاثة أيام كان الإجهاد والتعب وعوامل الطقس قد أثرت علينا وبالأخص مادلين وطفلها، بدأت أشعر أن السيدة تعاني من شيء ما ولكنها لا تبوح وتساعلت ذات مرة أثناء تحرك

الجمال وجاءت الإجابة من الجانب الآخر:

. اطمئن يا بابا .. أنا بخير وكمان شادي .. لم أعد أكرر السؤال وصباح اليوم  
الرابع وقبل بدء رحلتنا المعتادة جد جديد علي سير الرحلة، فقد اقترب مني  
إبراهيم الجعفري والاضطراب يادٍ عليه وهمس بأنني:

. حاج جبر ، فيه مشاكل جاية بالطريخ من أولاد العبايدة "القبيلة المنافمة"



## تطورات حدثت أثناء الرحلة

سقطت عليّ تلك الكلمات مدوية ، وشعرت أن الأرض تميد تحت أقدامي ونظرت جهة مادلين وطفلها وأتممت: يارب أنقذنا من الغمة التي جاية علينا تبهت علي صوت الجعفرى الذي قال إنه سيهرب بجمله وعلينا المكوث بهذا المكان المنخفض حتي موعد العصر أى قبل الغروب وسوف يقبل علينا لنستكمل الرحلة، توقف وأكمل حديثه: وإذا لم أعد حتي صباح الغد فإله يتولاكم لقد تعدينا المائة كيلو متر منذ غادرنا القبيلة علي ساحل البحر ومتبقي ثلاثمائة وعشرون كيلو وطريق الرحلة آمن إلا من مكان قريب من هنا يقع علي بعد خمسين كيلو من اتجاه الغرب؛ أى في طريق السير حيث يعيش هناك قطع كبير من الكلاب البرية المفترسة.

قاطعت حديثه مستسراً: قصدك السلعوة؟ نظر إليّ بحده متسائلاً: أنت تعرف عنها حاجة؟ أجبته بأنني شاهنتها قبل ذلك أثناء هجوم علي وكر للمجرمين قريباً من جبل المقطم بالقاهرة، أعلم أنها حيوانات فتاكة وشرسة طيب من خاطري وأخبرني بأنك مسلح وسوف تطيح بهم قتلاً إذا تعرضوا لك لكن المهم الحفاظ علي الطفل في مهده وهوجه فوق الجمل وإلا سوف يفترسونه في لحظات، أيضاً حين وصولكم منفردين إلي النيل قبل الشلال من جهة الجنوب احترس من التماسيح الكثيرة التي بتلك المنطقة فهي المنطقة المفضلة التي تضع فيه بيضها حتي يفقس، أنها تماسيح ضخمة قادرة علي الفتك بالحمار بل لو تجمعت بعض التماسيح تقضي علي الجمل وتتناول لحمه في خلال ساعات.

حاج جبر، أنا مغادر الآن وريفا معاك إنت والدكتوره والعيل الصغير  
انصرف الجعفرى ولم أعد أشاهده أمامي وخلال دقائق اختفى بجملة عن  
أعيننا.

نظرت إليّ مادلين الراغبة بمعرفة ما حدث، أخبرتها بكل ما قاله إبراهيم  
الجعفرى وتوقعاته لما يحدث بالطريق سواء من هجمات قبائل العباددة أو  
منطقة إعاشة الكلاب البرية أو التماسيح، نظرت إليّ في دهشة ووضعت يديها  
الاثنتين علي خديها ونظرت تحت قدميها ثم قالت:

- يعني مش كفانا كل اللي حصل لنا نقوم كمان ح نقابل كلاب متوحشة  
وتماسيح، فاضل إيه من المشاكل والصعاب، ليه يارب تعمل فينا كده، أنا  
وابني تعبنا ومبقيتشى متأكده أنه ح يوصل بخير لأجداده بالمعنيا، خلاص أنا  
فاض بيا الكيل.

لم يعد أمامنا أى خيار إلا انتظار الأمل بعودة الجعفرى بالمساء وإذا لم يعد  
حتى الصباح فهذا يعني أنه قد ألقى القبض عليه أو قتل علي أيدى أبناء قبيلة  
العباددة، بعد قليل تحركت صعودا لأعلي التل كي أعلم ما يدور حولنا فنحن  
نقبع في واد منخفض عن سطح الأرض بعمق يزيد عن عشرة أمتار، مجرد أن  
طلت عيناي مسطح الأرض حتي شاهدت غباراً قادماً من اتجاه الشمال إلي  
الجنوب كما قال الجعفرى الذى استطاع بخبرته أن يسمع وقع أقدام الجمال  
ويشم رائحة العباددة التي تحملها رياح الشمال دائماً ولهذا فهو فضل الهرب  
بعيداً عن تلك المنطقة لأنها منطقة نزاع بين قبيلته وقبيلة العباددة ولهذا فهو  
راغب أن يظل خارج المنطقة فإذا حضر هذا الجيش الجرار فلا يعثر عليه

وتوقع عليه عقوبة يحددها شيخ القبيلة.

ظللنا جالسين لا نتحدث ولا نأتي بأى حركة كي لا نكشف أنفسنا ونقع في مشكلة بين القبيلتين دون ذنب أو جريرة حدثت منا، لم يكن يقطع هذا الهدوء القاسي سوى بكاء شادى أو أصوات الماعز من حين لآخر، تعدى الوقت الظهيرة ثم تلاه وقت العصر وشعرنا بأننا نحيا بمفردنا علي كوكب الأرض بل لم نعرث علي طيور بالسماء، فالمنطقة فقيرة بالحياة، أقبل الليل ولم يأت الجعفرى، نهضت متكاسلا أؤدي صلاة العشاء وظللت بعد الانتهاء من الصلاة انظر إلي السماء لعل الله يرسل إلينا بقبس من غده يهدينا إلي طريق الخير لنترك تلك المنطقة السيئة، ناجيت الله: بل عاتبتك بأنه الخالق والذي يطلب منا حين العثرة أن نطلب منه العون والمساعدة، لماذا يا ربي تتركنا هكذا وليس معي بعدك سوى تلك السيدة الصغيرة قليلة الحيلة وطفها الصغير الذى تخطي الأربع سنوات من عمره، قف معنا وإرسل لنا برسول من عندك يقدم لنا يد المساعدة بدلا من أن نموت هنا ولا نجد أحداً يقوم علي مواريتنا الثرى.

جلست مادلين في الهودج مفتوحة العين والأذن ومن حين لآخر تتأدى علي كأنها تبغي أن تطمئن نفسها بأنني ما زلت علي قيد الحياة، هدى الطفل والماعز بعد أن قمت بنفس العمل الذى قام به الجعفرى من حلب الماعز وتناول لبنه ووضع العشب أمام الجميلين الهادئين كأنهما تدريبا علي تلك المواقف، كانت الأمنيات تزودني بأن يقبل الجعفرى بل طلبت من الله أن نقع أمرى في أيدي رجال العبادة أعداء البشارية، فلما في نزاع مع القبيلتين.

أطل علينا ضياء الصباح ولم يعد الجعفرى، توترت مادلين، بل أنها امتنعت عن شرب لبن الماعز التي قمت بحلبه منذ دقائق، أخبرتها أننا سوف نتحرك بعد ساعة والله هو مرشدنا فلن نظل بهذا المكان، كانت تراودها فكرة بأن الجعفرى قادم بينما كنت متأكداً أنه لن يأتي وقد أخبرني بما لا يدع مجالاً للشك بأنه مطارده من هؤلاء القوم فكيف يلقي بنفسه بين أيديهم، تحركنا ولم أتخير طريق المسير لأن الجمال تعلم طريقها بين الصخور والرمال المحيطة بنا بدأت عواصف الشتاء تثير الرمال التي أصبحت مثل رصاصات دقيقة تلهب الوجه أو أى منطقة تتعرض لها ومن أجل هذا احتميناه بالهودج أو البراميل تلك العواصف قللت من درجة الحرارة فأراحت الأجساد المتوترة الناتجة.

كنت أشعر بأن الجمال تسير يهدوء وليست مسرعة وأرجعت هذا للطقس السيئ الرديء، أقبل الليل فحدثت الجمل وأنا راكب فوقه " نَخَخَخَخ" برك الجمل وتبعه زميله، كانت الرياح قد هدأت وقامت مادلين بتكرار ما تقوم به مثل كل يوم، نظافة شادى واستبدال ملابسه وغسل الملابس المتسخة ونشرها فوق سمن الجمل وتناول الطعام الذى يحتوى في الغالب على لبن الماعز الذى قمت بحلبها منذ دقائق واستطعت جمع بعض العشب ووضعته أمام الجمالين لم يحدث شيء غير طبيعي في تلك الليلة، واصلنا طريقنا لليوم السادس ومازالت الصحراء القاحلة تحيط بنا.

منتصف النهار شاهدت بعض الطيور تحلق في السماء علي شكل دائرة وتهبط بالتوالي والبعض منها يصعد ثانية، تأكد لي أن بهذا المكان نبعاً للماء نستطيع أن نمسبدل المياه التي بحوزتنا والتي مضى عليها قرابة أسبوع منذ أن

قام رجال الشيخ عرفان بتجهيز وإعداد تلك الرحلة الصعبة، واصلنا تحركنا حتى وصلنا إلى مسافة قريبة من المنطقة التي تحط بها الطيور، كانت المفاجأة أن شاهدنا حيواناً ناقماً والطيور تنهش لحمه، كان المشهد يدل علي أن الحيوان نفق منذ فترة وأن الطيور تقوم بالتهام باقي جسمه، وكما يقول البعض "لقد لعب الغار بعبي" شعرت بأن هذا الحيوان لم ينفق من تلقاء نفسه ومن المحتمل أن حيواناً مفترساً هاجمه، خلال هذا لم نعر علي مصدر مياه جديد، استكملنا رحلتنا وتعدى الوقت عصر هذا اليوم فطلبت مادلين الراحة هبطنا من فوق الجمال وقبل أن تقوم مادلين بحمل طفلها من داخل الهودج سمعت صوتاً أجش فنظرت قريباً مني فشاهدت أحد الكلاب البرية التي حنثني عنها الجعفرى.

كان الجمال الآخر قد برك وقفز من فوق ظهره العنزتان تهزان زيلهما من أثر الربطة القوية فوق ظهر الجمال بينما شادى مازال جالساً بالهودج البلاستيك يلعب نفسه، توقف تفكيرى فجأة كما أسرع مادلين تحتمى بي وفي تلك الثواني شاهدنا أعداداً كبيرة من تلك الكلاب تسرع في اتجاهنا، كانت الأحداث تجرى مسرعه، فى لحظة قفزت إحدى إناث الماعز إلي الهودج البلاستيك المواجه للطفل وفي نفس اللحظة نهض الجمالان ولاذا بالفرار ومن حسن حظي أن الرشاش كان قريباً مني ولكن لم أستطع الحصول عليه؛ لأن أى حركة سوف يتبعها هجوم كاسح للكلاب التي فتحت أفواهها وظهرت أنيابها القاتلة وبدأ أننا سوف نصبح جثثاً هامة خلال دقائق، أطلقت مادلين صرخة مدوية حينما شاهدت الجمال يهرب بطفلها ونحن بهذا الموقف؛ فى تلك اللحظة شاهدت منظراً لا يتكرر أبداً لأنه مخالف للطبيعة التكوينية، أنثى الماعز الثانية شاهدتها تسرع في اتجاه قطع ٩٥ الكلاب تهاجمه بقرونها القصيره ولم

تظهر بعد هذا إذا مزقتها الكلاب وسمعت أنات صرختها الأخيرة خلال ذلك  
تمكنت من الإمساك بالرشاش وفتحت النار في اتجاه قطيع الكلاب الذي  
تتأثر أجزاء كثيرة من أجسادهم وانتشرت الدماء بكل مكان وبدا صوت  
صراخها يقل رويدا .. رويداً وحشرجة الموت تنتقل من كلب لآخر حتي ماتت  
جميعها، خلال هذا رغبت مادلين في الدخول إلي وسط الكلاب القتيلة لإنقاذ  
العنزة فمنعتها بقوة وصلف نظراً لأن بعض الكلاب مازالت علي قيد الحياة  
وتعاني سكرات الموت ومن الجائز بل من المؤكد أن أحد الكلاب سوف يمزقها  
إذا تمكن منها، كان رد فعلها أن لازمها الغضب والضيق وهاجمتني وضربتني  
بخشبة كانت قريبة منها وتلك الخشبة كنت أستخدمها في شد أحبال الشمعية  
فوق الجمل.

كانت الضربة موجعة ولكن الأشد إيلاًماً هو سبابها لي بأسلوب لم أسمع  
منها خلال الأعوام الماضية، تبدلت السيدة وأصبحت مثل النمر الجسور، بل  
أقبلت ناحيتي وأنا ملقي أرضاً بسبب الإصابة محاولة الحصول علي الرشاش  
كي تقتلني حيث علا صراخها وأني الذي تسببت في فقد طفلها، شعرت أن  
نهايتي سوف تكون علي يد من أنقذتها ووقفت بجوارها، أسرع وأخذت حجر  
بجوارى ودفعته في اتجاهها فصرخت وسقطت أرضاً والدماء تنزف منها  
جلست بصعوبة محاولاً التنفس من المجهود والانفعال، بعد دقائق أفقت  
وتنبهت وشعرت بمدي الكارثة التي قمت بها، صرخت مردداً: لقد قتلت ابنتي  
أنادى عليها: مادلين أسرع زحفا إليها محاولاً إفاقتها وتبين لي أنها ماتت  
متأثرة بقذف الحجر الذي أصاب صدغها والدماء غزيرة من الوجه الأيمن

والحاجب ومنصف الرأس حيث كانت الدماء تتبثق من خلال شعر رأسها.

جلست بجوارها باكياً حزيناً لا أعلم ما سوف أقوم به، لقد أصبحت بمفردي وليس لدى طعام أو شراب فكل شئياً فُقد وضاع كما ضاع الطفل الذي شاء حظه العائر أن يهرب به الجمل كما هربت العنزة الثانية وماتت الأولى وباقي المياه فوق الجمل الثاني وماتت حبيبتي ابنتي التي لم أنجبها جلست صامتاً ولم يعد معي سوى هذا السلاح الفتاك الذي قتل تلك الحيوانات الشرسة ولولاه لقتضت علينا تلك الكلاب المتوحشة، تنبّهت بأني قتلت رفيقة رحلتي والتي أعتبرها مثل بناتي بقريتنا، كيف تصرفت هكذا والجميع يعلم عني الهدوء والحكمة، لكن ما قامت به مادلين معي آثار حفيظتي حيث كانت ضربتها قوية فقد جاءت علي مؤخرة رأسي وشجت فروة الرأس وسالت الدماء وكان أخطر ما في تلك التصرفات هو محاولتها الحصول على السلاح، وهذا معناه قلتي طالما بدأت بضربي بالعصا فسوف تنهي حياتي بالرشاش.

شعرت بأنه لا بد لي من ترك هذا المكان الكريه فكل شيء سيئ حدث هنا، كان منظر الكلاب القتيلة والتي تعدى عددها تسعة كلاب بالإضافة إلى العنزة يبعث علي الضيق وسوف يدفع بحيوانات أخرى كي تقبل وتتناول جيف تلك الكلاب، فكرت بأن أقوم بدفن مادلين بهذا المكان ولكنني ترددت حيث إن دفنها بالقرب من تلك الحيوانات سوف يدفع بالحيوانات أكلة الجيف للحصول علي جثمانها وتتاوله، من أجل هذا قررت نقلها لمكان آخر بعيداً عن هذا المكان، مازال متبقي جزء من ضياء هذا النهار الدامي.

علقت المدفع الرشاش علي كتفي مثلما كنت أفعل أيام الدوريات الأمنية

وأنا شاب، رفعت مادلين بحيث عدلت جسمانها كي أحملها علي ظهري مثمما يحمل إنسان جوالا كي أستطيع السير بها لمسافة بعيدة عن هذا المكان، الحمد لله فلم يكن وزنها ثقيلًا، سرت مسافة طويلة لا بأس بها وجن الليل ومازالت سائراً؛ كنت أشعر بأن كل خطوة أخطوها في الاتجاه المعاكس لتلك المنطقة التي ترقد بها جثث الكلاب تعتبر أمان لي ولجثمان مادلين والذي قررت أن أقوم بالحفر ودفنه بالصباح، أثناء سيرى شاهدت على ضوء القمر ما يشبه الكوخ ولكن بدون حوائط، توجهت إليه وأنزلت جثمان مادلين برفق وفردت جسدها علي الأرض، أصبح جسدها مسجي ووضعت يديها بجوارها قبل أن تتييس المفاصل وتحدث لي مشكلة أثناء دفنها.

جلست قريباً منها بعد أن إستندت بظهري علي جزء من حائط مازال قائماً لم أشعر بأى شيء حيث دخلت في نوم عميق؛ أثناء النوم هاجمبني الكثير من الهلوس لكن أجمل رؤيا شاهدتها هي مشاهدتي لمادلين تحدثني وتهز خدي وتنادى عليّ بالكلمة الرقيقة بابا، أخبرتها بأنني قتلتك ولكنها مازالت باسمه تحرك خدي ذات اليمين وذات اليسار وصوتها الناعم الرقيق يردد: بابا قوم بقي كفايه نوم، فتحت عيني لأشاهد مادلين أمامي وعيناها بعيني وأنفها يقارب أنفي فتأكد لي أن هذه روحها ونظراً لأنني الذي قتلتها فالروح تأتي كي تنتقم ممن أزهقها، صرخت وحاولت الهرب ولكني سقطت أرضاً وأنا أتلو بعض قصار السور وأناجي ربي بأن يبعد هذا العفريت عني.

شعرت أنها تجلس علي ظهري وتردد: بابا سيبك من الخوف وكفايه اللي حصل، كنت ح تموتني لكن ربنا نجاني وصحيت لقيتـك جانبي، قوم خلينا

نشوف ح نعمل إيه، بعد أن نهضت من فوق ظهري صححت وضع جسدي ومازالت أدقق النظر بها خلال ظلمة الليل، جلست وأصبحت مواجهاً لها اقتربت مني ويكت ووضعت رأسها علي كتفي تسألني عما يجب أن أقوم به لعودة طفلها؟ طمأنتها بأنه بخير حيث مازال بالتختروان فوق الجمل وسوف يصونه ويحميه، لم تفتنع بهذا وظلت قريبة مني كأنها تطلب الحماية من شخصي وأنا الذي أصبحت أرتجف لما شاهدته فلم تعد مقدرتي الصحية وعمرى يسمحان لي بتلك المفارقات الصعبة.

أطل علينا نور الصباح ونحن مازلنا علي حالنا، تبثني آلامها من حين لآخر وأنا أهدئ من روعها، ظهراً ضرب بنا العطش وآخر النهار هاجمنا الجوع، قاومنا وتحملنا فليس أمامنا شيء نفعله سوى طلب مائدة من السماء تهبط علينا أو ملائكة الرحمة ترسل لنا الطعام، اليوم التالي زاد العطش وجعل مادلين في حالة سيئة نظراً لرقّة بشرتها مع العطش ودرجة الحرارة المرتفعة نهاراً شديد البرودة ليلا جعلها في حالة سيئة ومازلت عاجزاً على الحصول الطعام أو الشراب، أصبحت فكرة البحث عن الطفل مجرد أوهام وعبث لا خير من ورائه.

نهار اليوم الثالث شعرت بأنني لحقت بمادلين؛ كنت أغفو وأصحو وأشاهدها علي حالها تتلوى ألماً تطالب بالمياه وتتأدى علي طفلها وتردد: "ميه .. شادي" بينما كنت أعتقد أنني في حلم وكابوس شديد، من حين لآخر كنت أنتبه علي الذباب القادم لتحيتنا ورغم هذا لم أتحرك ساكناً، مازال حالي كما هو وشعرت أو شاهدت رؤيا بأن جملين أقبلا قريباً منا ثم برك الجملان ومن

فوق أحدهما قفزت عنزة اختفت في مكان ما فترة ثم عادت، كنت سعيداً بتلك الرؤيا ولكني سمعت صوت بكاء طفل وصعود العنزة فوق سنم الجمل واقتربها من هودج الطفل، كل هذا دفعني لليقظة والانتباه فنهضت وسرت في اتجاه ما اعتقد أنني أراه حتي شاهدت العنزة تقف فوق سنم الجمل والطفل يقف في هودجة يرضع لبنها، لم أتمالك نفسي ومسقت مغشياً عليّ ثم تنبّهت علي حركة قريبة مني ففتحت عينيّ فشاهدت الجمل الآخر الذي كانت تركبه العنزتان يحاول إفاقتي بدفع وجهي وجسدي بقمه، جلست منتبهاً ثم نهضت ووقفت بجواره فسار أمامي وأنا أتبعه حتي تعدينا الجمل الآخر والذي يقف فوقه شادي يداعب العنزة وهي تماماً له بما يعني انتهى من طعامك فوراني أعمال أخرى.

بعد بضع خطوات والجمل مازال سائراً شاهدته يهبط منخفضاً وشاهدت بعض أشجار نخيل صغيرة وأشجار تين ورمان وقريباً منها نبعاً من الماء يخطف الألباب، أسرعت الخطي وألقيت بنفسي بجوار الماء ووضعت رأسي بالبريه بداخل العين أشرب من هذا النعيم حتي ارتويت، نهضت واقفاً وصعدت المرتفع وبحثت في هودج الجمل فعثرت علي الكوب، شاهدني شادي فمد يديه نحوي فاقتربت منه ألسم يديه الرقيقتين الناعمتين بينما وضع يديه في فمي وعيني، تركته وأسرعت بعبوة الماء وفرغت ما بها من ماء مضى عليه عشرة أيام وملأت العبوة بالماء الزلال المنعش البارد وعدت مسرعاً إلي مادلين ومازال الجملان يبركان، بكل صعوبة نهضت مادلين ووضعت حافة عبوة الماء علي فمها فمسكت العبوة بأسنانها وظلت تشرب الماء حتي كدت أخبرها بأن بطنها سوف تنفجر .

جلست قليلا تمتوعب الأحداث وأثناء ذلك سمعت صوت شادي ينادى عليها " ماااااا ماااااا " صممت لحظة وتحركت عيناها ونهضت مسرعة تنظر في كل اتجاه حتي عاد الطفل يناديها فأسرعت في إتجاهه ولم تشاهد الجمل الآخر الذى كان باركاً بين الجمل الذى يجلس طفلها فوقه فالجمل الآخر في طريق سيرها فتعثرت به ثم نهضت ووصلت لطفلها وأمسكت به وحملته ووضعته فوق الرمال ونامت فوقه فصرخ حتي كاد أن يلفظ أنفاسه فخلصت ما بينهما عادت بي الذاكرة لأكثر من عامين ونصف مضي حين قامت بنفس هذا الملوك حينما كان الطفل يعيش وبحيا مع قطيع الماعز ، نهضت ونظرت إلي طفلها ثم أقبلت حانية عليه تلحق جسده بلسانها وشفاهها الملتهبة من العطش، بعد قليل نهضت وحملته وأنا بدورى سرت بجوارها وهناك قريباً من عين الماء أخذت تنقل الماء بالعبوة وتنظف جسده حتي أزلت عنه كل قذارة طالته خلال الفترة الذى تغيب فيها عنا، اتجهت بعدها للصندوق الخشبي فوق الجمل وأخرجت له ثياباً نظيفة ووضعته علي ساقها فنام ملء عينه وهي تنظر إليه بكل حنان وعطف خلال ذلك كنت قد طبخت العنزة وأحضرت لها اللبن فشربت وارتوت واقرتني مني ووضعنت قبلة طيبة علي جانب وجهي الأيمن مكررة أسفها بما حدث منها.

ظللنا حول البئر ثلاثة أيام نتمتع خلالها بظل الكوخ الخالي من الحوائط وأيضاً المياه المتوفرة بالعين المجاورة لنا ولبن الماعز وطعام الجمال والماعز من الكلال المتوفر حول عين المياه، حمدت الله في صلاتي وطلبت منه ألا يعيد علينا الأيام السابقة وأن يحافظ علي حياة مادلين وطفلها الذى اختفي عنا مرتين، كنت في حيرة، كيف ظل الطفل ثلاثة أيام علي قيد الحياة ومازال بصحة جيدة، تبين لي أن الماعز ١ . فكانت تسمى للجمل برغبتها بالمياه

فيتجه لبئر المياه فتعب منه وترعى بعض الأعشاب ثم تنقز في الهودج المقابل للهودج الذى يقيم به الطفل وتظل معه تطعمه من لبنها كما يقوم الجمالان بالرعى مع الماعز ويشربون من البئر وتبين لي أن هذه هى البئر التي اعتمدت عليه الجمال والعززة خلال الأيام السابقة.

كنا في حيرة، هل نظل بهذا المكان أو نتحرك لمكان آخر؟ اليوم الرابع لنا بهذا المكان والذى يعتبر المتمم للشهر منذ غادرنا القبيلة وأيضاً مضي ما يقرب العشرين يوماً علي اختفاء إبراهيم الجعفرى شاهدنا عن بعد قافلة جمال تتحرك في اتجاهنا، لم نتحرك وظللنا علي وضعنا، ازدادت صورة القافلة وضوحاً رويداً .. رويداً حتي تأكدت منها، كانت قافلة كبيرة العدد من الجمال والأفراد الذين أقبلوا مسالمين طالبين الإمداد بالمياه وعلمت منهم بأنهم سوف يظلمون بتلك المنطقة عدة أيام للحصول علي الراحة.

كانت تلك القافلة ذات امكانيات كبيرة، فلدبيهم مؤن ولهذا أعدوا أطعمة كثيرة وطلبوا منا مشاركتهم الطعام، أثناء تبادل الحديث والتعارف أتوا علي ما قمنا به من قطع تلك المسافة التي تعدت خمسمائة كيلومتر، وحينما سألناهم عن المسافة المتبقية للوصول لنهر النيل من هذا المكان أشاروا إلي أنه قريب منا أى لا يبعد عن هذا المكان إلا بعدة كيلومترات بينما تحدث آخر قائلاً: عين الماء تلك تسريب من نهر النيل من خلال الرمال، كانت وجهة الرجال قرية قسطال ومن أجل هذا طلبنا أن نلحق بهم فوافقوا، ظللنا عدة أيام تحسنت خلالها حالتنا الصحية والنفسية كما تلاشي الورم الناتج من الإصابة التي لحقت بمادلين نتيجة قذفي لها بالحجر والذي كانت خلاله أن تلقي مصرعها.

علمنا منهم تاريخ تلك الفترة حيث كنا في منتصف شهر يناير من عام ١٩٧٠ بعد مضي خمسة أيام تحرك الركب متجهاً إلى قرية قسطال كانت الرحلة هينة لينة، وصلنا إلى القرية صباح اليوم التالي وعلمنا أنها تقع جنوب الشلال الأخير علي نهر النيل وعندما تساءلت عن التحذير من التماسيح لم يهتموا كثيراً ولكن النصيحة هو الابتعاد عن المناطق الرملية قبل الشلال حيث تضع التماسيح بيضها وتترك البيض في حراسة عدد من الذكور المفترسة ولهذا فالأجدى البعد عنه وطالما ترغبان في استكمال الطريق إلى قرية أوندان فلن تصلا إلى منطقة التماسيح تلك.

حدث وداع وإفتراق بيننا؛ لقد كان اللقاء بتلك القافلة من أحسن وأعظم أحداث تلك الرحلة والتي إستمرت شهراً وما نحن نقرب من منتصف شهر فبراير، لم يكن معنا نقود كي نشترى أغراضاً لنا ولهذا اقترح أحد الرجال هناك بأن نقوم ببيع أحد الجمال ونحصل علي ثمنه نقداً أو في صورة أغذية ومشتروات نحتاج إليها، فكرت مع مادلين ووجدت أن جملين لا فائدة منهما معاً ونحن نحتاج إلي أموال سائلة كي نتناول طعامنا ولا نظل نلهث خلف الآخرين مثل الشحاذين، وافقت علي اقتراحي وبالفعل قمت ببيع أحد الجمال وحصلنا علي ثمنه بضعة جنيهات قممنا بشراء بعض أغراض لنا وبالأخص ملابس تخص شادى وجلباب جديد لمادلين بينما رفضت شراء أي ملابس لي رغم أنني شعرت أن البدلة الميرى الصوف السمراء قد أصبحت مثل المنخل لكنني كنت مصمماً علي استمرار العيش بها حتي إذا مد الله في أجلي ووصلنا إلي هدفنا أتجه لمديرية الأمن وأسلم البدلة والبريه والسلاح وجوز الكلايشات وأتسلم عهدة جديدة تكفييني حتي أحال إلي المعاش بعد ست سنوات.

كانت سعادة مادلين لا مثيل لها، فقد شعرت بعد ارتداء الجلباب التي تخيرته بأنه مناسب لها وأصبحت أنثي كاملة بدلا من الجلباب التي كانت ترتديا ويشبه جلباب الرجال من البدو كما أنها استطاعت أن تشتري بعض ملابس داخلية وخارجية لشادي كي يتمكن من استبدال ملابسه بالإضافة إلى شرائها بعض قطع صابون للوجه وعدد من فوط الوجه وأشياء أخرى كانت الحصيلة طيبة كما ابتاعت علب جين وخبز جاف يتحمل السفر الطويل وبعض عبوات العسل والمربي.

أخذنا الطريق إلى أوندان تاركين قسطال مع القافلة، كان الطريق طبيعياً وليس به أي مشكلات حيث كنا نسير بمحاذاة نهر النيل ولا نبتعد عن فرعه إلا بمقدار الهضاب والأودية التي تعرقل السير حيث كنا نتبع المدق الذي تسير عليه القوافل بتلك المنطقة.

## الطريق إلى أُنْدان

لقد أصبح لدينا جمل واحد وعنزة، ولهذا أعدت ترتيب السير علي أن يستقل كل من مادلين وطفلها الجمل بينما أسير خلفه وبقوارى العنزة، غمرنا شعور بالسعادة حينما تابعنا السير علي الضفة الشرقية لبحيرة ناصر، كانت البحيرة رائعة وضخمة ولا أستطيع مشاهدة الجانب الآخر لها رغم أنها لم تمتلئ بالماء بعد فمازال العمل بجسم المد العالي جارياً علي قدم وساق، أخبرنا البعض بأن المد مازال أمامه عامان أو أكثر حتي يتم الانتهاء منه لكن أهم شيء أسعدنا بتلك المنطقة هو وجود الماء، من حين لآخر كنا نلتقي ببعض التجار أو الرعاة، شعرنا بأننا تركنا المجهول إلي المعلوم ولم تعد هناك مخاطر بطريق العودة وتأقلمنا بأننا قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الهدف بالوصول إلي المنيا بعدها أعود أدراجي لأحصل علي راحة عدة أيام بقريتي بمحافظة أسيوط أقوم بعدها بتسليم نفسي إلي مديرية أمن السويس التي كنت أتبعها قبل قيام الحرب.

كانت مساعدتي كبيرة ولهذا انتابني شعور قوى بالسعادة بأنني قد نجحت بفضل الله ويفضل العزيمة التي لحقت بي بإتمام رعاية وإنقاذ مادلين وطفلها كنت أشعر بأنه لو وفقني الله في تحقيق هذا الهدف فسوف أشعر بالسعادة والفخر طوال حياتي الباقية، من حين لآخر كانت مادلين تنتظر للخلف من فوق الجمل تتأدى علي:

- تحب يا بابا تريح هنا وأنا أمشي رجلي شوية ورا الجمل، كنت أجيبها بابتسامة صافية معبرة أكثر من الكلام وأشير إليها بأن ظلي بمكانك فأنا مستريح، كانت العنزة تشعر بإرهاق لطول المسافة نظراً لأن هذا عبء

بدني علي العنزة لا تستطيع تحمله، حاولت مادلين أن تأخذ مني الحبل الطويل الذي كنا نضعه فوق الجمل المباع والذي تركه لنا المشتري قائلاً بأنه قد يفيدنا إذا قمنا بوضع أحمال فوق الجمل الذي احتفظنا به، شكرت مادلين وأبقيت الحبل أحمله علي كتفي والذي كان مرتباً علي هيئة دوائر فإذا هاج الجمل فمن الممكن أن أضع بداية دائرة الحبل حول رقبتة بنظرية النظر من بعيد أو التصويب ثم أقوم بربط الحبل بأى شجرة أو عمود كانت الطريقة مشابهة لما كان يعرض من أفلام أجنبية يطلق عليها اسم رعاة البقر.

اقتربنا من منطقة الشلال الأخير والذي يعتبره التجار بداية الطريق الواصل بين مصر والسودان رغم أنه يقترب من منطقة أوى سمبل الميناء السابق لرسو مراكب الملاحه بين البلدين، كانت هناك مساحة كبيرة تحتوى علي حديقة غناء طبيعية تكثر بها النباتات وأشجار الدوم والتين والرمان وبعض أشجار النخيل، طلبت مادلين أن نتوجه لتلك المنطقة للحصول علي راحة لبعض الوقت، بالفعل كان الإجهاد قد بلغ منا مبلغاً كبيراً ورغم أننا مازلنا في فصل الشتاء ورغم أن الوقت منتصف شهر مارس من عام ١٩٧٠ إلا أن درجة الحرارة كانت مرتفعة للغاية، دخلنا المنطقة باحتراس ولم أشاهد أى أثر لتماسيح النيل التي حذرني منها إبراهيم الجعفري، برك الجمل وقفزت مادلين من الهودج بينما ظل شادى بمكانه نظراً لإستغراقه في نوم عميق.

بعد قليل نهض الجمل بينما كانت مادلين تتجول بين الأشجار منبهرة بتلك المناظر الطبيعية الخلابة، كانت السيدة مشتاقة إلي المزروعات والحدايق التي إعتادت علي مشاهدتها والتي تنتشر بمحافظة المنيا المطللة علي النهر العظيم

طلبت منها الاحتراس حتي لا نفاجأ بشيء غير متوقع، ضحكت بملء فيها وهي ترد:

. بلاش خوف يا بابا، وصلنا إلي طريق السلامة، لو اتبعنا النهر فسوف نصل إلي محافظة المنيا، لا أعلم إلي أين سارت ولكن بعد قليل سمعت صرختها تتادى علي وتمتغيث بي كي أحميها من بعض تماسيح النهر؛ توقفت لبرهة ولا أعلم إلي أين وصلت أثناء تجولها بين الأشجار الكثيفة، مازالت الاستغاثة متكررة يغلب عليها الخوف والهلع، في تلك الأثناء شاهدت الجمل يعدو بأقصى سرعة تتبعه العنزة، أعددت الرشاش وأنا في حيرة، هل أتبع الجمل كي أحافظ علي حياة الطفل أو أتوجه لإنقاذ الأم وأثناء هذا شاهدت أحد ذكور التماسيح الضخمة قادماً في اتجاهي فاتحاً فمه الواسع وأسنانه واضحة كأنه يخبرني بأنني قائم لتمزيق جسدك الواهن الضعيف.

مازالت مادلين تصرخ وفي تلك اللحظة وقبل أن يقترب التماسيح مني بمسافة لا تقل عن عشرين متراً أطلقت عليه دفعة من المدفع الرشاش وعلي الفور شاهدته يتلو وخمدت أنفاسه، تركته ودخلت أعده بين الأشجار، هناك شاهدت مادلين بأعلي شجرة نخيل بعد أن تسلقت ساقها بما لا يزيد عن المتر ونصف ارتفاعاً عن سطح الأرض وثلاثة تماسيح ضخمة فاتحة أسنانها تحاول قضم إحدى ساقها ولا يفصل بين أسنان أي تمساح ومقدمة ساقها عن عشرين سنتيمتراً والمسيدة ما زالت تصرخ والهلع هو حالها حيث كانت يداها ترتجفان وخشيت أن تسقط أرضاً من أعلي ساق شجرة النخيل، بأسرع ما يكون أطلقت من المدفع الرشاش عدة رصاصات في اتجاه التماسيح فخمد اثنان، ونفدت الذخيرة وأصبحت في وضع لا أحسد عليه ، لقد تأكد لي أن هذا التماسيح

سوف يمزق جسدى وجمد مادلين، شاهدت التمساح قادماً ناحيتي مسرعاً وكأنه يقفز، هرولت أمامه حيث كانت المسافة بيني وبينه قصيرة، وقعت أرضاً ثم نهضت مسرعاً، تذكرت الحبل بأنه قادر علي منع الجمل من الهرب، ووقت بمنطقة مرتفعة نسبياً والتمساح قادم في اتجاهي، وقف أمامي بعدة خطوات وليس أمامي من طريق للهرب إلا بربط التمساح بالحبل أو القفز من أعلي المرتفع ومن المحتمل أن أصاب لأن المنطقة الخلفية منخفضة بما لا يقل عن عشرة أمتار.

كان التمساح في وضع يساعد علي أن ألقى علي رقبتة الحبل فقد رفع رأسه لأعلي معتمداً على رجليه الأماميتين، سميت بسم الله وألقيت بالحبل في اتجاه التمساح الذي فطن لهذا وأسرع محاولاً الهرب لكن الحبل وقع خلف رأسه وقدمه الأمامية اليمنى وأدي هذا إلي تعثره فأسرعت وربطت الحبل بعد أن جذبته بجذع إحدى أشجار النخيل، حاول التمساح المقاومة حيث يلتف حول نفسه بحركة دائرية دون جدوى، شعرت بأنه سوف يختنق حيث ضاق الحبل علي رقبتة، سكن قليلاً خلال هذا أسرعت إلي شجرة النخيل التي كانت مادلين متشبثة بأعلاها.

حين شاهدتني صرخت وسقطت أرضاً بجوار التماسيح التي ماتت بنيران الرشاش، أسرعت إليها وحملتها مثلما حملتها بالسابق حين شعوري بأنها ماتت بعد أن قذفتها بحجر، كانت مادلين في حالة إعياء تام، أسرعت بها خارج تلك المنطقة، إستطعت السير بها مسافة بين الصخور؛ شاهدت التمساح المقيد الذي استطاع تحرير نفسه بعد أن مزق الحبل بأسنانه القوية؛ نظر في اتجاهنا

محاولا للحاق بنا، حاول أن يصل إلى المنطقة الصخرية التي أقف عليها حاملا مادلين ونظرا لأنني لم أستطع مواصلة السير من الإرهاق وثقل وزن السيدة، خاطر التماسح وحاول الهبوط مع الصخور كي يتسلقها وصولا إلينا ولكنه سقط من أعلي ومن المحتمل أن دق عنقه حيث أخذ يتلو ثم سكن.

جلست أستريح ووضعت مادلين بجوارى محاولا إفاقتها، تنبهت ونظرت من حولها وتساءلت عن شادي، طمأنتها بأنه بخير وسوف يعود به الجمل ثانية فقد أصبح الجمل هو الدادة والحارس الخاص به، أثناء هذا شاهدنا مجموعة من التماسيح الصغيرة التي خرجت بعد فقس البيض، الواحد منها في حجم المحلبي؛ كانت التماسيح الصغيرة تسرع إلي مياه النهر خشية درجة الحرارة والشمس الساطعة والطيور المفترسة من الغربان والحدأة والنسور الجبلي وبعض طيور النورس، بعد قليل غادرت إحدى إناث التماسيح المياه لكي تضع البيض أو كي تطمئن علي صغارها، حمدنا الله حيث كنا قد غادرنا منطقة الرمال ووقفنا بأعلي المنطقة الصخرية التي تعتبر آمنة من زحف التماسيح.

مازال جسد مادلين ينقبض من الخوف سواء مما حاق بها من حصار التماسيح لها أو من خشيتها علي طفلها، بعد قليل سمعت مأمأة العنزة فانشرح صدرى وأسرعت متجهاً إليها رغم ما أشعر به من إصابة وألم؛ وصلت إليها وهددتها علي ظهرها فمكنت والتصقت بي كأنها تطلب الحماية والأمن، بعد قليل شاهدت الجمل ينهض من خلف مرتفع من الرمال وشادي يحرك يديه منادياً علي أمه التي أسرعت إليه والتي كنت أتبعها أنا والعنزة.

أمرت الجمل أن ييرك "تخخخخ" هبط الجمل وحضنت الأم ابنها الذي

تحدث وهو باك لتركه تلك الفترة فوق ظهر الجمل وكاد أن يسقط من هذا الارتفاع، أخرجت مادلين بعض المون من طعام ومياه أعطته إياه مما جعله ينسي ما كاد أن يحيق به، مازالت العنزة قريبة مني تهز زيلها وكأنها تطلب منا الحذر واليقظة فليس كل مرة تسلم الجرة، بعد مضي نصف ساعة تقريباً تحركنا بمحاذاة النهر بعيدا عن مناطق الرمال؛ بعد ساعة زمن شاهدنا الشلال والمياه تنهمر من ارتفاع كبير إلي المنخفض بمنسوب النيل وقريبا من منطقة الشلالات شاهدنا أسرة من فلاحي النوبة ترعى قطعة أرض وتقيم عليها.

كانت سعادتنا لا توصف، ألقىت عليهم السلام ورحبوا بنا وكان الرجل وجلا من وجود شرطي بتلك المنطقة البعيدة عن العمران، قدموا لنا الطعام والماء، كنا في حاجة لزيارة دورة المياه والقيام بإجراءات النظافة الشخصية مما ألم بنا من عرق وجهه أثناء هجوم التماسيح الخطير والذي مازلت حين أتذكره يقشعر بدني، أفسحت السيدة زوجة المزارع المكان للسيدة مادلين ورافقتها لداخل المنزل بينما جلست بالخارج مع زوجها وأبنائهم الصغار، كما رافق شادي والدته، بعد قرابة نصف ساعة أقبلت مادلين بعد أن قامت علي نظافة ابنها ونظافتها الشخصية وبدا عليها الانشراح وصفاء الوجه وقالت:

- بابا ، ادخل وشطف نفسك، رافقتي رجل البيت للداخل ويعد أن انتهيت من نظافتي الشخصية توضأت وقمت بأداء صلاة الظهر والعصر جمع تأخير قدموا لنا الطعام الشهوي، عبارة عن جبن فلاحي وقشدة وخبز فلاحي له رائحة زكية نظرا لأنه طازج أعقبها تناول الشاي، جلسنا مع الأسرة كي نتعرف علي المنطقة وعلمنا كل شيء عنها وحينما أخبرته بما حدث مع التماسيح رفع يده

للسماء شاكرًا الله علي نجاتنا وأخبرنا بأن تلك المنطقة لا يقترب منها أحد حتي عصابات التهريب نظراً لخطورة التماسيح، لاحظت أنه يدقق النظر إلي المدفع الرشاش ويشير بأن الله سخر تلك البندقية التي بيدك لنقلنا من موت محقق.

أمضينا عدة أيام طيبة هائلة بتلك المنطقة، كانت مادلين من حين لآخر تتساءل: هل هناك تماسيح أخرى أثناء طريق العودة حتي المنياء؟ كانت الإجابة بأنه لا توجد تماسيح علي البر لكن التماسيح توجد في النيل حتي خزان أسوان، علمنا أيضاً أين مكان العبارة التي سوف نقلنا من شمال وادي حلفا حتي منطقة أبي سمبل جنوب أسوان، كانت أسرة عم عثمان هذا المزارع البسيط من أجود الناس كراماً وشهامة؛ كانت الابتسامة المشرقة تملو وجه عم عثمان وزوجته وابنتيه وولديه.

لم تكن النقود التي بحوزتنا قد تم صرفها بالكامل لكنها لا تكفي نفقات طريق العودة، كانت مادلين تشعر بضيق من أن يقوم الناس بتقديم كل الخدمات والطعام دون مقابل نظراً لأنني من رجال البوليس وقد اعتاد الناس في تلك المناطق علي هذا الأسلوب السيء رغم أنني لم أطلب من أي أحد منهم أي عون مادي لكنني أطلب العون الأدبي والمعنوي فقط.

### رحلة العبارة:

قدمت شكري لعم عثمان مقررًا مغادرة دياره في طريقنا إلي العبارة، حاول أن يستبقيني لفترة أطول ترحيباً وضيافة ورغم أنني قررت التوجه لمرسى العبارة فلم يتركنا بل رافقنا إلي المرفأ مضيفاً لقوله إننا سوف نمسقل عبارة المواشي

نظراً لوجود الجمل والعنزة معنا، عرضت عليه أن يأخذ العنزة كهدية فشكرني وأخبرني أن كل من الجمل والعنزة سوف يعودان علينا بالفائدة لأنه مازال الطريق أمامنا طويلاً ولا نعلم ما يخبئه لنا القدر ومن كرم وخلق هذا الرجل أنه أحضر ركوبة لي أي حمار كي أستقله حتي مكان العبارة التي سوف نعتقلها نظراً لأن كلا من مادلين وطفلها يستقلان الجمل.

بعد أن قطعنا عدة كيلومترات تحت أشعة الشمس لهذا اليوم والذي علمت أننا في الأسبوع الأول من شهر إبريل من عام ١٩٧٠ حيث كانت درجة الحرارة شديدة للغاية، الحمد لله وصلنا إلي مرفأ العبارة بعد أن قضينا أربع ساعات خلال تلك الرحلة البرية، بالمرفأ علمنا بأن العبارة الخاصة بالمواشي وتدعى الزهراء سوف تصل خلال يومين، المسئول عن المرفأ طلب منا النزول باستراحة بسيطة قليلة الإمكانيات لكن أهم ما كان يميزها مستوي نظافتها وموقعها علي نهر النيل مباشرة، شعرت أنا ومادلين بالسرور لهذا الأمر بالإضافة إلي أن إيجار الاستراحة كان زهيدا ولم تكلفنا الكثير، ومن أجل هذا فكرت بأن نتخلص من العنزة وندفع من ثمنها مصاريف ونفقات يومي المبيت والطعام ورعاية الجمل، قدمت شكري لعم عثمان الذي عاد ثانية بالحمار لأسرته.

صباح اليوم التالي شعرنا بأن من يحيطون بنا أصابهم الضيق والأرق بل كان بادياً علي الوجوه الطيبة العبوس والتذمر، خشيت أن القوم قد تضايقوا من وجودنا رغم أننا نرتدى ملابس عادية سواء مادلين أو أنا كرجل أمن أرندي الزى الرسمي وسلاحي بجانبني بالإضافة إلي المدفع الرشاش الإسرائيلي العوزي

اقتربت من الشيخ جعفر وهمست بأذنه ما سبب ضيق الجميع هنا في هذا الصباح نظر إليّ الرجل وتحدث بصوت عميق قائلاً: المجرمين الإسرائيليين هاجموا مدرسة ابتدائية بقرية بحر البقر بمحافظة الشرقية وقتل من جراء هذا خمسة وثلاثون طفلاً غير الجرحي وتهدمت المدرسة تماماً، ألا يكفيهم ما قاموا به من قتل لأسرى الحرب المصريين بميناء بداية هجومهم عام ١٩٦٧ بل تعدى هذا بأن قتلوا المدنيين العزل والذين كانوا يعملون بشركات التعدين والبتروكيمياويات؛ يتمم: الله المنتقم.

كانت مادلين تجلس علي مسافة ليست بعيدة وتحضن طفلها الذي خلد في نوم عميق حين ضمته إلي صدرها، بعد أن عدت وجلست قريباً منها شاهدت الدموع تتساب من عينيها الجميلتين، حاولت الاستفسار فلم تسمعني ولم ترغب بالإجابة، لقد تأكدت من مصير زوجها المهندس شوقي، لقد قتل الإسرائيليون الأسرى سواء من العسكريين أو المدنيين بميناء؛ كانت السيدة تأمل بأن يعود زوجها وكان ينتابها من حين لآخر بصيص أمل لكن كل هذا ضاع حين تحدث الشيخ جعفر بما يعلمه من الإذاعة المصرية والذي كان دائم الإتهامات لنشرة الأخبار ويضع الراديو بجوار أذنه.

كان عائد ثمن بيع العنزة كافياً لما نحتاج إليه بل زاد عن المتوقع مما دفع بالرئيس جعفر مسئول الميناء أن يخبرنا بأن المبلغ المتبقي سوف يكفي مصاريف الرحلة بالعبارة وأيضاً نفقات الطعام ورعاية الجمل، هكذا استطعنا تدبير أمورنا مما دفع مادلين للشعور بالراحة بأنني لم أستقل سلطتي كرجل أمن وأتعامل مع الآخرين كأى إنسان عادى، قضينا اليومين علي شاطئ النهر

وكنا نشاهد أسراب الأسماك تقفز من وسط الماء لأعلي كي تنبئ الراغب بالصيد بوجود تلك الثروة التي أرسل بها الله لبني البشر .

أقبلت الباخرة الزهراء ومن أجل هذا أسرع الرئيس جعفر المسئول عن الميناء يبلغنا بأن العبارة سوف تتحرك بعد يومين وأرسل بأحد غلمانه الذى اصطحب الجمل وتحرك به إلي العبارة كي ينال الرعاية مع باقي الجمال التي تحملها، علمت أن عدد الجمال يزيد عن الخمسين جملاً وسوف تنزل جميعها بميناء المد العالي المنشأ حديثاً وسوف يتواجد التجار المصريون القادمون من القاهرة وبالأخص من حي إمبابة الشهير بتجارة الجمال.

قبل تحرك العبارة في الصباح كنت أنا ومادلين وشادى قد سعدنا علي ظهر العبارة، هذه هي المرة الأولى التي أشاهد بها عبارة بهذا الشكل وبذلك الضخامة، العبارة مكونة من دورين، الدور السفلي مخصص للجمال وبعض الدواب من حمير ويغال ويعيش بجوارهم العاملون المكلفون بإطعامهم ورعايتهم وتقديم المياه حتي لا يصيب أى حيوان الظمأ ومياه النيل من حولنا فلم تكن المياه تسبب لهم مشكلة، أما الدور العلوى عبارة عن سطح العبارة والمزود بسور حديدى بارتفاع مائة سنتيمتر وبه حجرتان واحدة للرئيس الذى يقود العبارة ويوجهها بداخل النهر والحجرة الأخرى لاستضافة أى مسئول حكومي قادم علي العبارة في مهمة رسمية ومعين عامل علي خدمتها ونظافتها ولا يدخل تلك الحجرة أى شخص كان.

شعرت بأن وجود مادلين وسط الرجال الذين كل عملهم الرعي وتربية الماشية لا يتماشى مع القيم وايضاً لا يتماشى مع حالتها النفسية ووضعها

الاجتماعي والإتسماني فسوف تكون محط أنظار الجميع وتحت مراقبتهم وبالتالي لن تحصل على حريتها التي يجب أن تعيشها أي سيّدة في مثل ظروفها وابنها شادى هذا الطفل الذي تخطى الأربعة أعوام من عمره، من أجل هذا توجهت للريس خاطر وأخبرته بما يدور في فكري، أخبرته بأن تلك السيّدة زوجة مسئول مهم بالدولة وأنا أقوم علي حمايتها هي وطفلها، أرسل الرجل في طلب خادم الاستراحة ولم تكن مشغولة بأحد المسؤولين وأخبره بما قلت، نظر إليّ الخادم وشعر بأن الموضوع رسمي لوجود أحد رجال الشرطة فرافقني أنا ومالين وشادى وفتح لها الغرفة ودخلتها ورغم بساطة ما بها من أثاث إلا أنها كانت أفضل بكثير من نومها ومعيشتها علي سطح العبارة، يكفي أنها مزودة بسرير كبير وأيضاً للغرفة دورة مياه مستقلة بعيداً عن دورات مياه العبارة التي تنافس زرائب المواشي بسوء الرائحة والقذارة المتناهية.

جلست علي سطح العبارة مع العاملين والتجار نتجاذب أطراف الحديث تبع هذا إحضار الطعام، طلب مني الريس جعفر أن أحمل الطعام والشراب إلي زوجة المسئول المهم، بالفعل حملت الطعام وتوجهت إلي الاستراحة ودققت علي الباب عدة ضربات وسمعت صوت مالين يتعامل عن من بالباب، أخبرتها بشخصيتي فأقبلت بسرعة وفتحت الباب والسعادة بادية علي وجهها ورحبت بي بلقب "بابا" طلبت منها عدم قول هذا حتى لا يتعارض هذا مع ما حدثت به الريس جعفر والذي تحدث مع بعض معاونيه فأنا هنا لحراستك حتي تمام وصولك لميناء المد العالي، تركت لها الطعام وعدت للرجال نتحدث معاً.

أبحرت العبارة قبيل ظهر هذا اليوم؛ كنت سعيداً وأنا جالس

بأعلاها ونسيم رطب يلطف درجة الحرارة فأثر هذا على انتعاش صدرى وقلبي  
وشعرت بالسكينة والهدوء وعدم الخوف أو الخشية ما يخبئه لنا القدر  
فالسنوات السابقة منذ الحرب حتى الآن قابلنا خلالها مصاعب جمة ورغم أن  
مادلين وطفلهما أصابهم جانب من تلك المصاعب إلا أن العبء الأكبر كان  
يقع علي كاهلي كرجل مسئول عن حماية ورعاية الأمانة التي وجدت نفسي  
مسؤولاً عنها دون أن أدري.

ألقيت بظهري علي جدار العبارة المكونة من الحديد وقد علا بعض أجزائها  
الصدأ، كنت أغفو وأنتبه من حين لآخر علي صوت بعض الرجال الذين  
يقومون بالغناء والبعض يعلق بكلمات وآخرون يضحكون ورغم أن بعض  
مفردات الحديث كانت غائبة عن فهمي إلا أنني كنت سعيداً بتلك الكوكبة من  
الرجال الطيبين الشجعان واعتراني شعور طيب بأنني علي وشك أن أصل  
بأمانتي تلك إلي بر الأمان.

لم تكن العبارة تتحرك بسرعة كبيرة ولكنها كانت تسير ببطء ويحمد الله  
وبركاته، كان الريس جعفر حاذقاً ماهراً في قيادة العبارة وأثناء الليل جنح  
بالعبارة قريباً من الشاطئ الشرقي للبحيرة وأنزل النقال أو الهلب الذي يثبت  
العبارة بالقاع حتي لا تتحرك وواكب هذا إطفاء ماكينات العبارة إلا من المولد  
الكهربائي الذي يضيء المركب حتي لا تتوتر الجمال كما تساعد الإنارة  
العاملين عليها علي تقديم الطعام والشراب لها.

كانت العبارة تسير ببطء سواء للحمولة التي علي ظهرها أو لقدم العبارة  
نفسها لكن النتيجة أن الرحلة كانت آمنة وشعرت أنا ومادلين بالراحة النفسية

وأن الله سوف ينهي العذاب الذي تحملناه لعدة سنوات دون أن نصل للنتيجة النهائية؛ كانت تارودنا مشاعر غريبة سواء خوفاً على الوطن أو الخشية من المعارك التي كانت تصل أخبارها إلي مسامعنا بل والروايات التي كانت تحكي عما يقوم به العدو ضد الوطن حتي جائنا شعور بأن هذا العدو شيء أسطوري لا يمكن هزيمته مثلما كنا نسمع من البعض حين التحدث ويردد تلك الدعاية المغرضة من إذاعة العدو نفسه الذي كان راجياً بأن يلحق بنا الهزيمة قبل أن تبدأ المعركة، فحين الدخول للمعركة وأنت مشبع ومهياً بأن العدو الذي أمامك قوى وخصم لا يستهان به سوف تلحق بك الهزيمة وسوف تلقى حتفك في بداية المعركة وفي أحسن الأحوال قد تؤسر وهذا إحباط شديد للمقاتلين.

كنت أجلس علي ظهر العبارة بجوار الباب الذي يؤدي إلي المقصورة التي تقيم بها السيدة مادلين وطفلها، لم أكن أبرح هذا المكان إلا للظروف القصوى، كنت أسمع نداء مادلين تتادي عليّ فأنهض علي الفور مليئاً نداءها والذي يتمحور حول رغبتها بأن تشعر بالطمأنينة لوجودي قريباً منها؛ كنت أشعر بأن السيدة لا تشعر بالأمن إلا حينما تشاهدني أو تسمع صوتي وبالطبع كنت أحاول أن أكون قريباً منها في الحدود التي تسمح لي بها الظروف وفي نفس الوقت كنت أتركها حرة غير مقيدة أو مراقبة كي يمكنها العيش بأمان وحرية بعيداً عن عيون الآخرين.

مضي يومان علي تلك الرحلة النيلية، كان من المتوقع أن تصل العبارة في اليوم الثالث ولكن بسبب قدم العبارة تأجل موعد الوصول إلي اليوم التالي وبهذا تكون العبارة قد قطعت المسافة في ثلاثة أيام، لم يكن يخالف التجار والعاملين

المرافقين للجمال أى ضيق فقد اعتادوا علي هذا كما أن البضاعة التي بحوزتهم لن تفسد وأقصد بها الحمولة من الجمال، فالطعام الجاف من التبن والدريس أمام الجمال والماء يملأ البحيرة من حولنا والطقس جيد كما أن الجمل يعتبر من الحيوانات القوية الصبورة العفية التي لا تتأثر سريعا بالعوامل الجوية أو بالجوع والعطش.

وصلنا إلي الميناء البدائي وتوقفت العبارة ونهض الرجال بقوة ونشاط يدفعون بالجمال كي تغادر العبارة، كنت أنا والسيدة وطفلها أول المغادرين سألت الرئيس خاطر عن كيفية التقدم باتجاه الشمال بطريقنا إلي محافظة المنيا كان الرجل وديعاً هادئاً؛ قال إنه من المفضل أن نرافق قافلة الجمال التي سوف تتحرك بطريقها صوب الشمال إلي مدينة أسوان وتستقل الجمال قطار البضاعة إلي القاهرة تجنباً للمواقع العسكرية المنتشرة علي طول الطريق نظراً لأن العدو اعتاد مهاجمة محطات الكهرباء والمحولات القادمة بالتيار الكهربائي من المد العالي إلي داخل الجمهورية مثلما حدث مع محطة محولات نجع حمادى بالعام الماضي.

رافقنا الرجال الذين رحبوا بنا وحينما شاهدوا مادلين وطفلها يجلسان بالهودج الذى أعده الشيخ عرفان هلوا لتلك الفكرة الذكية، هكذا سنرافق هؤلاء الرجال الشجعان إلي مدينة أسوان، كان الطريق متعرجاً خاصة حينما اقتربنا من جسم المد العالي الذى كان علي وشك الانتهاء، كان المنظر رائعاً ومدهشاً لهذا البناء الضخم أيضاً من نشاط العمال المتواجدين بالمكان وهم بالآلاف وغالبيتهم من أسوان والصعيد.

عبرنا جسم العبد العالي ملوحين لكل من إلتقينا بهم في الطريق، أثناء السير توقفت سيارة جيب وهبط من بداخلها وتبين لنا أنه أحد المهندسين الكبار القائمين علي العمل، نظر إلي مادلين وطفلها وتساءل لماذا هذه السيدة وطفلها يجلسان فوق الجمل في هذا التوقيت العاصف لرياح الخماسين ودرجة الحرارة شديدة عليهما، أجبته بأننا لم يكن أمامنا سبيل للوصول إلي محافظة المنيا إلا بتلك الوسيلة المتوفرة أمامنا.

أشار إلي إحدي السيارات التي كانت تسير قريباً منا وأمر سائقها بأن يقوم بنقلنا إلي استراحة الشركة التي يعمل بها وتبين فيما بعد أنها شركة المقاولين العرب التي تقوم علي بناء المشروع على أن نظل بضيافتهم حتي الصباح كي نحصل علي الراحة ثم نستكمل طريقنا إلي محافظة المنيا بإحدي سيارات الشركة المريحة، كانت تلك اللحظة الإنسانية من المهندس عمرو الذي تعرفت علي اسمه من الأشياء المهمة، حين وداع الرجال المرافقين للجمال اقترب مني كبيرهم عارضاً عليّ مبلغاً من المال في مقابل ترك الجمل نظراً لأننا لن نستخدمه بعد هذا اليوم.

وافقت مادلين علي هذا وتسلم الرجل الجمل وحصلنا علي ثمن البيع الذي لم يكن كبيراً ولكنه مناسب لأثمان الجمال علي حدود السودان، أسعد هذا مادلين التي أخبرتني بأنها تتوى شراء ملابس نظيفة وجيدة لها ولطفلها كي تصل لأسرتها علي أحسن ما يكون وفي أبهى زينة!!!! نظرت إليها مردداً بداخلي " إنها حواء "

كانت استراحة الشركة جميلة ومعدة إعداداً جيداً رغم أنها تقع علي مشارف

الصحراء جنوب أسوان وتحت درجة حرارة مرتفعة، أقمت مع الحارس الذي يقوم على حماية وحراسة المقيمين بتلك الاستراحات المنتشرة الذي أخبرني بأن أكثر من نصف تلك الاستراحات تقيم بها عائلات الخبراء الروس المشاركين في المشروع، مساء هذا اليوم شاهدنا العائلات المقيمة تتمتع بنعيم الصيف القادم من الصحراء بعد أن تعطر وتجميل من ماء النيل، أسعد هذا مادلين التي شاهدت نماء مثلها يتمتع بالرقى والذوق والحياة العصرية، تحدثت مع البعض منهم واللائي يتقن اللغة الإنجليزية.

اليوم التالي لم نعر علي المهندس عمرو، بعد هذا علمت أنه يشارك في اجتماع يضم المهندس صدقي سليمان وزير السد العالي، كانت مادلين مبتهجة وأخبرتني بأن الاستراحة مزودة بكل وسائل الراحة من أسرة معدة إعداداً جيداً وحمام مزود بمياه باردة وساخنة كما أن صالة الطعام المعدة لعائلات المهندسين بها أطعمة كثيرة ونوعيات عالية في الجودة، تكرر كلماتها: لقد تمتعت أنا وشادى وحصلنا علي أكثر من حمام وكنا ننام ولا نشعر بما يحدث من حولنا، لقد كانت رحلة العودة شاقة منذ غادرنا قبيلة البشارية حتي وصلنا إلي هنا ويكفيها مخاطر الطريق؛ كدنا نهلك عدة مرات.

مضي علي وجودنا عدة أيام خلال تلك الفترة أقبل مندوب عن المهندس عمرو وقد اعتذره لإتشغاله بأمر خارجي عن إرادته؛ طلب منا الاستجمام والراحة لحين عودته أما إذا كنا في احتياج للمغادرة فهو " أى المندوب " مستعد لتنفيذ تعليمات المهندس عمرو، تساءلت مادلين عن رأبي في هذا الأمر فأخبرتني بأنه من الواجب علينا انتظار الرجل وتقديم الشكر والثناء له

لم تعارض ونظرت إليّ باسمعة بأن كل ساعة نقضيها بهذا المكان تعيد إلينا الراحة والنضارة حتي نعود لعائلتنا علي أحسن ما يكون؛ أيدت وجهة نظرها ومكثنا عدة أيام خلال هذا كان مندوب المهندس عمرو يأتي يومياً كي يطمئن علي أحوالنا، أحد الأيام طلبت مادلين من مندوب المهندس عمرو أن تشاهد مناطق العمل بالسد العالي فلم يعترض، أقبل بسيارة جيب واصطحبنا نحن الثلاثة بجولة تفقدنا خلالها أماكن العمل والإنشاءات؛ كانت بوابات جسم السد تعد بعد أن تم تركيب التوربينات المولدة للطاقة الكهربائية وأيضاً محطة المحولات وأماكن مبيت عائلات العاملين والحدائق حول منطقة السد والكثير من المرافق التي لم تكن موجودة بهذا المكان قبل مضي عشرة أعوام.

اليوم السابع منذ وصولنا أقبل المهندس عمرو مقدماً اعتذاره وبصحبه سيدة رائعة الجمال وعرفنا بها، زوجته التي أقبلت من القاهرة كي تقضي بهذا المكان الرائع عدة أيام من أجل هذا رجانا أن يستضيفنا بالاستراحة المخصصة له، بدخل الاستراحة كان الطاهي قد أعد الطعام الفاخر وقضينا وقتاً جميلاً وأخبرنا بأنه في الصباح الباكر قبل السادسة ينهض الجميع للعمل قبل ظهور الشمس وارتفاع درجة الحرارة وسوف نستقل الأتوبيس الصغير الذي سوف يقلنا إلي مدينة أسوان ومن هناك سوف نستقل القطار إلي محافظة المنيا.

في الصباح الباكر كان المهندس عمرو والسيدة زوجته في وداعنا وقدمت مادلين شكرها وثناءها للسيدة زوجته علي منحها أحد الفساتين الخاصة بها كي تعود به إلي المنيا والتي كانت ترتديه بديلاً عن الجلابب البدوي، تحرك بنا الأتوبيس إلي أسوان فوصلنا عصر اليوم، هناك علمنا أن المرافق لنا قام

بحجز غرفتين بفندق كترانك الفخم وأيضاً حجز تذاكر السفر بالقطار المغادر  
أسوان صباح الغد في طريقة لمحافظة المنيا، كل هذا كان علي نفقة المهندس  
عمرو، ودعنا الرجل وقدم تحيته لنا فشاهدت مادلين والدموع تفر من عينيها  
لرقة ومشاعر المهندس عمرو وزوجته، توجهنا لتناول الطعام بصالة الفندق  
كنت في غاية الخجل وأنا أرتدى ملابس الشرطة، التي أصبحت خرقة بالية  
ولم يعد لونها الأمر كما كان، أيضاً ما زلت أحمل الرشاش الإسرائيلي  
والمسدس الميري وزوج الكلابشات.

## الطريق إلى المنيا

بعد تناول الطعام شعرت بأن شادى غالبه النوم فحملته علي كتفي وسرت خلف السيدة مادلين التي توقفت في بهو الفندق ونظرت إليّ مرددة اللقب القديم المحبب لى ولها:

- بابا جبر، أنا عايزه اتفرج علي محلات الملابس اللي موجودة هنا عشان أشتري شوية لبس ليا ولشادى وكمان تشوف اللبس اللي أنت عايزه.

شكرتها وأخبرتها بأنني راض بما عليّ من أسمال؛ حيث كانت تردد هذا التعبير كثيراً، عليكِ ابنتي شراء ماترغبين به، في مساء الغد سوف تلتقين بأسرتك وصديقاتك وعائلة المرحوم شوقي زوج حضرتك، أدمعت عيونها الجميلة وأمسكت بيدي وتحركنا من الفندق، خرجنا للشوارع نشاهد المحلات التي يرتادها السائحون، كانت المحلات جميلة وكلها بهجة وانتعاش وبالأخص لمن في مثل حالنا، لقد قاربت السنوات الثلاث علي أن تكتمل ونحن خارج الحياة الإنسانية، لقد مضى علينا منذ بداية رحلة العودة في اليوم التالي لحرب عام ١٩٦٧ حتى الآن ألف يوم.

شاهدت مادلين تبحث بين أكوام الملابس الجديدة الموضوعة علي الشماعات، كانت الملابس لها مظهر جميل وألوان مختلفة كما كان الكثير منها رقيق النسيج ومسائراً للموضة الحديثة، تلك الملابس كانت تشبه ملابس الخواجات اللاتي كنت أشاهدهن خلال خدمتي السابقة بمدينة الأقصر، وفتت أنتظرها خارج المحل بينما شادى يغط في نوم عميق، مازلت أحمله علي

ذراعي واستند رأسه علي كتفي واعتاد علي نطق اسمي بالطريقة الصحيحة.

غادرت مادلين المحل بعد أن اشترت ما كانت ترغبه من ملابس واحتياجات تخص النساء وملأت تلك الأغراض حقيبة كبيرة من النايلون المخصصة لهذا الأمر، نظرت إليّ وأظهرت بعض الجنيئات القليلة المتبقية من ثمن بيع الجمل وتحدثت باسمة الثغر:

- أسفة يا بابا .. خلصت الفلوس ثمن الجمل ومعدش باقي منه غير عشرين جنيه لكني اشتريت ملابس جميلة ليا وكمان ملابس لشادي عشان أول ما يقابل جده وجدته يشوفوا عليه القيمة وشكله جميل، وإلا لك رأي تاني؟ أخبرتها بأن الفلوس الخاصة ببيع الجمل تخصصها وأن تلك الأموال خلقها الله كي تقوم بصرفها وطالما أسعدك هذا فالحمد لله، فهذا يسعدني بأن أشاهد السعادة علي وجهك ورغم هذا فهناك شيء يضايقتني، سوف أفقّدك وأفقّد شادي، لقد اعتدت عليكما لمدة ثلاثة أعوام متصلة ليل نهار صيف شتاء بالإضافة إلي الأحداث الدامية التي صادفناها.

شاهدتها تبكي وتساقطت دموعها وقد أدى هذا إلي انتباه بعض المارة واقترب مني أحدهم يطالبني بالرحمة وترك السيدة في حالها ولا ألقى القبض عليها بينما توقفت جموع بعض المارة وإحدى السيدات أشارت بيدها إليّ وهي تتحدث:

. ملكشي ولايا 'بنات'؟ .. نظرت مادلين إليهم وبكت وألقت برأسها علي كتفي الآخر وتردد:

- ده بابا حبيبي .. رينا يخليك ليا .. ابتسم البعض وأطلق البعض بعض الأدعية بينما صفق عدد من الشباب وتركونا واستكملوا سيرهم .. سرت بجانب مادلين ومازلت أحمل شادى وكادت الدموع تخونني وتظهر أمام الجميع ، لقد كان الموقف مؤثراً علينا ، غدا سوف نفترق ، لم يحدث لإحدى بناتي أن ظلت تعيش وتحيا معى وتقاسي مثل تلك الفترة التي قضيتها مع مادلين وطفلها ، شعرت بأن هناك إلتصاقاً عضوياً ومعنوياً قوياً مع تلك السيدة ، لقد شاهدت كل النواحي الإنسانية وأخلاق البشر بها ، شاهدت جمالها الرائع الفاتن كما شاهدت خوفها وولعها علي طفلها ، أيضاً شاهدت تمردها ونفورها مني في بعض الأحيان حين فقد شادى دون ذنب ارتكبه كما شاهدت حنان الابنة علي أبيها.

وصلنا إلي الفندق وقامت بوداعي ودخلت لحجرتها بعد أن تسلمت شادى مني وحملته بكل عطف وهي تنثر عليه قبلاتها الحانية ، أويت إلي حجرتي وحصلت علي حمام منعش ، بعد هذا قمت بغسل جميع ملابسي علي الحوض الموجود بالحمام الملحوق علي الحجرة ، كنت عارياً تماماً ، ولهذا سترت جسدي بملاءة السرير ونشرت الملابس علي الكراسي الملحقة بالغرفة بعد أن نقلتها للبلكونة كي يجفها طقس أسوان الجاف ليلاً.

### مادلين:

دخلت حجرتي ووضعت شادى علي السرير ؛ حيث كان يسه في نوم عميق ، جلست قليلاً أتذكر السنوات الثلاث الماضية ، هذه هي الليلة الأخيرة ونهار الغد سيصبح آخر يوم لتلك السنوات العنيفة التي قابلتها مع طفلي الرضيع ،

كنت غير مصدقة ما كان يطوف بذاكرتي من أحداث ، لقد كانت أحداثاً غريبة رهيبة يصاحبها رقة مشاعر وحنان أبوي من هذا الرجل عم جبر ، لا أعلم لو لم يكن القدر قد وضعه في طريقنا كيف كنا وكيف أصبحنا ، كان حلماً وخيالاً.

لقد حصلت من هذا الرجل الأبوي الطيب علي كل حنان البشر ، فقد عوضني عن حب الأب الطيب وأيضاً حماية الأخ والحارس علي شقيقته أيضاً حنان الزوج ورعايته والذي يخشي علي زوجته وابنه ، بل أنه أعطاني حنان وحب الأم علي أبنائها حينما كان يقدم خدمته الطبية لعلاجي من حالة الهذيان والحمي التي أصابتي قبل تدمير قارب النجاة اليدوي الذي قام بصناعته ، كنت أشاهده يقترب مني بكل خجل ويقدم لي عونته وخدماته بل كان يقوم بتغطية بعض أجزاء جسدي العارية سواء من قلة الملابس أو تمزيقها أثناء انفجار القارب الذي اندفع أكثر من خمسين متراً من داخل المياه بسبب قوة الانفجار .

سوف أنهض الآن وأحصل علي حمام منعش ثم يلي هذا حصول حبيبي شادي على حمام بعد أن أساعده علي النهوض وترك حالة النوم تلك والتي تعدت لأكثر من ثلاث ساعات خلال تلك الفترة قام عمي جبر بحمله وأنا أعلم مقدار حب شادي لهذا الرجل حيث يستكين فوراً علي صدره بعد أن يصيبه الضيق فيشير إليه بيديه فيسرع شادي رافعاً يديه لأعلي فيحمله عم جبر ويقبله ويضعه علي كتفه فيخلد في نوم عميق .

أشعر بسعادة وأنا أحصل علي هذا الحمام المنعش ، شيء رائع وأنا أقارن

تلك المشاعر بحالة الجفاف التي كنا عليها أثناء الرحلة البحرية ، لقد جفت  
دماؤنا بداخل أجسادنا وتشققت جلودنا ، كنا علي شفا الموت ، سوف أقوم  
الآن علي نظافة شادي وأستبدل ملابسه بأخرى نظيفة من التي قمت بشرائها  
منذ ساعة زمن تقريباً.

أشعر بأن شيئاً غير عادي سوف يحدث باكر ، لا أستطيع تخيل وتصور  
المشاعر التي سوف تقابلني حين لقاء والديّ ، في بعض الأحيان يخالجنني  
شعور بالخوف بأن أعلم بعد وصولي لمنزل أسرتي بفقد أحد والديّ أو الاثنين  
معاً ، أخشي لو حدث هذا الأمر فسوف تدمر حياتي ، أتمني بأن أحصل  
علي الحنان والرعاية منهما ، فأنا وحيدة وليس لي إخوة أو أخوات كما  
أتماءل: ماذا حدث لعيادتي ومن استولي عليها وماذا حدث لشقتي وأثاث  
منزلي؟ كل تلك الأسئلة والأفكار بدأت تغزو عقلي وفكري بعد أن تلامي  
الخوف والجزع من المجهول الذي كنا نلقاه طوال السنوات الثلاث بعد قيام  
الحرب.

عم جبر:

الحمد لله فقد نشرت ملابسني الداخلية وأيضاً البدلة الميري، وإن شاء الله  
حين يقبل الصباح سوف تصبح جافة وأستطيع أن أرتدي ملابسني، الحمد لله  
أيضاً أن مادلين تغط في نومها فلو حدث وأقبلت فسوف تكون كارثة ومن أجل  
هذا سوف أغلق باب الحجرة بالمزلاج كي لا يشاهدني أحد بهذا المنظر  
الغريب والمحرج، سوف أنام أرضاً فوق السجادة بديلاً عن السرير المريح

لقد اعتاد جسدى النوم أرضا.

أسمع دقات متتالية علي باب الحجرة ، بل وأسمع صوت نسائي بالخارج يارب ، ماذا حدث؟ وكيف التصرف؟ هل أتجاهل تلك الضربات أو أقوم بفتح الباب لأطمئن علي حال مانلين وطفلها ، لن أستطيع فأنا عار كما ولدتني أمي وسوف تتدهش السيدة حين تشاهدي ألتحف بتلك الملاءة وسوف تتساءل ما الذي دفعني لأصبح عارياً هكذا وأنا الذى ظللت طوال ثلاثة أعوام أرتدي ملابسى ولم تشاهدي غيرها حتى أثناء سباحتي ولهوى بالماء حيث كنت أخير مناطق بعيدة عن موقع الخيمة التي شيدتها لها ولطفلها.

مازلت الدقات تتوالي علي الباب وأسمع صوت السيدة ، ما الحل؟ ليس أمامي سوى أن أقوم بفتح الباب فتحة صغيرة لأعلم منها سبب المشكلة يارب لا تغضبني فأنا عار من ملابسى ، ما الذي دفعني لأقوم بغسل ملابسى تلك ، لقد تحملتها عدة أعوام ولم يتبق سوى يوم واحد ولقد اعتادت مانلين علي تلك الملابس البالية ، صحيح كنت أغسلها بماء البحر حينما كنا نعيش ونحيا بجوار أبناء البعثارية لكن الحال اختلف هنا ، مازلت أسمع الدقات علي الباب بل وأسمع أصوات بعض الرجال التي تطالبني بفتح الباب .. يارب.

أرفع صوتي لمن يقف بخارج الباب ، أكرر: لقد أقبلت وسوف أفتح الباب قمت بفتح الباب فتحة صغيرة فشاهدت سيدة لا أعرفها وبجوارها اثنان من خدم الفندق ، صرخت السيدة تطالبني بأن أفسح لها الباب كي تدخل وأنا أرفض وأقوم بدخولها والسيدة تصرخ وتتحدث بلغة أجنبية وتشير جهة الحجرة كأنها تقول إن تلك الحجرة تخصها ، أقبل بعض رواد الفندق والبعض تساءل عن

أسباب ارتدائي ملاءة السرير والبعض قرر بأنني أمارس الرنيلة مع إحدى النساء وقد أقيمت زوجتي كي تفضح المستور وسمعت بعض التعليقات السيئة ومازالت السيدة تتحدث بلغتها الأجنبية التي لا أعرفها ، بعد قليل أقبل رجل أوروبي الشكل وريت علي كتف السيدة وقدم اعتذاره لي بنفس اللغة التي تتحدث بها السيدة وسمعت أحد العاملين يتحدث وهو يضرب كفا بكف ويخبر من حوله بأن السيدة تناولت كمية كبيرة من الخمر فأطاحت برأسها وعقلها وبالتالي لم تعد تميز حجرتها وأقبلت علي تلك الحجرة ، البعض قدم اعتذاره والبعض أشار إليّ بأن أدخل للحجرة وأستكمل متعتي التي كنت أقوم بها.

بداخل الحجرة جلست أرتجف من هذا الموقف الشائك ، بعد قليل سمعت جرس التليفون فأجبت وكان علي الجانب الآخر مادلين التي تساءلت عن السبب في هذا الصياح بخارج الحجرة ، أخبرتها بأن سيدة أجنبية تناولت كمية كبيرة من الخمر فأطاحت بعقلها ومن أجل هذا كانت تهذى وتصرخ شكرتي وتمنت لي أحلاماً سعيدة.

صباح اليوم التالي نهضت مبكراً ، تأكد لي أن ملابسي قد جفت فشكرت الله وارتديتها رغم أن البدلة كان واضحاً عليها أنها تحتاج للكواء كما قمت بأداء صلاة الفجر والصبح كعادتي ، لم أكن أحمل أمتعة سوى المنفع الرشاش الإسرائيلي من ماركة "عوزي" والمسند الميرى والكلابشات وسبب لي هذا بعض مشكلات بداية دخولي للفندق لكن المسئول الأمني به صرح لي بحمل الأسلحة مخبراً الآخرين بأننا في حالة حرب ، ويجب أن يحمل كل جندي وضابط سلاحه، ومن المحتمل أن نفاجاً بعملاء وتلك تعليمات الحكومة.

جلست علي أحد الكراسي الموجودة بالردهة ، بعد قليل شاهدت مادلين تغادر حجرتها ويصحبها شادى ، هتفت لحظتها مردداً ماشاء الله ، لقد كانت مادلين علي أحسن ما يكون ، فقد ازداد جمالها رونقاً بما ابتاعته بالأمس من ملابس وما تحتاج إليه السيدات من أدوات الزينة ، حينما سمعت دعائي هذا ابتسمت لي قائلة:

. صحيح .. أنا جميلة يا بابا؟

أحببتها بأنك جميلة في كل شيء ولكن هذا اليوم ، ازداد جمالك إشعاعاً وأيضاً شادى ، حملت عنها باقي احتياجاتها واحتياجات شادى وغادرنا الفندق فشاهدت عربة حنطور فأشرت للحوذى الذي أقبل وتوقف أمامنا فركبنا وأشرت له بالتوجه لمحطة القطارات ، كان المنظر بالشارع جميلاً سواء من النظافة أو الأشجار المترامية علي جانبي الشارع ، هناك بمحطة القطارات رفض الحوذى الحصول علي أجرة وهو ينظر إليّ بما يعني أنت تبع الحكومة ولكن مادلين أصرت علي الدفع بل ومن المحتمل أنها أعدت عليه في الأجر فظل الرجل يدعو لها بالسلامة ، وبأن يزيدها الله خيراً وبركة.

## العودة إلى بيت العز

بداخل القطار جلست مواجهةً لمادلين بينما كان شادى في منتهي السعادة بأن يرى ويشاهد هذا النوع من المواصلات ، فقد عاش وتدرّب مع الإبل والغنم والماعز والغزلان ثم ركب العبارة بداخل النيل ، أما تلك الوسيلة فهي جديدة عليه ، كان ينظر لمن حولنا من الركاب وغالبيتهم من العائحين الأجانب وبعض العائلات الروسية ، فلم يكتف المهندس عمرو بكل ما فعله لنا ، لكنه زاد عن هذا بأن كلف مساعده بشراء تذاكر السفر الخاصة بنا بالدرجة الأولى المكيفة.

كنت أراقب وأشاهد ما يطرأ علي صفحات وجه مادلين من حين لآخر لقد كانت السيدة تعاني من أشياء كثيرة تظهر بوضوح علي وجهها الأبيض الجميل الناعم المشابه للقفاز الحريري ، لقد تمرست خلال السنوات الثلاث علي فهم ما يعترئها من مشاعر وأحاسيس تفوق ما كان سيشعر به والدها أو شقيقها نظراً لأننا نحيا معاً طوال سنوات ثلاث لم يفرقنا عن بعض سوى وقت النوم ، أيضاً كانت هناك أحداث قاسية تجعل الإتمان يتصرف بانفعالات واضحة فلا يستطيع السيطرة علي تصرفاته تلك ومن أجل هذا كان يجب عليه أن يترك العنان لتصرفاته وانفعالاته كي يصبح مثل الفرس الجامح.

فليس من المعقول أن يحدث شيء خطير مثل حالة فقد وليدها عدة مرات ولا تظهر مشاعرها دون قيود ، فإذا لم تظهر مشاعرها تلك في مثل تلك الأوقات المحزنة السيئة فمتي تظهرها ، أيضاً مشاعر الفرح بعثورها على ابنها

وما تقوم به من عطف وحب له وإطلاق بعض التعبيرات الرقيقة الجميلة والتي لا تخرج إلا من أفواه النساء فهي بعيدة عن قلوب ومشاعر الرجال.

أضف إلي هذا ما منحه الله لها من جمال، لم أكن أختلس النظرات لها برغبة أو شهوة، لقد استقر بوجداني أنها التوأم لابنتي فاطمة، أيضاً شعوري بمأساتها وفقد زوجها وما نحن عليه من حال سيئ يزداد سوءاً، لم أكن أتوقع أن ينقذنا الله مما وقعنا فيه؛ لأن هذا فوق مقدرة المخلوق، ولم أكن أشعر بمدى قرب الله منا ومن أجل هذا كنت أناجي الخالق وأتذلل له في الصلاة أثناء المسجود، بل كنت أبتعد عن مادلين مسافة وأتلو القرآن الكريم مراعاة لمشاعرها حتى لا تشعر بأنني أتعبد بينما لا تستطيع القيام بعبادتها فأنا أتعبد لله ولا أبقي تهليل وتصفيق الآخرين لي ، التذلل والركوع والمسجود لله فقط.

مازلت أراقب مادلين وقد ظهرت منها بسمّة جميلة أضاعت وجهها وبالتالي أضاء هذا المكان ثم نظرت إليّ بلهفة تحدثني:

. بابا .. تفكر ح يكون استقبالهم لنا إزاي؟ عايزاك تفكر ليا إزاي نخفف تأثير المفاجأة عليهم، كبار السن ميقدروش يتحملوا الانفعالات الفجائية مبردش ليه؟

بالفعل لم أجب علي سؤالها، كنت راغباً بأن تستمر بالحديث، لقد كان حديثها شيقاً وصوتها رقيقاً مثل الآلة الموسيقية التي قام شاب صغير بالعرف عليها أثناء غروب شمس هذا النهار ومازال واقفاً يشاهد هذا المنظر الخلاب وأثرت رياح الشمال عليه فدغدغت حواسه ومشاعره، وكأنما وقع في قصة حب منذ قليل، ومن أجل هذا كانت مشاعره وأحاسيسه فياضة يتخللها الفرح والبهجة

مع قليل من الحزن خشية فقد الحبيب، هذا ما كنت أشعر به من حديث  
مادلين، أنظر إليها وأجدها تنتظر إليّ بتركيز كأنها تتساءل: هل فقد جبر عقله  
أو سمعه أو الاتنين معاً؟

. حاضر يا بنتي .. من عنيا الاتنين، أنا مرتب كل حاجه .. بلهفة تتساءل:

. صحيح؟ طيب قول ح تعمل إيه؟ نظرت إليها وأنا أشير بنظرات عيني لمن  
حولنا بما يعني ليس الآن، سكنت وابتسمت وحركت رأسها قليلا لليمين واليسار  
وكانت تتمم بتغيمه جميلة:

. لك حق يا بابا .. رينا يخليك .. رينا يخليك .. صممت قليلا ولمعت عيونها  
الخضراء وهذا في عرفها الذي تعلمته واكتشفته خلال معيشتنا الطويلة أنها  
راغبة بالبكاء أو بنزول بعض الدموع كي تهدأ من مشاعرهما ومن أجل هذا  
غادرت الديوان الذي تجلس به مسرعة وبدا أنها أعدت العدة حيث كانت  
تمسك بمتدليل يدها ، لم أشأ أن أثير أشجانها فظللت علي حالي أداعب شادي  
الذي كان مسعياً بما يراه من خلف زجاج نافذة القطار؛ حيث كان يتساءل عما  
يشاهده من مزارعين يسيرون وخلفهم الأبقار والجاموس والحمير أو سيدة فلاحه  
تمسك بيد طفلها بل في إحدى المحطات حين توقف القطار وأعتقد أنها مدينة  
فنا شاهد سيدة فلاحه تضع قفة فوق رأسها وبداخل القفة جلس طفلها الذي لم  
يتجاوز العامين.

ظل القطار ساثراً بنا وعبرنا مدينة الأقصر السياحية الجميلة وبعد مضي  
أكثر من ساعتين غادر القطار مدينة سوهاج ثم تلا هذا وصولنا لمدينة أسيوط

شعرت بتوتر حين توقف القطار بالمحطة؛ كنت أتفحص الواقفين علي الرصيف كأنني أبحث عن أى أحد من أفراد أسرتي رغم أنهم يعيشون بإحدي القرى البعيدة عن المدينة ، وزاد من ألمي بأن شاهدت بعض رجال الشرطة كنت أنظر إليهم من خلال زجاج القطار ، لمحته ؛ هذا هو جابر صديقي وبلدته قريبة من قريتنا، أسرعت لباب عربة القطار لأن زجاج الشباك ثابت لا يتحرك، ناديت عليه، في هذا التوقيت كان القطار يتحرك لكن جابر سمع صوتي وأسرع ناحيتي متسائلاً مستفسراً:

.مين!!!!؟ يا نهار مش فايت .. جبر أبو إسماعين .. ثم صرخ الرجل وسقط أرضاً والناس من حوله وسمعته يردد: عفريت جبر أبو إسماعين؛ في أعقاب هذا حدث هرج ومرج، غادر القطار المكان فمددت رقبتني أنظر لما حدث وتبعاته، شعرت بالحزن وبأنني أصبحت في عداد الأموات، هذا هو زميلي وصديقي والذي تخفي عمره الخمسين ومجرد أن شاهدني حدثت له لوثة عقلية وتخبط يردد "عفريت جبر أبو إسماعين" سرت مترنحاً مطأطأ الرأس كما جلست مواجهاً مادلين التي نظرت إليّ وشعرت بمدى ما يخالجنى من مشاعر وتساءلت:

.ليه يا بابا منزلتش المحطة، لما شفتك بتجرى ناحية باب عريبة القطر قلت إنك نازل وزعلت أنك مودعتنيش ولا ودعت شادى، كمان إيه الهيصه بره القطر والناس بتصرخ ويتجرى ويقولوا عفريت؟

لم أنطق وصمت وسكنت فراغت مادلين حالتي واقتربت مني بالمواجهة تربت علي ركبتي تسمعني بعض الكلمات الطيبة، توقفت فجأة عن حديثها

وشعرت بأن أحد أصابع يدها أسفل قطعة قماش البنطلون وتساءلت:

- كده يا بابا!! بدلتك قدمت وتقطعت ومش رضيت أشتري لك لبس إمبراح يعني أنا أشتري لبس وأنت تفضل علي الحال ده، بكت ونهضت وجلست بجواري تزامم الراكب الأثيق الجالس بجواري الذي أفسح لها المكان؛ وضعت يديها حول عنقي ومازالت باكية مما لفت نظر من حولنا وأحدهم ردد:

- كل الأبهات كده، مرضيش يجيب له لبس وخلاكي تجيبي اللي أنتي وابنك عايزينه، ربنا يخليه لكي، ظهرت الدموع بعيني ونزعت البريه وغطيت وجهي مما دفع براكب آخر أن يردد:

- مش معقول ده، أزاى الحكومة تسيبك بالشكل ده، هو أنت حتلبس لبس البوليس علي حسابك، ح تصرف علي البوليس، لها حق بنتك تراعي مصالحك، ومسيده أخري ترد:

- غلبان، يظهر أن مراته قابلت ربهها وعشان كده لبسه مبهدل ومحش واخذ باله منه ولما بنته شافت حاله المبهدل حاولت تساعده، ربنا يخليكي له، أنتي بنت صالحة؛ هكذا تعاطف الناس من حولنا وتصادقوا وأحدهم تصاعل عن اسمي فأخبرته "جبر محمد أبو إسماعيل" رحب بي بينما السيدة سألت مادلين فأخبرتها باسمها الأول فأكملت السيدة: مادلين محمد أبو إسماعيل، ويتلقائية أجابت مادلين لأ .. مادلين ميخائيل غيريل.

نظر الجميع لنا وهم في دهشة لكن مادلين لم تتركهم يواصلون دهشتهم إذ

شرحت لهم باختصار ما قام به هذا الرجل من أجلي ومن أجل ابني، تساءلت بعد هذا: هل توافقونني الرأي بأنه أبي، خرجت الأصوات والتعليقات المؤيدة والمرحبة والتي تصب في صالحه مشيدين بما قمت به بينما بكت السيدة وتقول كيف يصل بك إنكار الذات بأن تهمل عائلتك ولا تغادر القطار بمحطة أسيوط من أجل أن تكمل ما قطعته علي نفسك بأن تقوم برعاية مادلين حتي وصولها لبيت أهلها، أحد المسافرين وقف ملوحاً لنا، هيا أيتها الأسرة العظيمة هيا أيها المصريون الأفاضل يا أهل العراقة والأصل والتقاليد، لقد وصل بنا القطار إلي محطة المنيا، نهض باقي الركاب مصافحين مودعين وتركنا عربة القطار ونحن نقف علي رصيف المحطة نلوح لهم وهم من خلف زجاج الشباك يلوحون لنا بالتحية.

وقفنا علي رصيف المحطة نلتقط الأنفاس، لقد حدث تفاعل خلال الساعتين الماضيتين مع المسافرين وشعرنا معهم بالود والحب الذي يغلف طباع المصريين وقت الحاجة أو خلال الظروف الصعبة، نظرت إلي مادلين وهي تقص وتحكي عن ذكريات الماضي وهي تقف علي هذا الرصيف كي تستقل القطار المتجه لآسيوط متجهة لجامعتها العريقة كي تتعلم بها مهنة الطب شعرت بأنها طارت مع أحلام الشباب، تتبهدت وتساءلت عما فكرت فيه من أجل التمهيد لأمرتي، أخبرتني بما نويته، ضحكت من حديثي وهي تردد:

. ربنا يخليك .. أوصف لك العنوان والبيت وأنت تروح وتتفد خطتك، أما أنا ح

أروح "الكوافير" أوضب شعري عشان بابا وماما يشوفوني حلوه وجميله!!

. حاضر يا بنتي .. تركتها متوجها إلى العنوان التي أخبرتني به، هناك بشارع الصاغة سألت أحد الباعة عن منزل عم ميخائيل غيريه، نظر إليّ البائع وللأسف والكلبشات وتساءل بحزن:

. هو عم ميخائيل عمل حاجه؟ دا راجل طيب وفي حاله، مش كفايه أن بنته الوحيدة ماتت في الحرب من كام سنه؟ طيبت من خاطره وأخبرته بأنني أقوم باستكمال بعض الأوراق من أجل ابنته، سار معي البائع ومازال يرحب بي ويوصيني خيراً علي عم ميخائيل ويردد:

. والنبي تاخذ بالك منه، ح أكون خدامك لو كنت حنين عليه، أعرفك بنفسي .. خدامك مصطفى السيد، البيت أهوه، الدور الثاني وح تلاجي ياقطه باسمه ع الباب، بس إيجي اضرب علي الباب بشدة عثمان هوه والمست بتاعته سماعهم تجيل، الكبر يا حضرة الصول.

صعدت السلم للدور الثاني ووقفت أمام باب الشقة أقرأ بصعوبة يافطة نحاس صغيرة علاها صدأ النحاس الأخضر اللون "الجنزار" توضح اسم من يقيم بها، المهندس ميخائيل غيريه .. مدير عام الإسكان بمحافظة المنيا .. كانت المشاعر تحيط بي وشعرت بأن الخطة التي وضعتها خلال رحلة القطار قد نسيتها، كنت أرتجف وأنا أدق علي الباب بشدة كما أوصاني مصطفى البائع المتجول، كنت أسمع همساً من خلف الباب يتساءل عن شخصية الطارق، وأنا أجيب باسمي فقط دون الوظيفة، سمعت حركة المزلاج وتبين لي

أن من يقوم بتحريك المزلاج لا يقوى علي ذلك.

فتح الباب وشاهدت الأب الحزين علي ابنته الشابة وطفلها وزوجها نظر إلي من خلال عدسات النظارة متسائلاً:

. أي خدمة يا شاويش؟ تفضل أدخل أجدع ع الكرسي وإستريح

. أبوه يا عم ميخائيل .. مين عايش معاك هنا؟

. المقدسة سارة مراتي.

. طيب .. وأولادك؟

. معنديش ولاد .. أنا خلفت بنت واحده وربنا افكرها هيا وابنها .. وزى ما أنت شايف حالي

. ممكن تطلب المقدسه تيجي تجعد معانا عايز أخذ كلمتين منها

- يا ابني إحنا جلنا كل حاجه للحكومة ، ليه تاني بتجلبوا في المواجه حرام ربنا يخليك .. حرام .. انهمرت دموع الرجل فلحقت به وأنا أواسيه وأبكي مثل الطفل ، نظر إلي متسائلاً:

- وأنت كمان بتعيط ، لازما راح لك ولد في الحرب زى ما بنتي راحت في الحرب، لعنة الله علي الحرب وسنينها، ما أجوم أنده المجدسة ساره، أهي تتحدد معانا بدل ما إحنا جعدين طولة النهار والليل مش حاسين

بالدنيا .. متزعلى منى يا حضرة الصول .. رينا ما يحرملك من ولادك ولا عافيتك .

جلست بمفردى فى حجرة الإستقبال، كانت الحجرة كئيبة لأقصى درجة كان واضحاً أن رائحة الموت تملؤها وتغطي كل الحوائط والأثاث، حتى أن الشبايك مغلقة والأضواء خافتة ، نهضت وفتحت الشباك فدخل الهواء وما تبقى من شعاع نهار هذا اليوم، أقبل الرجل وزوجته فمشاهدا ما قمت به فرحب الرجل بهذا الصنيع بينما نظرت إلى زوجته والبسمة على وجهها وهي تردد:

- شاعره وحاسة بريحة بنتي مادلين ، ريحتها جايه من الجنه، كمان ريحة الملاك شادى، أنا الحزن ملا جليبي لكن لما شفت الشباك مفتوح مش عارفه حميت بالريحه الطوه وأن جليبي بردت تاره، رينا ما يرحج جلب أم علي ولادها .. أيوه يا حضرة الصول، ميخائيل جالي أن فيه ورج عايزاه الحكومة؟

. الحبيجة أنا جاي النهارده بشكل غير رسمي، أنا كنت بأسأل: هل وصلتكم أخبار عن بنتكم غير خبر الوفاة؟

- الخبر الوحيد إللى كنا منتظرينه أنها تكون وجعت فى الأسر زى جوزها المهندس شوجي لكن ما حصلشى!!!!

. المهندس شوجي!! هوه المهندس شوجي كان فى الأسر؟

. أيوه .. ما الحكومة عارفه كل حاجه، هو أنت مش من الحكومة؟

. والله أنا من الحكومة ومش من الحكومة!!

. يا حضرة الصول ح تغلبنا ليه؟

. الحبيجة .....بدأت أقص عليهما حكايتي منذ عملي مع المهندس شوقي ثم حضور زوجته وطفله وأيضا ما حدث يوم المعركة وما بدأت أقوم به كي نصل لبر الأمان حتي إذا سمعت الأم هذا الحديث امتنع وجهها متسائلة:

. يعني اليهود مش جتلوا بنتي وحفيدي؟ .. أشرت لها بما يعني هذا صحيح .. صرخت السيدة وحدث لها إغماء بينما نهض عم ميخائيل وأحضر بعض الماء ورش منه علي وجهها، تنبتهت المقدسة سارة ثم غادرت المكان وعادت تحمل سكيناً كبيراً وهددتني بأنني إذا لم أقل الحقيقة فسوف أغمد هذا السكين بقلبك حاول الزوج إقناعها بأن تترك السكين ولكنها كانت مثل النمر العنبر وفارقتها حالة الضعف والوهن، ظلت واقفة أقص ما حدث باختصار حتي وصولي لهم تساءلت:

- وما دلين وابنها فين؟ أخبرتهما بما قالتة، نظر إليّ الاثنان بنوع من الدهشة والبسمة حيث علقت أمها ضاحكة:

. هيا مادلين كده، غاوية عياجة وشياكة ثم عادت ونظرت إليّ بشدة تستحلفني بالله بأن ما قلته صحيح، قبل أن أجيب سمعنا حركة وزيطة بالشارع وصوت مصطفى البائع يهلل حمدا لله ويكرر كلمة الله اكبر والبعض من خلفه وإحدى النساء أطلقت بعض الزغاريد ولحق ٤٤ بها بعض النساء المسائرات بالشارع

دون أن يعلمن بما حدث وكان هذا نوعاً من المشاركة.

جلست المقدسة سارة علي أقرب كرسي مجاور للشباك بينما عم ميخائيل تهال وجهه ويشاور من الشباك لابنته التي تعطل صعودها لمنزل والديها نظراً لمظاهر الحب المتدفقة من جموع الناس ، نظر إليّ الرجل الذي قارب علي السبعين ودموعه مثل شلال وأشار إليّ بان أمسك يديه وأجلسه؛ حيث كان يردد:

- مش شايف يا حضرة الصول، دموع الفرخ نازلة تجيلة زى طمي النيل، دي مجبتش دموع من ميه، الدموع وهيا نازلة نزلت دموع حزن وألم ثلاث سنين إلا خمسة وتسعين يوم بالتمام والكمال دموع ألف يوم، حامسبهم باليوم؛ جلس الرجل حيث كنت أخشي عليه من الانفعال لأن قلبه كان ينتفض من شدة الفرخ والافتعال.

صعدت مادلين ودخلت الحجرة علي والديها، ترك الأب زوجته تحتفل بابنتها وظل صامتاً كامناً عواطفه وحبه لابنته واستغل تلك الفترة في تقبيل حفيده وحمله ومداعبته ورغم أن الحفيد ظل ساكناً إلا أنه أشار إليّ بما يعني احملني أنت فأنا أعرفك أما هذا الرجل العجوز فلا أعرفه ، استطعت مادلين أن تفك ساعدى أمها وتتحول لأبيها تقبله والدموع تغطي عينيها الجميلتين التي طالبت كل الألوان التي وضعتها بمحل الكوافير، كانت تقبل يد والدها الضعيفة الواهنة والرجل يقبل قمة رأسها، أجلست أباهها وأمها وجلست أَرْضاً أمامهما على السجادة وطلبت مني الجلوس بجوارها وأشارت لشادي فجلس بيننا كأنه

راغب بالحصول علي الحب والحماية من أمه وجدته وجده الحقيقي والمعنوى.

ظللنا نتحدث ونسمع أصواتاً بالخارج والبعوض ينادى علي عم ميخائيل لكن كل هذا كان مثل الحلم، بعد قليل سمعنا طرقات علي الباب وصوت ينادى عم ميخائيل .. افتح يا عمي .. أنا شنودة، أسرعت مادلين وفتحت الباب وعانقت الشاب الذي كان قادمًا، ابن عمها، كانت السعادة واضحة عليه حيث فجر قنبلة أمام مادلين حين قال:

. دلوجتي شوجي جوزك لما يعرف أنك وشادى وصلتم بالسلامة مش حتميعه الفرحة .. نظرت إليه في بلاهة فأكملت أمها الخبر بأن شوجي كان في الأسر ورجع بعد الحرب بست أشهر، وقفت مادلين ساكنة وشعرت بأنها سوف تسقط فأسرعت بالوقوف وعاونتها كي لا تصاب وأجلستها علي أحد الكراسي وهي تردد:

. شوقي حبيبي لسه عايش، أشكرك يارب وأشكر العذرا وأشكرالمسيح .. ياه .. بالمحبه ح نعيش ونكمل حياتنا، نظرت إليّ والدموع تملأ عينيها ونهضت ووضعت يديها حول عنقي تقبل وجنتي وتردد:

. ربنا يخليك ليا يا بابا جبر، نظرت لمن حولها وتقول .. لولا بابا جبر بعد ربنا مكناش لسه عايشين، ربنا يخليك ولأنك ومراتك ويخليك لهم، أسرع شنوده يخبرهم بأنه سوف يذهب لشراء عشاء فاخر يناسب هذا الحدث المهم، نظرت إليه مادلين وهي تردد: ممكن يا شنودة بعد ما نتعشي تبعت السواق بتاعك بعربيتك يوصل بابا جبر لأسويط ثم دنت من أذنه وأفضت إليه بكلمات قليلة

فأتبعها الشاب مبتسماً قائلاً:

- أنا بنفسى اللي ح أقوم بالحكاية دية، مش عايز حد ياخذ الشرف ده غيرى  
اللى أنقذ أختى و بنت عمى وابنها لازم أوصله معزز مكرم .. هكذا قضيت  
نصف ليلة في منتهى السعادة ومن حين لآخر أتبادل النظرات ومشاهدة  
مشاعر الأب والأم وابنتهما ونظرات الجميع للحفيد الذى نام بيننا ونحن جميعاً  
ننظر لما وهبه الخالق لنا.

منتصف الليل بعد أن قضينا وقتاً ممتعاً سواء في تناول الطعام الشهي  
والأحاديث الطيبة بيننا نهضت أنا وشنودة الذى أعاد تقبيل ابنة عمه بينما  
قمت بمصافحة المقدسة سارة وتبادلتي القبلات مع المهندس ميخائيل الأب  
وأيضاً مادلين بعد هذا انحنيت أقبل شادى الذى مازال نائماً واندفعت الدموع  
منى وأنا أقوم على وداعهم، هبطنا السلم ومازالت الأسرة واقفة تودعني ببيكاء  
وإشارات طيبة، أمام المنزل بالشارع كانت تقف سيارة مرسيدس بيضاء يقودها  
سائق، جلست بالخلف ويجوارى شنودة الذى كان يلقبني بالعم جبر .

شعرت أن شنودة هاجمه النعاس حيث مالت رأسه للجانب الآخر بعدها  
ارتفع صوت شخيره، كنت أحاول أن أتلثم المناظر الخارجية حول الطريق  
من خلف زجاج السيارة ووجدت صعوبة فى تحقيق هذا؛ كنت أشاهد أشباحاً  
من الشجر وبعض المباني، طارت بي الذكريات لأسرتي، فقد شعرت بأنني  
نجحت في الوصول بالأمانة إلي بر الأمان، كنت أشعر بالابتسامة العريضة  
على وجهي من هذا التوفيق الإلهي، طرت بذاكرتي إلي أسرتي أستعيد أحوال  
بناتي وابني الصغير وزوجتي الطيبة، كنت في شوق إلي مشاهدة واستنشاق

دخان الفرن البلدي والكانون، كنت أسمع أصوات هديل الحمام الذي يعيش في بيتنا بالقرية، كنت في شوق لمجالمة شقيقاتي وأشقائي وعائلاتهم، كانت مشاعري فياضة وكأنتني في حلم حتى الآن مثلما كان يحدث لنا في بداية الرحلة بأن ننهض من حلم جميل ونحن نحيا بين أهالينا ثم نفاجاً بتلك الرحلة البحرية الخطيرة والصعبة، أتساءل: هل هذا حقيقي؟ هل وصلت مادلين وابنها لأسرتها ومنزل والديها، هل ما يجلس بجوارى بعد أن غرق في النوم هو شنودة ابن عم مادلين؟ هل المهندس شوقي مازال علي قيد الحياة، هل.....

ظلت السيارة تسير بنا حتي اقترب موعد أذان الفجر وبدا ضوء يوم آخر يظهر في الوجود، علي مداخل القرية كنت أشاهد وفود المزارعين متوجهين للحقول بصحبة دوابهم بينما الأدخنة تتصاعد من دور القرية لإعداد الطعام توقفت بنا السيارة؛ لقد أصبح الطريق ضيقاً ، نهض شنودة من نومه فأشرت له بأننا وصلنا، وأن منزلنا الكائن بنهاية الحارة الضيقة غادر السيارة مصافحاً وسار معي حتي باب البيت بين نظرات البعض الذين ينظرون إلينا، البعض يشبه والبعض يعتقد بأننا أشخاص آخرون، أمام باب المنزل ناولني شنودة علبة قطيفة حمراء وقال لي وهو يشد علي يدي تلك هدية ابنتك مادلين لابنتك فاطمة ، حاولت التمتع وأن تلك الهدية ثمنها كبير، شد علي يدي وأخبرني بأنه من أكبر تجار المصوغات الذهبية بالمنيا؛ صافحني واحتضنتني مربتاً علي كتفي وعاد للسيارة التي عادت للخلف بينما واصلت تقدمي للمنزل هناك نقت علي الباب الخشبي.

سمعت من يتساءل عن يقف بالخارج، فأجبت بصيغة التساؤل:

. أم فاطنة

. أيوه أنا ، أنت مين؟

. أنا أبو فاطنة!! سمعت صراخها وبعض المباب وتخبر من بالمنزل بأن رجلا بالخارج يقول كلاماً فارغاً، سمعت حركة بداخل المنزل ثم أعقب هذا سماعي لصوت أحمد ابني يتوعد الرجل الشايب اللي مش بيختشي علي دمه بيعد وإلا ح يخلي نهار أمه ضلمه، ضحكت وقلت والله كبرت يا حماده؛ أنا أبوك ياوله وخلصت المهمة اللي كنت فيها وراجع لكم، ح أفضل واجف بره الدار كتير أنا جعان وعابز أريح جتتي، شاهدت الباب يفتح تدريجياً؛ كان أول من شاهدته ابني الصغير أحمد الذي صرخ بأمه مردداً:

- بوي جه .. بوي جه .. أقبل باقي بناتي وهن بيكين والبعض يزغردن وتتبه الشارع من حولنا ومن كان متوجهاً للحقل عاد أدراجه ويخلفه الجاموس والبقر والحمير وكان عددهم كبيراً وبالتالي أصبح عدد المهنيين بوصولي كبيراً بدخول أصحابي الذين يسيرون على الأربع حفل الاستقبال والتي كانت تهز زيلها فرحاً بعونتي، انتشر خبر عونتي بالقرية وتردد صدها بين أفواه الناس الذين كانوا يكررون جملة واحدة: الصول جبر أبو إسماعين وصل من الحرب، خلال اللقاء نظرت زوجتي لعبة القطيفة الذهبية التي بيدي؛ اندفعت وقامت بخطفها عنوة وفتحتها ونظرت لما بها في دهشة وجحظت عيناها، إعتقدت أن كمية الذهب الكثيرة بداخل اللعبة لا تخصها، نظرت إلي نظرة كلها ريبة وكره ثم أطلقت فمها بالعويل والصراخ، صمت الناس وتوقف الحفل وبهت الجميع ونهقت الحمير والبعض تساءل: جرى إيه يا عالم؟ بكت زوجتي ولولت

وتصرخ وتعدد بأن الرجل الدني العجوز ح يجوز عليها ومن جرمه وفجره  
جايب شبكة العروسه معاه .. تسمرت بمكاني والبعض نظر إليّ كارهاً؛ خلال  
هذا ضاعت الفرحة بالعودة ونظر إليّ ابني الصغير شبه عاتب كما أقبلت  
فاطمة وزوجها وابنها، وبعد اللقاء الساخن فتر اللقاء وأصبح الجميع ينظرون  
إليّ نظرتهم للمتهم، أصبح من حولي هم حراس السجن وينظرون للسيدة  
البريئة بكل حب وتعاطف.

خطفت علبة المشغولات الذهبية من يدها ومددت بها إلي ابنتي فاطمة التي  
رفضتها، صحت بهم جميعاً مردداً: تلك هديتي لابنتي الحبيبة فاطمة التي  
تزوجت وأنا مشغول عنها بالحرب، تبدل الحال وعلت الأصوات الفرحة  
وخرجت بعض الزغاريد وأقبلت زوجتي تحتضنني وتقدم اعتذارها؛ طلبت منهم  
إعداد الطعام وحين انتهيت من تناوله أويت لداخل الجاعة" الحجرة " ورحت  
في نوم عميق.

استيقظت صباح اليوم التالي أنظر من حولي فشاهدت مناظر وأشياء  
غريبة عني لم أشاهدها منذ زمن؛ كما غزت أنفي رائحة خبز يعد علي النار  
جلست شبه تائه أحاور نفسي، أين أنا وما هذا المكان، أعتقد أنني كنت أعيش  
بهذا المكان منذ زمن ولكن أين أنا، نهضت راجباً في البحث عن مادلين  
وشادي، خرجت من الحجرة فشاهدت أشخاصاً غرباء عني، نظرت إليهم في  
دهشة وتوقف لساني عن سؤال: من أنتم؟

تنبهت بأن هؤلاء عائلتي، زوجتي التي تقف بأحد أجناب حوش الدار بجوار  
الكانون المشتعل والتي تخرج من فتحته العليا بجوار الحلة دخان فاتح اللون

وهذا في الموروثات بأنه دخان احتراق المسكة "الجلة المصنوعة من روث البهائم" أنقرس في الجميع، أشاهد بناتي " عليه وسعدية وفتحية وهنية والصغير أحمد بينما عادت فاطمة الكبرى لدارها مع زوجها وابنها" مازلت أتجول ببصرى بحثاً عن مادلين وأنقرس بين أبنائي عن شادى ، لم أعثر علي أحد منهما صمت وأغمضت عينيّ وعدت إلي حجرتي وألقيت بجسدى المنهك علي الأرض فوق الفرشة المتواضعة المصنوعة من وير الجمال.

أسمع أصواتاً بالخارج وبعض نساء يتحدثن وأصوات رجال وفتح الباب وظهرت بعض النساء بملابسهن السوداء ، إحداهن أقبلت ناحيتي ترحب بي بلهجة نساء الصعيد وتشكر الله لاستجابته لدعواتها بالعودة إلي عائلتي وتردد " انت عارف أنا مين يا جبر يا خويا؟ أنا أم إبراهيم أيوه أم إبراهيم أحتك جصدي نفيسه، فاكرك أحتك نفيسه اللي عملتك ذكر بط في آخر إجازة وبعدها معودتش علينا تاني، واللي ريحي ده متولي جوزي، جرب يا متولي وسلم علي خويا جبر، ربنا يخليك يا خويا ، أشاهد سيدة تزاحم أم إبراهيم وما فعلته نفيسه أم إبراهيم قامت به خضرة أم سعيد وزوجها الحناوى يتبعها كظلمها.

انتهى عدد من شقيقاتي وأشقائي بعائلاتهم من الترحيب بي وأخبرتهم زوجتي بأن نترك جبر يحصل علي راحته؛ حيث واجه متاعب جمه في طريقه من كيبانية الجاز " شركة البترول " حتي وصوله لداره، شعرت بأن السعادة التي كنت أنشدها لم تكتمل لقد فقدت جزءاً مهماً من سعادتني، فقدت ابنتي وحفيدي، لقد استقر هذا التفكير وذاك الاعتقاد بعقلي، فلقد ظللنا قرابة الثلاثة أعوام نحيا معاً ونسير ونتحدث ونجابه الأزمات والموت معاً طفرت الدموع من عيني وكننت في أشد اللهفة للعودة ومشاهدة مادلين وشادى ابنها

خشيت القيل والقال من عائلتها، بل من الممكن أن تثور وتتبدل معاملتها لي وتعطيني درساً في التقاليد وتخبرني بأنك قمت بعمل وقد جازيتك بتلك القطعة الذهبية، جلست ساكناً وأنا أستعيد حلم الأعوام السابقة، قررت النهوض من الحلم والعودة للحقيقة بأن أتوجه بعد يومين لمديرية أمن السويس لأسلم نفسي والسلاح وأنتظر التعليمات.

### ماتلين:

نهضت هذا الصباح المغاير لكل الأيام السابقة، شاهدت أمي تجلس بجوارى علي حافة السرير تداعب بيدها خصلات شعري المنسدل علي مقدمة الجبهة، مجرد أن شاهدتني أفتح عيني حتى انحنيت علي وقبّلت رأسي وهددت علي صدري، اقتربت منها ووضعت رأسي بين ساقها باكية، تربت علي ظهري وتلّو الصلوات، نهض شادي وتحرك علي السرير حتي وصل إلي ثم نظر في أركان الحجرة وسمعه ينادي عم جبر .. ماما .. فين عم جبر؟ .. ماما .. عايز عم جبر .. وأتبع هذا بالبكاء ولم أستطع التماسك فبكيته مثله بينما أمي تنتظر إلينا بدهشة وتردد: أنتم معانا .. مع أبوكي وأمك تقوموا تفكروا في الرجل الغريب، وضعت يدي علي فمها بهدوء وأنا أنظر إليها بعمق وأردد:

- ماما .. بالله عليكى مش تقولي كده، عم جبر ده أعظم إنسان قابلته في حياتي، تقاطعني:

. يعني أحسن من أبوكي وجوزك؟

- بابا ده أبويا اللي أنجبني وشوقي ٤٨ هو جوزي اللي إجوزني وخلفت له

شادى، أما عم جبر فهو الراجل اللي بيعمل في شركة البترول وملوش أى صلة بينا وقابلنا في أصعب الظروف ورغم الظروف دية قام معانا باللي مكنتش حد يقدر يقوم بيه لا بابا ولا شوقي ولا حتى شنودة ابن عمي، ماما لو حكيت لكي علي اللي قام بيه الراجل ده .. تقاطعني:

- كفاية شكر، عمل شغلانه وخذ عليها أجر، شنودة جاللي الصبح بعد ما وصله أن حنة الذهب اللي أخذها أكبر من مرتبه في عشر سنين .. نظرت إلي أُمي وظهرت الدموع بعيني وأنا أردد:

- ده الفرق بينا وبين عمي جبر، مطلبشي مني مليم ومكنتش بينتظر شكر وقام بكل ما قام به من أجل الله والإيمانية والخوف عليّ وعلي شادى؛ مخدشي عليا عهد أني أقدم له مكافأة وكان من المحتمل أنه يرفض الهدية .. تقاطعني:

- فعلا يا مادلين، شنودة عرفني بكده وجمال إن الراجل كان زعلان ومكسوف لكن شنودة مش إداله الفرصه وأسرع بالهرب للسيارة وترك الرجل بالشارع ينظر إليه بدهشة، مش تزعلي يا بنتي، ده مش يوم الزعل ده يوم الفرح، علي فكرة الأب صمويل راعي الكنيسة راح له شنودة وعرفه بعونتك وح يعمل جداس يوم الأحد الجاي عشان المناسبة المسعيدة دية وكمان ح يعرف كل المصلين بالكنيسة.

جومي معايا يا حبيبتي نجعد مع أبوكي، تعرفي أن أبوكي مجاش له نوم بالليل وكل شوية يجي عند باب أوضتك يمكن يشعر أنك صاحيه عشان يبوسك ويكلمك ويبوس شادى والصبح كان عايزني أدخل أجيب له شادى

يلعب بيه، بتعيطي؟ أكيد شعرتي بحنان الأم والأب مع شادى، أيوه احضنيه  
عشان يبطل زن، حصليني علي الصالة.

نهضت وتوجهت للحمام ومعى شادى وقمت علي نظافته وإعداداه إعداداً  
جيداً كي يجالس أبى وأمى وياقى الضيوف المهنتين المنتظر وصولهم، أنا  
أعلم أن شنوده ابن عمى سريع الحديث ضاحك الوجه دائماً ما يرغب في نقل  
المعلومات والأخبار المفرحة وأعتقد أنه لم ينم منذ الأمس؛ حيث تجول علي  
منازل العائلة والأصدقاء ومن المحتمل أنه ذهب لوالد ووالدة شوقي زوجي.

أجلس بالصالة أشاهد أبى يلعب شادى الذي اندمج معه، لقد شعر بأنه  
قريب السلوك والصوت والحركة من عمى جبر، أردت بداخلي:

. يا تري بتعمل إيه يا عم جبر؟ أكيد نستني أنا وشادى لما شفت عيلتك الكبيرة  
رينا يجازيك كل خير علي أفعالك، سرحت بنظري وفكرى أستعيد بعض الأيام  
والأحداث مع عم جبر ولم أنتبه لوصول والديّ زوجي، كنت أرغب بأن أخلو  
بنفسي كي أستعيد أجمل العلاقات الإنسانية الطيبة بين أبناء الوطن الواحد  
دمتمى لنا يا مصر.





الجزء الثاني

الحرية الحمراء



## لقاء غير متوقع

بعد أن قضيت أربعة أيام بين عائلتي وبناتي وزوجتي وأحبائي استعدت فيها مشاعري نحوهم وتلقيت منهم الحب والعاطفة الصادقة النبيلة ورغم كل هذا لم أنس مادلين وطفلها، لقد كانت نكراهم دائماً في عقلي وقلبي الذي كان يخفق بحبهم ويتوتر حين أتذكر أيام العذاب والألم والمخاطر التي واجهتها غادرت القرية بوداع ساخن ودعاء بالعودة سالماً بإذن الله، كنت راغباً بالعودة لعملتي كي أخبرهم بأنني مازلت علي قيد الحياة؛ لقد أبلغتني زوجتي بأن مديرية أمن السويس اعتبرتني مفقوداً بالحرب ومن أجل هذا قاموا بربط معاش موقنت لحين مرور أربعة أعوام على فقدي حتي يتأكدوا بأنني لن أعود ثانية للحياة وأنني قابلت ربي وتلك هي قوانين الدولة.

وصلت إلي مديرية الأمن بالسويس وجدتها مهجورة والتقيت ببعض جنود الأمن المركزي وهم جنود صغار السن، لم أتعرف علي أي أحد منهم كما أنهم لم يتعرفوا علي شخصي وحين سألتهم عن موقع المديرية أخبروني بأنها موزعة بأرجاء المدينة خشية غارات الطائرات المعادية ومن أجل هذا علمت بأن الأمن العام متواجد علي أطراف منطقة الجنائين شمال مدينة السويس حيث يتحصن بتلك المنطقة التي تنتشر بها حدائق النفاكهة وقد أعد الجيش المصري لهم أماكن الوقاية والحماية تحت الأرض.

ركبت المواصلات من اللوارى الخاصة بالجيش والتي تنقل مواد الإعاشة أو المياه للجنود الذين يسهرون علي حماية الوطن علي جبهة القناة؛ وصلت لموقع الأمن العام مساء هذا اليوم، خلدت للراحة بوحدة عسكرية إدارية

حيث أكرم الجنود وفادتي، صباح اليوم التالي توجهت لإدارة الأمن العام وهناك التقيت بأحد الضباط الكبار الذي يعرفني والذي فوجئ بأنني مازلت علي قيد الحياة، رحب بي وطلب من شئون الأفراد إثبات عودتي بهذا التاريخ كما طلب مني كتابة تقرير أوضح فيه الأسباب التي أدت إلي تأخر عودتي خلال تلك الفترة كما رفض تسلم السلاح الإسرائيلي نظراً لأنه ليس عهدة بقوات الأمن.

مضت ثلاثة أيام انتهى خلالها قسم الأفراد بإثبات حالتي وتسلم التقارير كما تسلمت عهدة جديدة من ملابس الشرطة واستبدلت المعدس الأميري الذي كنت احملة معي فقد تبين لهم بأن الصداً قد طال ماسورة السلاح، بعد هذا دفع بي لمنطقة الشلوفة القريبة من منطقة الجنان، هناك التقيت بالعديد من زملائي كبار السن الذين رحبوا بوصولي وسماع بعض حكايات طريق العودة التي أدهشتهم بطريقة ملفتة للانتباه.

مضى عليّ وجودي أسبوع لم أشعر بأى شيء يضايقني سوى من رئيسي المباشر النقيب صلاح الذي كان يتناول علي شخصي بالحديث وبالمباب تارة وبالتحذير من توقيع جزاء مادي يخصم من راتبي تارة أخرى؛ لم أكن أفهم أسلوب عمل هذا الرجل الذي لم يبلغ الثلاثين عاماً من عمره حيث يقارب في العمر ابنتي فاطمة، كنت أصمت وأسكت علي سبابه لي ولم أعد أستطيع التكيف معه في العمل، هذا يوم غير عادي حيث أقبّل النقيب صلاح وأنا أقف قريباً من مجموعة من جنود الجيش التابعين للمهندسين العسكريين يعدون موقعاً لإحدى وحدات الجيش وهذا المكان مجاور لمكان خدمتي.

توقفت العربة التي يستقلها النقيب صلاح قريباً مني ونادى علي بصوت

جهوري أجش بعد أن وصف والدئ بالكلاب، توقف رجال الجيش عن العمل ينظرون جهته والغضب بان علي وجوههم الطيبة، أسرعت أعدو في اتجاهه مقدماً له التحية العسكرية وأتبعها أوامرك يا سعادة الباشا: مازال جالساً بالسيارة ومد ذراعه من شباك السيارة وجنبي ناحيته بقوة ويمبني ، وبسرعة البرق هوي علي وجهي بصفتين متتاليتين لم أنتبه من آثارها إلا علي صوته هو والجندي المائق يستغيثان وهما ملقيان علي الأرض ورجال الجيش يوالون ضربهم صفعاً وركلا بالأقدام.

شعرت بأن كارثة سوف تحل علي شخصي، فريسي ضرب وأهينت كرامته بسببي وسوف يتقدم لرؤسائه بالشكوى ضدى، نهض من علي الأرض يتوعدي ويتوعد جنود الجيش بأنه سوف يتسبب بدخولهم السجن الحربي أسرع أحدهم جهة النقيب صلاح وبسرعة لكمة لكتين سقط بعدها أرضاً وسبه وألقي عليه بجملة لا أنساها أبداً: يا نتن افنكر دايماً أن فيه الأقوي منك، لو كان أبوك رباك مكنتش علمت كده في راجل في عمر أبوك لكنك متريتش، قوم غور من هنا ولو شفئك هنا تاني ح أضريك بالنار؛ علمت بعد هذا بأن من قام بهذا العمل يدعي المهندس عمرو وهذا واضح من نداء زملائه له بالعودة.

خلال هذا كانت سيارة الشرطة تسرع بمغادرة المكان حاملة كل من الضابط صلاح والمائق وآثار الدماء نتيجة الاعتداء عليهما بالضرب واضحة علي الوجوه والملابس، اقترب مني الشاويش عمرو وقدم لي ورقة صغيرة وكتب عليها اسمه ودرجته العسكرية واسم وحدته التى يتبعها وأنه مستعد للشهادة والاعتراف بأنه الممتسب في ضرب هذا الضابط عديم الأخلاق.

توجهت لمكان عملي المعتاد وأنا في حالة من الضيق والتوتر لما حدث بيني وبين الضابط صلاح، لقد شعرت بالمهانة والذل لقيامه بالاعتداء علي بالضرب والسباب بعد هذا العمر الطويل؛ لقد قضيت في خدمة هيئة الشرطة ما يصوب عن الخمسة وثلاثين عاما ثم يأتي هذا الضابط الشاب ويعتدى علي كرامتي وكبريائي مخالفا بذلك قانون الخدمة الذي أعطاه صلاحيات بأن يطلب من رئيسه الأعلى توقيع الجزاء والعقاب الإداري علي شخصي وليس توقيع الجزاء الأدبي والبدني علي المخطئ.

منذ وصولي لمدينة السويس وأنا أشاهد المعارك العنيفة بين الجيش المصري والجيش الإسرائيلي والتي لم أشاهد مثلها من قبل سوى المعركة التي تمت بمنطقة "مرسي حميرة" والتي قام بها ثلاثة من الجنود الهاريين من الجيش المصري بعد توقيع الحكم عليهم بالسجن الحربي لقيامهم بسرقة مستوعات إدارية خاصة بالجيش أثناء المعارك التي قام بها الجيش المصري بجمهورية اليمن، كانت ساحة المعارك بالسويس عنيفة وأثار المباني المهتمة بكل مكان خاصة الأحياء الشعبية العتيقة وبالأخص حي الأربعين الذي تهدم جزء كبير منه كما أصبحت المدينة مهجورة من البشر خشية الإصابات الناتجة من المعارك والتي يتعمد الجيش الإسرائيلي قذف المدنيين كي يزيد من الخسائر ويدفع بهم للتمرد علي الحكومة.

اليوم التالي لهذا الحدث مع الضابط صلاح أقبل الصول عبدالقادر الذي يعمل بمكتب الأفراد بالمديرية ومعه خطاب موجه لشخصي من رئيس الأفراد الرائد حسن يخبرني فيه بالمثل أمام اللواء سعيد حكمدار الأمن للتحقيق معي فيما نسب إلي بالتعدي علي النقيب صلاح والجندي المسائق معه وحدد

التوقيت صباح بعد باكر بتمام الساعة العاشرة بمقر الحكمدارية.

كانت نظرة الصول عبدالقادر لي تتم عن احتقار لما قمت به وفي نفس الوقت الأمسي لما سوف أجنيه نظير اقترافي لهذا العمل الأهوج، جلست قليلا أستوعب ما حدث وما هو التصرف المناسب الذي سوف أقدم عليه وما ينتظرني من تشريد لي في العمل وقد ينعكس هذا علي أسرتي بالألا يجدوا الدخل الذي يتعيشون منه رغم ضآلته، تذكرت الشاويش عمرو، أخرجت حافظتي وبحثت بها حتي عثرت علي الورقة التي بها اسم الوحدة ومكانها كانت الوحدة تتمركز بمنطقة المثلث الخلفية للقادم لمدينة السويس من طريق القاهرة.

صباح اليوم التالي توجهت لموقع كتيبة المهندس عمرو ركوباً بعض الوقت والسير أوقاتاً أخرى، المسافة بين موقعي بالشلوفة وموقع الكتيبة لا يزيد عن الأربعين كيلومتراً، وصلت بعد ظهر هذا اليوم وأنا شبه مترنح من طول الطريق ومشقته، كنت أسير لمدة نصف ساعة حتي يلحق بي أحد لواري الجيش فأشير إليه بالتوقف، البعض يتوقف والبعض الآخر يرفض لوجود ذخائر أو لأنه محمل بأمثلة كثيرة.

قابلت أحد الجنود وسألته عن الشاويش عمرو، نظر جهة بعض الأوعية الملقاة بالموقع قائلاً لي إنه ينام بداخل \*ملجأ المهندسين المجاور لتلك الأوعية توجهت للملجأ ودخلت من بابه المنخفض الارتفاع ونظرت بالداخل فشهدت أحد الشباب ينام أرضاً وقد غطي وجهه بغطاء وجهه، تتنحنت كي أوقظه دون

إزعاج فلم ينتبه، تحدثت معه منادياً عليه:

- شاويش عمرو، جوم يا شاويش عمرو، ربنا يعمر بيتك عندي تحجيج بكرة في حكاية النجيب صلاح ورايح للحكمدار، سيادة اللواء سعيد الحكمدار راجل معندوش رحمه بالضعفا اللي زى حالتي، جوم والنبي.

تململ الشاب ورفع فوطة الوجه من علي وجهه فتأكد لي أنه ليس بالشاويش عمرو، جلس الشاب في حالة من الانتباه واقترب بوجهه من مكان جلوسي قريباً منه، شاهدت عينيه تلمعان ومازال يدقق النظر وهتف: أنت عم جبر اللي كان شغال في موقع بتترول أبوزنيمه؟ أشرت برأسي ولحقت بها كلمة أيوه، صرخ الشاب وعاد للنوم أرضاً يرفس برجليه ويهذى مما دفعني لمغادرة الملجأ والإسراع بالهرب.

\*ملجأ المهندسين الذي يعده أفراد المهندسين العسكريين للقوات على جبهة القناة ويقع تحت سطح الأرض بقرابة مترين ومقوي بالحديد كي يحمي الأفراد من نيران المدافع والدبابات والطائرات.

قابلني عدد من الجنود وضباط الصف ومن بينهم الشاويش عمرو الذي رحب بي متسائلاً ما هذا الصوت، وقفت أروى له ما حدث وأثناء هذا خرج الشاب الثائر من الملجأ يشير ناحيتي ويطلب من الجميع الإمساك بي وألا تدعوه يهرب، تبادلوا جميعاً النظرات وأيضاً عمرو الذي حادث الشاب مردداً:

. ما هو ده الشاويش اللي عرفتك بحكايته ، جرى إيه يا شوقي؟ نسيت.

في تلك اللحظة أقبل الشاب ونظر في وجهي وأنا أيضاً حيث هتف ثانية:

. عمي جبر ، كان يهزني من كتفي ويردد:

- فاكرنى ياعم جبر؟ أنا شوحي غالي، تنبتهت وتأكد لي أنه المهندس شوقي غالي زوج السيدة مادلين ووالد شادى، ألقيت بصدري عليه باكياً وهو بالأحرى كان يبكي بحزن وألم والجميع من حولنا صامتون وكان علي رعوسهم الطير وتساءل أحدهم: جرى إيه يا جماعه؟ مش تعرفونا بحكايتكم.

جلسنا جميعاً علي الأرض ومازال المهندس شوقي ممسكاً بيدي يهذى ويعرف زملاءه بأن هذا عم جبر أحد العاملين معه بموقع البترول بسيناء وهو آخر من شاهد زوجتي وطفلي وقام بدفنهم بعد أن صعدت أرواحهم الطاهرة للأعماج السماوية، نظرت إليه بدهشة وتساءلت:

. مين جلك الكلام ده يا باش مهندس؟ أجابني سريعاً وفي حالة من الدهشة:

- جري إيه يا عم جبر؟ يعني أنت سبتهم بعد ما ماتوا وخليت الغريان  
\* والحدادي تاكل جنتهم؟

. يا باش مهندس، المت مادلين وشادى ابنك بخير وأنا وصلتهم لدار نسايبك من خمس تيام وجابلنا ابن عم المت مادلين الأستاذ شنودة، وقف المهندس شوقي غير مصدق بينما هلل زملاؤه وقاموا يعطرونه بالأحضان يقدمون له

التهنئة ومازال شوقاً واقفاً صامداً دون حركة ينظر إليّ وجسده يهتز من تهنئة زملائه له، جلس علي ركبتيه مواجهاً لي وأعاد تساوله:

. يعني مراتي وصغيري بخير يا عم جبر؟

. أيوه يا باش مهندس

. مش ماتوا يا عم جبر؟

- لا والله، دول حلويين وزى الفل يا باش مهندس، قبل رأسي بل حاول تقبيل يدي والتف الجميع من حولنا وزادت الزيتة والهيصة على أثرها أقبل القائد فنهض الرجال يقدمون له التحية الواجبة، تساعل الرجل عن أسباب تلك الجلبة والوضوء فأخبره أحد زملاء شوقي بما حدث لزوجته وابنه.

\*"جمع حدأة وهو طائر مفترس"

أمسك القائد بيد شوقي وقدم له التهنئة وقبله وأخبره بأنه سوف يمنحه أجازة من صباح الباكر كي يقوم بقاء أسرته، تنبهه شوقي بأنه مازال أمامه دفتان إجازات أى عشرة أيام لكن القائد وافق وهنا انبرى المهندس عمرو وأخبر شوقي أنه يقوم بعمل بدل معه، فبدلاً من أن يقوم بأجازته باكر سوف يتأخر العشرة أيام وعليك النزول ولقاء زوجتك وطفلك كما أنني سوف أصطحب عم جبر للتحقيق الذي سيجريه حكمدار الأمن بالمويس، تساعل القائد عن أسباب هذا التحقيق فأجابته عمرو بما حدث، طلب منهم تأجيل هذا

وسوف يحدث قائد الفرقة السابعة مشاه السيد العميد أحمد بدوي في هذا الأمر  
ويخبرني بكيفية التصرف.

كان المهندس شوقي رافضاً النزول كي يطمئن علي حالي ولكن زملاءه  
والقائد صممو علي نزوله أجازة وسيتولون علاج ما حدث، منتصف الليل  
أرسل القائد يبشر عمرو بأن قائد الفرقة سيادة العميد أنهى المشكلة مع  
الحكمدار الذي اكتفي بنقل الشاويش جبر لمدينة القنطرة غرب ضحكنا جميعاً  
وكان أسعدنا هو المهندس شوقي الذي لم يفتأ عن تقيلي وسوالي عما حدث  
وكيفية العودة، جلس هو وزملاؤه يسمعون مني في دهشة تلك الرحلة الخطيرة  
بل لم يسمعو من قبل عن تلك البلاد ولا يعلموا بما يحدث بين القبائل.

قبل بداية ضوء نهار هذا اليوم أيقظني المهندس شوقي وبعض زملاءه  
الذين نهضوا مودعين بينما شوقي أخذ بيدي وتوجه معي لأحد اللواري التي  
تنتظره كي نقله إلي مدينة السويس، هناك رافقتني حتي مكان عملي السابق  
فجمعت ملايمي القليلة ثم رافقتني حتي مبني الحكمدار، هناك تسلمت الخطاب  
الموجه لمديرية أمن الإسماعيلية والذي يفيد بأنه تم إلحاق الرقيب جبر محمد  
إسماعيل علي قوة المديرية علي أن يخدم بمنطقة القنطرة غرب استعواضاً  
للخسائر التي منيت بها نقطة البوليس هناك؛ نظرت للخطاب وسألت الصول  
عبدالقادر الذي هدده علي ذراعي وردد: رينا معاك، كل خدمات البوليس  
بالجنطرة غرب يا ماتوا أو بيتعالجوا بالمستشفى، المنطجه مولعه يا جبر يا  
خويا رينا معاك والله أنا جلنت لسيادة اللوا سعيد أن جزاء الخصم أهون لجبر،  
كفاية عليه غلب المنين اللي فاتت كمان نبعته يموت في الجنطرة، سلمها لله

والأعمار بيد الله، أجيبت ونعم بالله.

غادرت المبني ومازال المهندس شوقي في الانتظار رغم شوقه وحينه لعائلته لكنه ظل معي كي يقلني إلي مدينة الإسماعيلية كما سبق وأخبرته تعامل عما ضايقتني، كان واضحاً علي وجهي حالة من الضيق لما صبه الصول عبدالقادر بأذني، أخبرته بأن فراق زملائه من الرجال ومفارقتك هي التي أثرت علي حالي، ظل الحديث الجميل بيننا وكنت أشعر بأن المهندس شوقي مثل الطفل حينما أحذثه عن شادي، كان سعيداً وراغباً بشراء لعب وهدايا له، من حين لآخر يقبلني ويدعو الله لي بأن يسترها معي ويرفع من شأني ويبعد عنى ولاد الحرم، كنت أؤمن علي دعواه؛ وصلنا بلدة نغيشة والتي تقع غرب الإسماعيلية وبها وسائل المواصلات البعيدة عن منغية العدو.

ودعني شوقي وقفز بداخل القطار الحربي المتجه للقاهرة ومنها يستقل قطار الصعيد المتجه لمدينة المنيا بينما ركبت بعض لواري الجيش التي تحمل المياه والشئون الإدارية حتي وصلت إلي قرية أبو خليفة، هناك التقيت بالرائد خليل القائم بأعمال مأمور مدينة القنطرة غرب وسلمته الخطاب الذي جلس معي يتبسط في الحديث وطلب لي كوبا من الشاي علي خلاف علاقة الضباط بالصف والجنود بالمرطبة، كنت أعلم سبب تبسطه معي، خرجت من مكتبه المتواضع ووقفت علي قارعة الطريق في انتظار لوري يحملني لمدينة القنطرة التي تبعد عن هذا المكان بمسافة خمسة عشر كيلومتراً باتجاه الشمال ناحية بورسعيد، أقبل لوري وجلست بأعلاه مع بعض الجنود وسمعت من أحاديثهم المتبائلة ما يبنى بأن أياماً سوداء قاتلة تنتظرني

## نار جهنم ولا القنطرة غرب

وصلت إلى نقطة البوليس بمدينة القنطرة غرب حيث دلني علي مكان وجودها بعض جنود الجيش، توجهت إليها بصحبة أحدهم ومجرد أن شاهدني الباش جاويش مذکور حتي نهض واقفاً مرحباً بي، جلس بعض الوقت معي يحدثني بأخبار عامة، حينما كنت أدقق النظر بوجهه كان يتجاهل نظراتي وينظر لأحد الأجانب كأنه يبحث عن شيء فقد منه رغم أن الظلام حالك بالمنطقة، طلبت منه أن يخبرني بكل صغيرة وكبيرة علي أن يقسم بالله وبأولاده بالألا يترك أي شيء مهما كان صغيراً إلا وأخبرني به ولا يخشي أي إنسان صمت الرجل قليلاً وكأنه يقاوم صراعاً بداخل النفس؛ هل يقول الحقيقة أم يخفيها عني، هذا ما كنت أعتقد أنه يدور بخلده وثبت صدق حتمي بعد هذا.

اسمع مني يا شاويش جبر، تعرف أن خسائر الداخلية في حرب الاستنزاف أكثر من نصها وقع هنا بالقنطرة، دي مدينة صغيرة ومن الناحية الثانية توجد مدينة القنطرة شرق المسيطر عليها الإسرائيليون، هنا الحرب شغاله كل يوم حتقول إن الحرب شغاله علي جبهة القناة، ح أقولك ده صحيح لكن المدينة دية ربنا ابتلاها بوحدة عسكرية عامله دوشه وقلبت الدنيا وخلت الوحدات اللي بتيجي من مصر تساعد في ضرب اليهود تكره المكان وتفر منه لمكان تاني.

الوحدة دية عبارة عن سرية مدافع يطلقون عليها سرية الهاون، عدد أفرادها ميزيدشي عن أربعين رجل، يقودهم ضابط صغير برتبة ملازم أول لكنه عامل مشاكل مع اليهود اللي لسه عايزين ينتقموا منهم عشان كده بيقوموا بضرب الوحدة دية بالمدافع والدبابات والطيران، حاجه ولا الأقسام بتاعة

أمريكا والحرب العالمية لكن انت عايش في وسطهم وعلي فكره إحنا بعيد عن الوحدة دية بحوالي خمسمية متر، يعني كل اللي تعمله تفضل في مكانك وتروح بالليل والدنيا ضلمه للمطبخ بتاع الكتيبة عشان تاخذ التعيين بتاعك "التعيين يعني الطعام" وترجع تفضل في مكانك وحتلاقي ورائنا سرية دبابات ناس في حالهم ومخبين الدبابات بين الشجر والبيوت ومش موافقين علي شغل الناس بتوع مدافع الهاون.

الشغل هنا مريح علي الآخر كل اللي عليك تعمله سهل وبسيط، ح يجيلك حد من سكان القنطرة معاه تصريح من المخابرات الحربية عشان يستلم ويشيل عزاله من البيوت المهجوره، تشوف بطاقته وتروح معاه علي العنوان بالبطاقة وتفضل معاه لحد ما ياخذ حاجته ويحطها علي عرييه كارو وتتأكد أنه ساب المكان ليروح كده والا كده ويكسر شقة ناس تانيه، ولاد الحرام مخلوش لاولاد الحلال حاجه، رينا ينهي الحرب دى علي خير، أنا بقالي هنا شهر لكن شاعر أني قطعت الخلفه من اللي بأشوفه، رينا وياك يا جبر، مش ح أوصيك أوعي تقرب من الناس بتوع الهاون لتروح في شربة ميه، الضرب مش بيبتل هناك وعلي فكره الناس دية دمروا مخزن ذخيرة لليهود من كام يوم وحصل عند اليهود خصاير كبيرة وعرفت من بتوع المخابرات الحربية القريبين من هنا أن اليهود بيجمعوا قوات كتيره عشان يخلصوا علي الوحدة دية؛ ح أمشي وقت الليل لأنه ستار ورينا معاك.

أثناء مصافحتي له سمعت صوت إطلاق مدفعية فارتجت فهبدأ من روعي وأخبرني أن ده صوت مدافع جيرانك بتوع الهاون، حتفضل تسمع الصوت ده طالما الحرب شغاله مع اليهود، رينا معاك يا جبر، تركني مذكور وغادر

المكان، جلست صامتاً لفترة وشعرت بأن المعلومات التي بثها برأسي جعلتني شبه تائه، لا أعلم ماذا حدث لي وشعرت أن الأحداث التي أعقبت حرب عام ١٩٦٧ بعد وصولي مع كل من مادلين وشادى لأرض البشارية علي البحر الأحمر قد عادت ثانية، لم أعد أعلم أين قدمائى وأين رأسي؟

### المهندس شوقي:

بعد فراق عم جبر توجهت وركبت القطار الحربي المخصص للضباط والجنود، إنه قطار مجاني يقوم بنقل المقاتلين من مدن القناة الثلاث الإسماعيلية والسويس ويورسعيد إلي مدينة القاهرة، تحرك القطار بعد أن غص بالجنود والضباط، كانت الفرحة علي الوجوه الشابة لحصولهم علي إجازة لزيارة الأهل والأحباب، كان واضحاً مدى سعادة من حولي؛ لأن جبهة القناة مشتتة بالنار والانفجارات والضحايا تمسقط بأعداد ليست بالقليلة وهناك قتالا وليس اعتداء من جانب العدو ونحن صامتون، كان القتال شديداً وعنيفاً ومتبادلاً.

خذ عدد كبير من الجنود في نوم هادئ نظراً لسهرهم طوال الليل فقد دأب الجنود أثناء نزولهم الإجازات التحرك ليلاً كي لا تشاهدهم طائرات العدو وتقوم بقصفهم رغم أنهم يسيرون مسافات طويلة علي الأقدام كي يبتعدوا عن الخطوط الأمامية لأن نيران العدو تهدد الجميع، ركنت رأسي علي ظهر الكرسي الجالس عليه وبدأت أستعيد ما بثه في رأسي بالأمس عم جبر، بعض الأحيان لا أصدق حديثه وكنت في دهشة أن استطاع هذا الرجل العودة من هذا المكان البعيد النائي بتلك الوسيلة البدائية، وإذا تمكن من العودة لأنه رجل

ويمفرد ماهر في السباحة إذا كيف تمكنت زوجتي من العودة ويرفقتها طفلنا؟

كان الشك والوسواس يهاجمني كثيراً، كنت أحاول أن أستبعد هذا الشك وأردد بأنني قاب قوسين أو أدنى من لقائهم ومعرفة الحقيقة، كنت أخشي بأن أمنى نفسي ثم أفاجأ بالحقيقة بأنهم لم يستطيعوا العودة وأن كلام عم جبر كان بغرض رفع روحي العنوية وأن الأمل مازال باقياً، ها قد وصل بنا القطار إلي مدينة القاهرة، سوف أستقل قطار الصعيد ومعى استمارة السفر المجانية التي يقوم بصرفها الجيش لجنوده مجاناً كي لا يحملهم أعباء مادية نظير زيارة الأهل، أقف مع المنتظرين وصول قطار الصعيد، ها قد أقبل القطار وبدأ الشباب الفتى في العدو نحو القطار كل واحد راغب بالحصول علي مقعد نظراً لطول مسافة السفر التي تتعدى العشر ساعات لأبناء أسوان والنوبة.

لم أعدو مثل الباقيين نظراً لأنني كنت أحلق في سماء الحب والعاطفة التي حرمت منها ثلاثة أعوام، هل سأظل علي قيد الحياة حتي ألقي بزوجتي وطفلي، كنت أدعو المسيح أن يمد الله في عمري حتي ألقي بهم وبعد هذا ما يقدره الرب يتم، ووقت بأحد الأجانب خلف باب عربة القطار أنظر من خلال النافذة لأشاهد المزارع والحقول ومن الناحية الأخرى نهر النيل؛ أسأل النهر القادم من الجنوب والذي عبر بلدتي المنيا: هل شممت رائحة عطر مادلين وشادى؟ أشاهد بعض فقايع علي سطح المياه كأنها تخبرني أنها بالفعل اثتمت عطر وشجي زوجتي الحبيبة وطفلي؛ كدت أقفز من القطار في اتجاه مياه النيل كي أكتسب بعضاً من هذا العطر؛ تحاملت علي نفسي ونظرت بمساعة يدي، شعرت أن الوقت ساكن لا يتحرك، فلم يمض حتي الآن سوى ساعة زمن واحدة ومازال متبقي ثلاث ساعات، شاهدت أحد الجنود

الذى وقف تاركاً كرسيه وأشار إليّ بأن أجلس مكانه، شكرته ولكنه ابتمس وأشار بأنه سوف يستقر علي رف عربة القطار كي ينام فاردأ ماقية فمازالت المسافة التي أمامه طويلة.

هكذا حصلت علي مقعد وطافت بي الذكريات وما أصاب الجنود من النوم أصابني أنا الآخر؛ فقد خلدت في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا علي صوت البعض يخبر الجميع بأننا بمحافظة بني سويف، شعرت بالبهجة فالمحطة القادمة هي المنشودة، مازلت أفكر: كيف سيكون اللقاء؟ لا بد من التماسك وعدم زرف الدموع، لقد قالها الأب صمويل: لا تبك ولا تتدم ولكن خذ بئارك ممن حرمك من أقرب الناس إليك، اذهب مع باقي الشباب لحومة الوغي بجبهة القتال، حارب وقاتل، لقد كنت صادقاً يا أب صمويل وتعلم ما يخبئه القدر، فما شاهدته من قتال وضربات سدنت للعدو لهو أحسن وأعظم عمل يقوم به الشباب للزود عن الوطن.

أسمع صوت تزييق عجلات القطار الذي سوف يتوقف، أشاهد يافطة المحطة التي تعلن للجميع بأننا بمدينة المنيا عروس الصعيد، كنت أرغب بأن أطلب من جميع من بالقطار أن يحتفلوا معي بعودة زوجتي وابني ويتركوا القطار ويواصلوا السير معي لمنزل عم ميخائيل هذا الرجل الطيب الوقور الذي تحمل بشجاعة فقد وحيدته وأيضاً حماتي المقدسة سارة والتي قامت بزيارة القدس عام ١٩٣٩ برفقة والدها، أصبحت مقدسة بعد أن زارت بيت المقدس.

توقف القطار ونهضت وتزاحمت مع الشباب وهبطت علي رصيف المحطة وسارت قدماي، كنت أشعر بأن سرعتي كبيرة، فقد تخطيت من

يسيرون أمامي وألحق بهم وأخطاهم وكأنهم يتسارعون عن سبب العجلة التي تسيطر على وكلها دقائق ما بين مسرع الخطي والبطيء، أشاهد الشارع الذي به منزل عم ميخائيل، الليل أسدل ستارته منذ ساعتين ومازال الناس يتحركون لقضاء مصالحهم، أشاهد إشعاعاً سماوياً من بين شيش الشقة؛ نظرت لأسفل حتى لا أصاب بخبل أو جنون، أين هذا الشعاع أيها المهندس؟ صعدت درجات السلم ولكن علي مهل كي لا أصاب بإرهاق وبالتالي لا أشعر بالمتعة التي أتمناها.

أقف علي باب الشقة، أتردد في الضغط علي مفتاح جرس الباب، أخشى أن يكون حديث عم جبر يفرض رفع معنوياتي، فجأة سمعت صوت بكاء طفل قفز قلبي من صدري واخترق باب الشقة كي يهدد عليه ويقبله ويخبره أن أباك قد أقبل وسوف تتمتع بكلمة بابا مثلما سأتمتع بكلمة شادي حبيبي، أسمع صوت سيدة تتحدث معه، أنه صوت الحبيبة، صوت مادلين، كدت أسقط من طولي من فرط السعادة التي لجلجت قلبي فأصبحت ضرباته سريعة متلاحقة أسمعها تحدث أهدأ بجوارها، تخبره بأنها تشعر برائحة شوقي، تدعو ربه بأن يقبل شوقي قريباً، أسمع صوت أمها تخبرها بأن شوقي مازال أمامه عشرة أيام علي موعد إجازته.

خارت قوى وارتميت علي باب الشقة فاهتز وتحرك وسمعت من الداخل يستقر عن الخارج، لم أستطع الإجابة لكن حماتي المقدسة سارة الشجاعة أقبلت وفتحت الباب وشاهدتني فقبلتني وأمسكت بيدي كي أدخل بصحبتي شاهدتها تجلس بجوار شادي تطعمه، سقطت المعلقة من يدها وألقت بالطبق جانباً ونهضت مسرعة في اتجاهي لكن أعصابها لم تتحمل المفاجأة

كادت أن تسقط، أسرعت ولحقت بها وقبلتها وضممتها إلي صدري، شعرت أن عظام القفص الصدري سوف ينكسر ولم تبال أو تصرخ أو تتألم.

وقفت في مواجهتها، أنظر إلي عينيها الساحرتين، أعود قليلاً للماضي حينما كنا نختلبي ببعض أثناء سيرنا علي كورنيش المدينة، كنت أغوص داخل تلك العينين الجميلتين فأشاهد الجنة الموعودة، شعرت بحبي نحوها وشعرت بأنها راغبة بي، قالت لأمها سوف نعود لشقتنا نقضي ليلتنا نحن الثلاثة طلبت أمها إبقاء شادي فرفضت هذا فقد كنت في حالة شديدة من الطمع وأرغب بكل شيء دفعة واحدة، انحنيت عليه، على ابني العزيز شادي الذي وقف ينظر إليّ بدهشة، رفعته لأعلي وقبلته قبلة طويلة شعر بالضيق منها فقد قيدت حركته وتوقف عما يقوم به من حركات وتصرفات عفوية، أقبل عمي ميخائيل، أسرعت إليه أقبله وبادلني القبلات وشاهدته باسماً ضاحكاً ومن شدة ضحكاته وإبتساماته كادت أسنانه الصناعية تسقط من فمه فأسرع بعلاج الموقف، ودعناهم وهبطنا السلم مثل ريشة النعام دون صوت، حملت شادي بعد أن تعطرت بالعديد من القبلات التي أنعمتني وأعدت إليّ الحياة مثلما كنت أشعر بهذا الشعور قبل قيام الحرب، كانت مادلين تحمل حقيبة صغيرة بها بعض الأغراض.

أثناء السير متجهين لمنزلنا القريب من منزل عم ميخائيل أخبرت مادلين بأن الشقة غير نظيفة ويعمّش بها التراب والعنكبوت، ضحكت لحديثي وأخبرتني بأن أمها أرسلت للعبيدة التي تأتي لخدمتها وتوجهت معها صباح اليوم وطهرت الشقة، وأزالت عنها الأتربة، وظلت النوافذ مفتوحة حتي يدخل الهواء النقي ويخرج منها الهواء الراكد، صعدنا سلم العمارة برشاقة

ودخلنا شققنا وقامت مادلين بوضع شادى على سريره الذى لم ينم عليه منذ ثلاثة أعوام، اختفت عن نظرى كنت خلال هذا قد حصلت على حمام من غناء السفر، جلست بحجرة النوم على السرير فارداً ساقى أنظر وفي حالة من الإلتباه بأن كل ما شاهدته ولمسته ليس حلاً جميلاً ولكنه واقع ملموس.

أقبلت مادلين تتهادى بأنوثه يانعة منعشة يساعدها في ذلك تلك الملابس المخصصة للنوم والتي انتقتها بطريقة فريدة، وهذا ما كان يميزها عن الأخريات، الذوق الراق بل أنها تفوقت عن ذى قبل، جلست بجوارى ووضعت يدها حول رقبتى ونظرت بعينها الخضراوين بعيني فكان لا بد من إطفاء نور الحجرة كي ينطلق نور الحب واللقاء الزوجي الذى أشعرنى بأنه لم يسبق لي تلك الحالة الرائعة من السعادة، لقد كانت ليلة رائعة لم تسبقها ليلة مشابهة ولم تلحق بها ليلة أشد عذوبة وسعادة.

### عم حير:

صباح اليوم التالي كان الهدوء يعم المكان، لم أسمع أصوات انفجارات وتأكد لي أن الباش جاويش منكور كان يغالي في إظهار خوفه وهلعته، تحركت في اتجاه المطبخ، كان طريق تحركي يمر قريباً من رجال سرية الهاون الذى أخبرني منكور بأنهم سبب كل مشكلات المنطقة وأن الوحدات العسكرية تهرب من مجاورتهم لما يقومون به من قتال يؤدي إلى خسائر بالوحدات الأخرى تبين لي أن هذا غير حقيقي؛ أشعر بأن المكان هادئ وشاهدت أحد رجال الهاون الذى رحب بي وأخبرني بأنهم علموا بأن الباش جاويش منكور سوف

يترك المكان ويأتي أحد بدلا منه، أشار إلي مطبخ الكتيبة، واصلت تقدمي.

هناك بالمطبخ كان الجنود طيبي القلب وأعطوني من الطعام الكثير وأحدهم أخبرني بأن أحترس أثناء سيرى ويجب علي أن أبتعد عن منطقة سرية الهاون لأنها هدف مرصود للأعداء وجميع أفراد الكتيبة يبتعدون عن تلك المنطقة المشاغبة!! عدت لمكان عملي وتناولت طعامي وجلست هادئ البال أتذكر السنوات والشهور الماضية وأنا غير مصدق ما حدث؛ كان حلماً أو كابوساً في كثير من الأحيان ورغم هذا كانت المساعدة تغلطني بأني نجحت في حماية ورعاية مادلين وطفلها ووصلوا بفضل الله إلي عائلتهم والآن المهندس شوقي التقى بهم واجتمع شمل الأسرة، جلست ساكناً أتمعن في الأقدار وما يحدث للناس.

فجأة مزق السكون انفجارات متتالية وشعرت بأن الأرض تهتز من تحت أقدامي، بل شعرت بأن حوائط بعض المساكن الكبيرة تتهاوى والدخان المتصاعد سواء من الانفجارات أو سقوط الحوائط ملأ المكان، سمعت إزيز الطائرات، بل استطعت مشاهدة الطائرات المعادية التي كانت قريبة من الأرض بحيث ظهر حجمها الكبير أمامي، مازالت الطائرات تقصف المكان سواء بالصواريخ أو القنابل؛ سمعت أصوات المدافع الرشاشة تدوى، ظل هذا الحال قرابة النصف ساعة مما دفع بالمدفعية المضادة للطائرات لأن تشتبك مع طائرات العدو مما زاد الأمر اشتعالاً وشعرت بأني أعيش بداخل معركة حقيقية بل شعرت بأن المكان الذي أقيم به يرتج، بل كاد أن يسقط ويتحطم.

غادرت الطائرات المنطقة وتسلمت منها المهام المدفعية والدبابات

المعادية، استمر القصف لمدة ساعتين كنت أشاهد بعض أعمدة الكهرباء تندفع لأعلي وتمسقط بأى منطقة ومازالت الأدخنة تغطي المنطقة، استعدت كلام الباش جاويش مذكور، لقد كان الرجل صادقاً، إن تلك الوحدة مشاغبة فجميع المقذوفات والانفجارات في محيطها، كنت في حالة من الحزن لما أصاب رجال الهاون من جراء هذا القذف، قبيل العصر توقف القصف وبدأ دخان المعارك يتلاشي وأصوات الانفجارات تتعدم، شاهدت بعض الجنود والضباط من وحدات أخرى يحملون الكواريك ومعدات الحفر يسرعون في اتجاه سرية الهاون للمساعدة في الإتيقاز، أسرعنا للحاق بهم.

هناك شاهدت المباني قد تهدمت علي رعوس من فيها وأشار أحد رجال الدبابات بأن الموقع تهدم تماماً وأن الخسائر سوف تصبح كبيرة، أثناء هذا سمعنا صفارة مثل صفارات حكم كرة القدم وشاهدت أحد الشباب الذي تبين فيما بعد أنه ضابط تلك الوحدة وعرفته كما عرفتهم جميعاً، لقد كان الشاب يتحرك مسرعاً بصفارته ولدهشتي شاهدت أعطية بلاعات الصرف الصحي تتحرك ويظهر من أسفلها بعض الجنود وأيضاً من بعض آبار المجارى أسفل المنازل، بدا البعض يخرج منها وتجمعت الوحدة بأحد الشوارع الجانبية، تأكد لقائهم أنهم علي مايرام، فقد أسرع بإصدار أوامره " استعد للضرب" شاهدت الجنود يهرولون بداخل المباني ويكشفون المدافع وسمعت أصوات خروج القنابل مما دفع بقائد الدبابات المصري القريب منه أن حذر ضابط الهاون بأن مصيره ومصير جنوده القتل.

سمعت أعظم رد وتعليق علي كلمات ضابط الدبابات قالها له الضابط قائد سرية الهاون: سيادة النقيب، لقد جئنا لهذا المكان كي نحارب ونموت

أو نصاب ولم نأت كي نظل منتظرين موعد إجازة كل واحد منا وبداية كل شهر كي نحصل علي راتبنا، تلك الإجابة أثارت ضيق صدر ضابط الدبابات الذي سار مغادراً المكان يغلي ويزيد، لحقت به أستوضح منه سبب ضيقه فأجابني والضيق يملؤه بأنه لا يستطيع النوم أو الجلوس خارج الملجأ لأن هذا الضابط "ضابط الهاون" لا يكل من قصف العدو فيرد عليه العدو بقصفه بكميات مضاعفة من القنابل شديدة الانفجار ونحن نتلقي بعض الضربات وقد أصيب جنديان من جنودي دون ذنب، ألا يكفي ما قام به الأسبوع الماضي من تدمير مخزن ذخيرة للإسرائيليين وظل هذا المخزن لمدة يومين والانفجارات تتوالى به وحدثت خسائر كبيرة بينهم من قتلي وجرحي، أظن نفسه بأنه روميل تعلق الصحراء أو منتجمرى بطل الحرب العالمية؛ غادرتني وسار مسرعاً خشية قصف العدو.

ما توقعه ضابط المدرعات حدث؛ لقد عادت مدفعية العدو للقذف ولكنهم كانوا يقذفون الموقع القديم المدمر بينما رجال سرية الهاون كانوا يقذفون العدو من مواقع أخرى يقولون عنها إنها تبادلية، عدت مسرعاً لمكان الإيواء الخاص بي وأنا أشعر بالخوف والرغبة وفي نفس الوقت أشعر بالسعادة من هؤلاء الأبطال الذين يواصلون القتال بينما بعض الوحدات الأخرى حانقة عليهم وأسأل: ألا يكفيهم أنهم معرضون للقصف المضاد وحدثت خسائر بينهم؟

المهندس شوقي ومائتين:

قضيت عدة أيام مع زوجتي وطفلي والتي تعتبر من أسعد أيام حياتي؛ بعد أن تنتهي من الزيارات واللقاءات مع الأهل والأصدقاء كنا نجلس ينظر كل

واحد للآخر كأنما يرغب بمعرفة ما شاهدته عيون الحبيب خلال تلك الفترة التي ابتعد كل منا عن رفيقه، كنا نجتمع حول شادي أثناء نومه وننظر إليه بسعادة وحب وشغف، هذا الطفل الجميل هو نتاج لقائنا معاً ومستقبل إخلاص كل منا للآخر.

توجهت مع مادلين للكنيسة لصلاة يوم الأحد؛ حيث يجتمع أكبر عدد من الأقباط بالكنيسة للصلاة وسماع موعظة الراعي الأنبا صمويل الذي سبق وأن نوه بأن الصلاة القادمة سوف تقام بمناسبة عودة الطيبة مادلين وطفلها الملاك شادي، التقيت بالعديد من العائلات والأصدقاء الذين لم أشاهدهم منذ فترة نظراً لوجودى بجهة القتال، التقيت أيضاً مع بعض الشباب الذين يخدمون بالجيش في أماكن بعيدة ولا نلتقي إلا كل عدة أشهر حينما تتصادف مواعيد الإجازات مع البعض، رحب بنا الأنبا صمويل وشكر الرب علي نجاه الطيبة مادلين وطفلها كما قدم الشكر لكل الشباب الذي انخرط بالجيش طالباً منهم اليقظة والحذر من الأعداء الذين قتلوا المسيح، بعد الصلاة التقت العائلات بنا وتحدثوا مع مادلين خاصة النساء اللاتي لم يشاهدنها، لقد أقبلن يرحبن بها كان اللقاء دافئاً ومؤثراً ويدا لنا أن الجميع كانت قلوبهم وصلاتهم معنا.

توجهنا للعيادة الطبية التي كانت تشرف عليها الدكتورة راداميس ابنة الخالة إيزيس، كانت راداميس مثلاً للإخلاص والتفاني وعلقت مادلين علي هذا بقولها: لقد ظلت العيادة كما تركتها بل زادت من كفاءتها ويدا يرتادها العديد من السيدات بأطفالهن، لقد بذلت راداميس من الجهد والعمل الكثير كي تحققى هذا الإنجاز وكانت تتقاسم العائد مع والدئى بعد أن تتكفل بدفع النفقات

ومصاريف التشغيل بما فيها الضرائب.

هذا اليوم انتهت إجازتي ولا بد لي من العودة لوحدي العسكرية، قمت  
بوداع زوجتي وطفلي والوالد والوالدة مادلين وأصدقائي بل عم مصطفى  
البائع المتجول الذي يأخذ من ناصية منزل عم ميخائيل مقراً له وكان دائماً  
الحارس الأمين لهما أثناء غياب مادلين وأيضاً هو الملبى لكل طلباتهم المنزلية  
كان الرجل في غاية الإخلاص وحين مشاهدة مادلين قادمة لزيارة والديها  
وتحمل شادي بعد أن غلبه النعاس يسرع بحمله ويصعد به إلي منزل جده.

أثناء طريق العودة للوحدة كنت لا أشعر بالزمن ولا بمن حولي، ظل هذا  
حالي طوال الطريق منذ مغادرة شقتنا حتي وصلت قريباً من موقعي قريباً من  
مدينة السويس، لقد تخطي الوقت عشر ساعات، قريباً من المعسكر سمعت  
أصوات انفجار دانات المدفعية والدبابات والتي أصبحت أصواتها نغمة معتادة  
مثلما يسمع أبناء الأحياء الشعبية صاجات بائع العرقسوس، لكن تلك الأصوات  
هي أصوات لبائع الموت والدمار لكن الرب خلقنا لنكافح ونسعي وفي النهاية  
تصعد أرواحنا للأمجاد السماوية.

### جبر والقنطرة غرب:

لم أعد أعي ما أنا فيه وقد أصبح الموت قريباً مني كأنه كوب الشاي الذي  
أعدته منذ دقائق، لم أعد أهتم بأصوات الانفجارات بل لم أعد أشعر بالضيق  
والخوف من الموت أو من الحرائق التي تشتعل من حولي من انفجار القنابل  
الحارقة التي يقوم العدو بقصفها علي وحدة مدافع الهاون المجاورة لي

في إحدى المرات فكرت بأن أذهب لهذا الضابط المندفع المتهور وأحدثه وأنشده الهدوء وألا يخطب رأسه بالحائط ولكني تراجعت ليس خشية منه بل من الإحراج والضعف، كيف أذهب لمقاتل وأطالبه بأن يلقي سلاحه ومازال العدو يقاتله، كانت المقارنة صعبة ومجحفة، تخيلت ماذا سيكون رده علي نصحي وإرشادي له، فأما يطلق علي شخصي نار سلاحه أو يتجاهلني أو يجيبني بدموع صامتة، هذه كانت أقصى إجابة لا أستطيع تحملها.

سمعت انفجاراً قريباً بجوار المنزل الذي أقيم به والذي أطاح بالشباك الخشبي وبعض شظايا تركت علامات وحفر بالحائط، توترت في البداية ثم سكنت وقلت كي أعد كوب شاي آخر بدلاً عن الكوب الذي وقع أرضاً من جراء الانفجار الذي حدث، فكما سبق واعتقدت فقد أصبح القتل والانفجار قريباً مني مثل قرب كوب الشاي، تساءلت وفكرت: ماذا سوف يحدث لو ترك هذا الضابط الهمام ساحة المعركة كي يرتع العدو، لن يكتفي بقذفنا بل كما سمعت من البعض سوف يعبر للضفة الغربية للقناة ويقوم بأسر من يستطيع ويقتل الباقي، أنه عدو قاتل شرير لا يعرف شيئاً عن الإنسانية والرحمة ولا يفهم سوى لغة القتال.

صباح اليوم التالي عم الهدوء والمكينة المنطقة المحيطة بنا، تمثلت من مخبئي بهذا المنزل المشيد بالخرسانة المسلحة متوجهاً لمطبخ الكتبية مروراً بسرية الهاون وكان المرور بتلك الوحدة أصبح هو حبي الوحيد بتلك المنطقة رغم تحذير الآخرين لي، توقفت بجوار أحد الحوائط ولم أستكمل سيرى، فقد شاهدت قائد سرية الهاون ويدعي الملازم أول أسامة، كان الضابط يرتدى أفرول الجيش وبدا واضحاً بأنه وجنوده يعتنون بمظهرهم ونظافتهم

الشخصية، جميعهم حالقو الذقن وأيضاً الأفرولات مكواه ونظيفة.

مجرد أن اقتربت من موقع جنود سرية الهاون حتى شاهدتهم جميعاً يقفون بأحد الشوارع الجانبية في حماية إحدى العمائر العالية للحماية من نيران المدفعية ومراقبة الطائرات، سمعت وشاهدت أحد ضباط الصف المؤهلات العليا كما علمت بعد ذلك يحاور الضابط رافعاً صوته بأنه لا داعي لهذا القتال المستمر والذي نقوم نحن بدفع ثمنه وإذا حدثت بيننا خسائر فلن يهتم بنا أحد وأنت أحدنا يا حضرة الضابط، يجب عليك أن تخشي الإصابة، صمت الجنود وتحدث الضابط بهدوء والذي كان صامتاً ساكناً والوجه تتجه إليه رغبة بمعرفة نتيجة هذا النقاش وهل سوف يقوم بتوقيع عقوبة علي الجندي؟

أشار الضابط إلي رقيب أول السرية قائلاً له: رقيب أول سيد: من يرغب بمواصلة القتال معي يستمر ومن لا يرغب أعد له تصريح إجازة مفتوحاً حتى يقضي باقي خدمته بجوار النساء بالحي الذي يقيم به، بعد تلك الكلمات القليلة الجافة الصادمة غادر المكان مسرعاً، ولم يلتفت إليهم بينما ظل الرجال وقوفاً والبعض بدا عليه الضيق من الجملة التي قالها الضابط بأن يعودوا لمنازلهم ويظلوا بجوار النساء.

لم تمض خمس دقائق إلا وسمعنا صوت حكمدار إدارة النيران الشاويش السيد هندي يردد الأمر "استعد للضرب" علي أثر هذا شاهدت الشباب يهرع إلي الموقع وكل واحد منهم وضع الخوذة علي رأسه ولم أعد أسمع أو أشاهد أي فرد، والمنطقة أصبحت خالية من الجنود، دقيقتان وسمعت صوت

كبسولات دانات الهاون وبعدها بدقة يحدث الانفجار بالجانب الآخر للعدو.

أسرعت بالهرب من المكان وأثناء هذا شاهدت جنود باقي الوحدات من المشاة ومدفعية الهاوتزر والمدفعية الصاروخية والمدركات كل منهم يسرع بالاختباء حيث يعلمون نتيجة هذا الاشتباك، وقد كان، فلم تمض عشر دقائق إلا والانفجارات أصبحت على الجانبين الإسرائيلي والمصري وتناثرت الأبنية من حولنا ثم اشتربت الطائرات المعادية بالقذف وتصدت المدافع المضادة لتلك الطائرات واشتعلت جبهة القتال بالقنطرة على الجانبين؛ ظل هذا لمدة لا تقل عن الساعتين وأنا مختبئ والانفجارات تهز المنطقة بعد هذا خمد القتال وكما هي العادة أسرع الرجال من الوحدات الأخرى لموقع رجال مدفعية الهاون للبحث عنهم تحت الأنقاض وأسفل بالوعات الصرف الصحي.

في هذا اليوم ظهر لنا شيء جديد مخالف عما قبله، لقد اكتشف الإسرائيليون أماكن اختباء الشباب بأنابيب وبلاعات الصرف الصحي ولهذا شاهدنا جميع أغطية الصرف الصحي مدمرة تدميراً مباشراً بصواريخ الطائرات تأكد لنا بأن نصف الوحدة على الأقل قد لقي حتفه، كنا نقترّب من كل حفرة ومن البلاعات الحديد المهشمة وننادى عليهم لعل أحداً منهم يسمع أصواتنا بل إن بعض جنود الوحدات المجاورة بدأ بالحفر للبحث عن رجال سرية الهاون لكن المفاجأة أننا شاهدنا أحد جنود سرية الهاون يركب دراجة قديمة وعرقنا فيما بعد أنها كانت تخص الملاحظين بالمجلس البلدي والمشرّفين على عمال النظافة بالمدينة قبل نشوب القتال، كان الجندي يستخدم صفاة حكم كرة القدم لتتبيه زملائه.

كنا في دهشة والجميع راغب بأن يخبر الجندي بأن زملاءه قد تم نفيهم تحت الأتقاض فلا داعي للصفير، لكن المفاجأة هو ظهور الجنود بالتوالي من بين حطام المنازل القديمة ولم يكن أحد منهم قد اختبأ بداخل بلاعات الصرف الصحي وتبين لنا أن قائدهم كان بعيد النظر حيث قال لهم قبل الاشتباك بيومين: أيها الجنود لقد كشف العدو مخبئنا ومن أجل هذا تم توزيعهم بالحواري والأزقة بعيداً عن الموقع بخمسمائة متر كي يتفادوا القصف ومنع أيأ منهم للعودة للاختباء ببالوعات الصرف الصحي.

صباح اليوم التالي شاهدت جنود سرية الهاون وقد قسمهم قائدهم إلي مجموعتين، الأولى تقف خلف المدافع بالموقع التبادلي الذي يقع جنوب هذا الموقع بقرابة خمسمائة متر بينما النصف الآخر يقوم علي إعادة بناء الموقع الذي تهدم وتدمر بالكامل، بالنسبة للنصف الأول كان يقف خلف كل مدفع فردان بينما العدد المثالي خمسة أفراد، أما النصف الآخر فقد تخلي عن سترة الأفرول العليا ويقومون كمجموعات بالعمل، كان منظرهم رائعاً لأقصى درجة فلم يكونوا أبطالاً ورجالا في الاشتباك مع قوات العدو فقط؛ بل كانوا أبطالاً في إعداد مواقعهم وإعادة بنائه.

شاهدت عرية فنتاس المزودة بأربع عجلات كاوتش من التي يقوم بجرها الحصان وتقوم ببيع الكيروسين للناس بالقرى، هنا لا يوجد حصان لكن يوجد رجال شجعان، يقوم علي دفعها رجال اربعة، لقد استغل الرجال معدات بلدية مدينة القطرة غرب، الفنتاس الذي يقارب حجم عبوته اثنين مكعب مياه يقوم الرجال بملئه بالمياه من بئر خلف الموقع بعشرات الأمتار ونتج هذا البئر من القنابل الثقيلة زنة الألف رطل التي قامت طائرات العدو بقذفها وشاهدت

مكان إحدى تلك القنابل والتي أحدثت حفرة لا يقل عمقها عن خمسة أمتار وقد ملأت نصفها بالماء من المياه الجوفية، ظل الرجال يدفعون بهذا القنطاس المزود بأربع عجلات كاوتش حتى وصلوا للموقع المدمر وأخفي القنطاس عن عيون طائرات استطلاع العدو بوضعه بإحدى الحواري الجانبية.

بعد قليل شاهدت عربتي حنطور وتلك العربات من بلدية القنطرة غرب أيضاً؛ حيث قام علي دفع العربتين رجلان لكل عربة وقد ملأت بشكاير الأسمنت، فرغت عبوات الأسمنت وتبادل الرجال العمل مع زملاء آخرين توجهوا لنقل حمولة من الرمال بينما كانت مجموعة أخرى تقوم بعمل خلطة من الأسمنت والرمال والبعض يقوم بحفر الموقع واستخراج الأحجار وتسويتها كي يعاد بناؤها مرة أخرى.

كان العمل يجري علي قدم وساق بينما اختفي الضابط واعتقدت أنه توجه لمكان استراحته كي يحصل علي قسط من الراحة وعندما أخبرت أحد الجنود بهذا ضحك وتبادل النكات مع زميل له ولكن زميله طلب منه اصطحابي لموقع الضابط، سرت مع الجندي نتحدث وبعد منتي متر شاهدت في اتجاه الشمال علي طريق خط العنكب الحديد المتجه لبورسعيد الضابط ومعه ستة جنود ومعهم مفاتيح فصل فلنكات الخشب عن القضبان كي يستخدم كأسقف لمواقع المدافع والذخيرة للحماية من انفجارات قنابل ودانات العدو، كل هذا تم وضعه فوق عربة صغيرة تخص رجال الصيانة بالسكة الحديد.

ومن أشد ما أدهشني هو أنني شاهدت الضابط المسئول عن سرية الهاون الملازم أول أسامة الصادق وقد تخلص من الجزء الأعلى من الأكرول وأصبح

بالفانلة الداخلية مثل جنوده ويعمل معهم يداً بيد، قام رجاله بتحميل العديد من الفلنكات الخشب فوق العربة التي تسير فوق قضيب السمكة الحديد، دفعوا تلك العربة لمسافة لا تقل عن ثلاثة كيلومترات حتي وصلت لمكان قريب من الموقع فتوقف دفع العربة الحديدية وأرسل في طلب بعض الجنود فأقبل رجاله بالعربات الحنطور ونقلوا الفلنكات الخشبية من العربة الحديدية بوضعها فوق الحناطير، كنت في غاية السعادة بما يقومون به، عادت بي الذاكرة لثلاثة أعوام مضت حينما كنا مع الشيخ عرفان ومجموعته من قبائل البشارية نعد العدة لبناء فصل دراسي ثم عيادة طبية بالجهود الذاتية.

لم أشأ أن أغادر موقعهم، حاولت تقديم يد المساعدة ولكنهم رأفوا بحالي لصعوبة العمل لمثل من في عمري واستقر رأيهم أن أقوم بإعداد الشاي لهم هكذا قدمت يد المساعدة البسيطة، منتصف النهار وصلت عربة المياه التي تحضر مياه الشرب للجنود، فوجئت بأحد جنود الهاون قادماً معها وعند موقع سرية الهاون شاهدته يناول زملاءه عشر بطيخات، علمت منهم بأن قائدهم أرسل أحدهم لقرية أبو خليفة والتي يحضر منها اللوري المياه كي يشتري للجنود البطيخ كنوع من التشجيع ورفع الهمم.

مساء نفس اليوم حدث اشتباك محدود بين سرية الهاون والعدو والذي تأكد له بأن السرية تحطمت وهذا ناتج من شدة القصف ومن الصور الجوية التي تقوم طائرات الاستطلاع بتصويرها لموقع رجال مدفعية الهاون، ظل العمل بالموقع قرابة الخمسة أيام وفي كل يوم يظهر التقدم في الإعداد والتحسين للموقع بعد التدمير الشامل، علمت منهم بأن الحظ حالفهم بعد القصف.

أثناء الدوريات التي كلفهم بها قائد السرية وهي دوريات مترجلة للمرور على بعض الأماكن ليلا خشية هجوم برى مباغت من العدو شاهد الرجال في صباح أحد الأيام أحد المحلات الضخمة وقد دمرت انفجارات قنابل الطائرات الباب الصاج الخاص به وتبين أن بداخل هذا المبنى مخزناً ضخماً لشكاير الأسمنت وقدرها أحدهم بأنها لا تقل عن ثلاثين طن أسمنت ومن حسن الحظ أن الأسمنت لم يفسد فقد ظل قرابة العامين بهذا المخبأ الجاف وقد استفاد منه رجال الهاون وبعض الوحدات التي دمر العدو مواقعها في إعادة ترميم وإصلاح ما أفسده قصف العدو.

## مغامرة لقوات العدو

شاهدت موقع مدافع سرية الهاون بعد إعادة إصلاحه، لقد كان الرجال علي مستوى عال من الجهد ودقة العمل ولم يختلفوا عن قائدهم، استمرت المعارك وكان العدو قد يأس من القضاء علي تلك القوة المشاغبة؛ لأن العدو هو منتصر دائماً ضد القوات التي أمامه، شعر العدو بأن رجال مدفعية الهاون لم ييأسوا أو يستسلموا؛ لقد تأكد لهم أن هؤلاء الرجال أقوياء وأشداء ورغم أنني أشدت بما يقوم به رجال الهاون أمام قائدهم إلا أنه حينما سمع مني هذا الحديث طلق قائلاً: بأن هذا هو حال الجيش المصري علي طول مواجهة القناة، توقفت عند تعليقه هذا وأسعدني كثيراً لكن الحقيقة لم تكن وحدات الجيش تقوم بما يقوم به هؤلاء الرجال ليس تكاسلاً منهم بل لأن رجال مدفعية الهاون مكلفون بأعمال إضافية تتناسب المهمة وتتاسب أيضاً الموقع الجغرافي الذي يحتمون به، لم أشاهد وحدات عسكرية مصرية تتلقي الضربات الموجعة من العدو مثل ما يواجه هؤلاء الشباب من ضربات مستمرة تثير الفرع والرعب وليس هذا تخميناً أو استنتاجاً بل حقيقة واضحة أمامي من الوحدات المنتشرة والقريبة منا والتي لا أسمع لها صوتاً ولا أشاهد هجمات العدو علي مواقعهم.

أثناء عودتي من مطبخ الكتيبة حاملاً معي الطعام توقفت لفترة بعيداً عن سرية الهاون حيث أطلق عليها العدو دفعة من دانات المدفعية الثقيلة، وضح لي أن النيران اشتعلت بالموقع؛ كنت أشاهد الأدخنة تتبعث منه، واصلت سيرى حتي وصلت لرجال الهاون الذين كانوا مختبئين خفية قصف العدو خارج الموقع بناء علي تعليمات الضابط، شاهدت وسمعت الضابط يأمر حكمدار أحد المدافع بأن يسرع ٢٨٥ لموقع المدفع الخاص به ويطفئ

النيران المشتعلة، تكاسل الحكمدار وطلب من قائده تركه حتى يهدأ القذف كان الضابط مصمماً علي نزول الحكمدار برجاله الأربعة لإطفاء النيران وحذرهم بأن النيران سوف تطلال الذخيرة وتقوم بتفجيرها ونخسر تلك الذخيرة التي دفع فقراء الشعب المصري ثمنها في صورة ضرائب وأيضاً سوف يسعد هذا العدو؛ سوف يشعر أنه انتقم لنفسه بعد أن فجرنا مخزن ذخيرة له خلال شهر إبريل الماضي.

كانت تلك المرة الأولى التي اشاهد فيها تقاعس هؤلاء الرجال الشجعان عن تنفيذ أوامر قائدهم بل ومقاومة نتائج قصف العدو، لم يكن هذا التصرف والاعتراض متوقفاً علي طاقم المدفع بل شمل رجال السرية بالكامل، وعدددهم يزيد عن الخمسة والأربعين شاباً من أحسن شباب مصر فتوة وشجاعة وعلماً ولكن للحرب مقاييسها وأحوالها ومن الجائز أن كثرة المعارك والضربات التي واجهت هؤلاء الشباب أصابتهم بالضيق والنفور من استمرار تلك الحالة المفزعة.

تلك المناقشة لم تستغرق سوى دقيقتين علي أثرها اندفع الضابط للموقع والقذائف مازالت تنهمر مما اضطره لأن يسلك الممر بالخدق الواصل بين المدافع حتي وصل إلي حفرة المدفع، ظل يعمل علي إطفاء النيران المشتعلة من جراء القنابل الفوسفورية الحارقة والتي اشتعلت في شكاثر الرمل، ظل الرجل يحفر بيديه في الأرض ويأخذ التراب ويضعه فوق النار حتي تأكد من إخمادها مما دفع بأفراد طاقم المدفع إلى اللحاق به ومساعدته، كل هذا كان يتم ورجاله يحاولون إثناء خشية عليه من الإصابة وفي نفس الوقت الدعاء له

بأن يحفظه الله وقد استجاب الله لهم.

عاد الضابط وطاقم المدفع منتصبين علي المجهول وعلي تدمير العدو لموقعه، سكنت مدافع الأعداء، نظر لرجاله وكان لتلك النظرة معني كبير وأتبع هذا بكلمات قليلة مشجعة؛ وقال: أيها الرجال الشجعان توجهوا لمدافعكم لإصلاح ما أعطته نيران مدفعية الأعداء، بعد هذا جلس فوق كومة من أحجار المباني المهتمة وطلب من جندي المراسلة بأن يعد لي وله كوباً من الشاي حينما شاهدني واقفاً أنتظر عودته بعد أن تفرق رجاله لإصلاح الموقع وأيضاً إعداد ذخيرة المدافع وإزالة الشحم من عليها باستخدام السولار وقطع الخيش والقماش، وعلمت أنها عملية شاقة وتستغرق منهم وقتاً طويلاً ومجهوداً كبيراً.

أثناء تناولي الشاي مع الضابط كنت أحاول أن أستنتج ما وراء هذا الشاب الهادئ الأنيق، شعرت بأنني سوف أتعلم من هؤلاء الرجال الشجاعة علي الكبر، سألته كيف ألقى بنفسه في النار ولم يخش الموت؟ أجاب بهدوء:

- الجميع هنا لا يخشون الموت، كل نفس ذائقة الموت وفي وقت محدد تساءلت:

- كنت أتوقع منك أن توقع عقوبة علي رجالك الممتنعين عن تنفيذ الأمر ..  
أجاب علي سوالي:

- بأن هذا ليس من خلقي، فأنا أشعر بما يشعرون به ولكن درجة المسؤولية والتحمل تختلف من شخص لآخر ٢٨٧ ومن أجل هذا فأنا أقدر خوفهم ولا

تتس أنني وقعت جزء علي جميع أفراد السرية!!! بدهشة تساءلت:

. لم أعلم بهذا ؛ ضحكك ثم قال:

. ما قمت به هو أشد جزء وهم يشعرون بالحرج الآن؛ كان من الواجب عليهم

القيام بما قمت به وإطفاء الحريق بالموقع ، تساءلت:

. ما قمت به كان سببه الأول خشيتك علي الموقع؟ أجاب:

. نعم والأهم هو تنفيذ ما أمرت به، فإذا طلبت من أحدهم تنفيذ شيء ما وخشي

تنفيذ هذا فيجب علي أن أقوم بتنفيذه كي أعطيهم القدوة والمثل علي هذا، لكن

حين يخشون وأظل بجوارهم سوف يفكر كل واحد منهم بأن الضابط لم يستطع

أن يقوم بهذا العمل ويطلب منا تنفيذ ما يأمر ونحن نموت بينما يظل بعيداً في

الأمان، هذا ما سوف يفكرون به.

بعد جلسة ليست طويلة غادرت الموقع بينما نهض الضابط لمتابعة رجاله

ومازالوا يقومون بإزالة الشحم عن الدانات، توجهت لمكان إعاشتي وتبين لي أن

رجال مصر عظماء ولا ينامون ولا يتواكلون ويضحون من أجل مصر بالحياة

التي هي أغلي شيء عند الإنسان، كنت أشعر بتعاطف مع هؤلاء الرجال رغم

ما يسببونه من إزعاج للآخرين، أثناء عودتي شاهدت جنود الوحدات الأخرى

يجلسون أسفل ظلال الأشجار بينما رجال الهاون يقومون بإزالة الشحم عن

دانات المدافع بأسفل المباني بداخل آبار الصرف الصحي الجافة بعد هذا

سوف يتولون نوبات عمل علي المدافع استعداداً لضرب وقذف قوات العدو .

علمت أن إحدى وحدات استطلاع الجيش الثاني التابعة لجهاز المخابرات الحربية أخبرت الضابط بطريقة ودية وغير مؤكدة بأنهم التقطوا اتصالاً بين قيادة المنطقة الجنوبية الإسرائيلية وإحدى وحدات الكوماندوز الإسرائيلية التي تشتهر بالكفاءة والقسوة في قتالها والتي سوف تقوم بعمل إغارة ليلية علي موقع سرية الهاون، كل هذا تم باستخدام الشفرة والتي قام رجال المخابرات بفكها، كما أخبروا الضابط بأن المعلومات وصلت لقيادة الجيش .

طلب الضابط من رجاله ترك ما في أيديهم وأمرهم بنقل جميع الذخائر من الموقع للأتوار السفلي بالمنازل البعيدة عن الموقع، بعد هذا يقومون بنقل المدافع إلي منطقة ما حددها لهم وأن يوضع بجوار تلك المدافع خط نيران وعلمت أن هذا الخط يشمل أربعاً وثمانين قنبلة شديدة الانفجار كما يقومون بإعداد البيانات اللازمة لأهداف ومواقع العدو وربطها علي المنفع وإعدادها لحين القذف علي تلك الأهداف المحددة من قبل .

كنت أشاهد الرجال مثل ما أشاهد مجموعة من النمل وهي تتحرك متقاطعة الخطوط تسير وكل نملة تعلم وجهتها، كان الرجل بتلك الطريقة، البعض منهم يحمل صندوق الذخيرة الخشبي والذي لا يقل وزنه عن خمسين كيلوجراماً نظراً لثقل وزن دانة الهاون وكل صندوق يستوعب عشر قنابل بالإضافة إلي الأجزاء المساعدة والتي تضاف للقنبلة من الطبقة الطرقية التي تنفجر بمجرد اصطدامها بالأرض والعبوات المساعدة للاشتعال، كان هذا هو حال الرجال ولم يتذمر أحد وقد غلفهم العرق وبدا عليهم الجهد أثناء هذا أقبلت سيارة "التعيين" الطعام

ولم يلتفتوا إليها فقام الضابط ورقيب أول السرية باستلام الطعام حتى ينتهي الجنود من عملهم، شاهدت الرجال قادمين بعد أن انتهوا من أعمالهم وجلسوا بجوار الحائط يلتقطون الأنفاس وبدا أنهم بذلوا الكثير من الجهد والعرق؛ تأكد لى أن الضابط لا يكل ولا يمل من الطواف بالأماكن التي يعملون بها وأيضاً بموقع المدافع حتى ظهرت علي وجهه الابتسامة وعلق قائلاً:

. الحمد لله، لقد انتهينا من مهمتنا ونحن في انتظار الأعداء.

بعد تلك المقولة من الضابط جلست أفكر وأنا مختبئ بداخل أحد المنازل المهمة ولم يتبق منها إلا الطابق الأرضي؛ كنت أتابعهم من شباك إحدى الحجرات، لغت نظري أحد الجنود بتلك الوحدة والمخالف عن باقي زملائه في الهيئة والتصرف وأسلوب العمل وتنفيذ الأوامر والتعليمات؛ فقد كان يرتدي ملابس مخالفة عن زى زملائه وجميع الجنود بالجبهة حيث يرتدي الغانلة الداخلية علي بنطلون أفرول قديم بليت أنسجته وشبشبا بلاستيكياً من عهدة الجيش المسلمة للجنود، يضع فوق الغانلة بديلاً عن سترة الأفرول "كبوت" أو البالطو الصوف الأصفر أو "الكاكي" كل هذا خلال شهري مايو ويونيو شديد الحرارة، كان يعمل بمعزل عن الجنود؛ فقد شاهدته لا يحمل صندوق الذخيرة الخشبي مثل باقي زملائه بل يضع دانات المدافع العشرة بين أصابع يديه الطويلة مثلما نشاهد بائع المتلجات الذي يقوم بهذا العمل مع زجاجات الصودا التي يقوم ببيعها للناس خلال فصل الصيف.

حين النظر لهذا الجندي كنت أشعر بأنه من فصيل آخر من البشر أو أنه من بقايا الأجداد الفراعنة، كان يمتلك جسداً قوياً ممشوقاً، طويل القامة قوى

البنية ووجهه مربع الشكل لا يبتسم أبداً يتحرك بمفرده سواء بالنهار أو بالليل  
ينفذ التعليمات دون ضوضاء، سريع في إنهاء ما يكلف به مع زملائه من  
واجبات، بعدها يتوجه لزملائه الأضعف بنية لتقديم واجب المساعدة.

بالسؤال علمت اسمه؛ محمد السيد علي المنوفي، أى لقبه الأخير المنوفي  
ومن حسن الطالع أنه من قرية تتبع مدينة منوف بمحافظة المنوفية؛ حينما  
يخلو رجال الهاون من أعمالهم وهذا نادر الحدوث لا يركن المنوفي للراحة بل  
يختفي ويظهر بعد نصف ساعة أو يزيد حاملاً معه ثعباناً استطاع صيده أو  
تعلباً استطاع محاصرته والقبض عليه أو بعض معدات حفر أو معدات بناء  
عثر عليها من بين الأنقاض.

علمت من زملائه بأن هذا الجندي هو العائل الوحيد لوالديه، ولكنه جند  
نظراً لأن له شقيقاً لم يصل لعسن التجنيد بعد بينما والداه معتلا الصحة ولا  
يستطيع والده تكسب عيشه بسهولة لما يعانيه من أمراض بينما ابنه المنوفي  
الذي يضاهي خمسة رجال أشداء في العمل والقوة يقوم بخدمة الوطن تاركاً  
الأهل تنفيذاً لنداء الواجب والوطن بالجهاد، كنت في دهشة بأن أقارن هذا  
الشاب ببعض الشباب المتسكع الثرى الغني الذي لا يبغى الجندية ويلتف حول  
تنفيذ نداء الوطن بأن يدفع والده للانفصال عن أمه كي يعفى من الخدمة  
العسكرية لكن الناس معادن وكان الجندي المنوفي من أحسن ما صادفت من  
رجال علي جبهة القتال مع العدو.

حدد الضابط أربعة رجال يعتلون أسطح بعض الأماكن المرتفعة كي  
يقومون بإطلاق النار علي قوات العدو المتسللة والتي سوف تهبط أثناء الليل

كما أقبلت قوة من رجال الصاعقة المصرية وانتشرت بالمكان كما منع دخول  
أى جندي من جنود الوحدات الأخرى للمنطقة، كان ضابط الهاون منتبهاً طوال  
الليل، بعد منتصف الليل بدأ يشعر بأن بالخلف شيئاً غير طبيعي سرعان ما  
تأكد له من قائد قوة الصاعقة بأن قوة الإغارة المعادية وصلت وفي طريقها إلي  
الموقع.

أقبلت قوة الإغارة ولم يَمَ أحد بفتح النيران عليها حتى تستكمل انتشارها  
بالموقع لتغيمه وبث الأضرار الخداعية به، أعطي قائد قوة الصاعقة الإشارة  
لجنوده وانهاالت النيران علي المعتدين الذين قاموا بالرد وأصبح الليل نهاراً من  
الانفجارات بالمنطقة ولم يعد الشخص يعلم هل النيران تلك صديقه أو معادية  
تبين بعد عشر دقائق أن قوة الإغارة نجحت في الامسحاب للخلف وتمركزت  
بأحد المنازل الفارغة بين الحقول، طارتها قوة الصاعقة، وحدث قتال عنيف  
بينهم خلال هذا وصلت أربع طائرات معادية قاذفة قامت بقذف كل ما يحيط  
بهذا المنزل بالقنابل والصواريخ وإطلاق المدافع الرشاشة مستخدمة في ذلك  
المشاعل المضيئة التي تلقي بها الطائرات في سماء المعركة فتضيء الأرض  
تحتها، خلال هذا وصلت طائرتان هليكوبتر معادية واستطاعوا نقل رجالهم  
وتبين أن العديد منهم قتل أو أصيب، فقد أسرعوا بالنقلات قريباً من محيط  
المنزل؛ ظلت الطائرات تقصف المنطقة حتى تمكنت الطائرات الهليكوبتر من  
الهرب لشرق القناة.

كنت قريباً من رجال الهاون المرابطين حول المدافع؛ أرسل إليهم قائدهم  
الأمر بإطلاق نيران المدافع علي بعض الأهداف المعادية والمحددة بشرق  
القناة، اشتعلت النقاط القوية بخط بارليف بالانفجارات مما أثار حنق  
٣٩٢

الإسرائيليين وتأكد لهم أن رجال الهاون مازلوا علي قيد الحياة وأن عملية الكوماندوز فشلت وتحملوا نتيجة هذا بعض القتلى التي تأكدت القيادة من هذه المعلومات عن طريق تصنت رجال المخابرات الحربية المصرية وعلموا أن اثنين من جنود الكوماندوز قد قُتلا وأصيب سبعة إثنان منهم بحالة خطيرة.

لم يترك رجال الهاون أماكنهم وفي الصباح أقبل رجال المهندسين العسكريين وأزالوا كل الأثر الكخداعية التي ألقي بها العدو بالموقع، عاد رجال الهاون لموقعهم وتبين لنا أن قائدهم أسامة الصادق أصيب في تلك المعركة؛ فقد سقط من أعلي الدور الثاني أثناء الانفجارات مما أدى إلي كسر بمعصم يده، قام رجال إسعاف الوحدة بعمل اللازم وأحيط المعصم بالجبس الطبي؛ حين علمت بهذا قمت بزيارته وشاهدت مدى حب الجنود له والجلوس معه وقت الراحة، بل شاهدته باليوم التالي أثناء الاشتباك مع العدو ويده محاطة بجبيرة من الجبس يقوم بعمله كأن شيئاً لم يحدث له؛ استمر الوضع علي هذا الحال وزادت شدة المعارك في الأيام الأخيرة من شهر أغسطس من عام ١٩٧٠ قبل تنفيذ وقف إطلاق النار بين الجانبين حسب الاتفاقية الموقعة توقف القتال وخرج المقاتلون يرفعون الرعوس راغبون بمواصلته ولكن بعد الحصول علي استراحة المحارب؛ لقد كان المحارب قويا وعنيفاً وعظيماً.



أستعد للانتقال لمديرية أمن السويس حسب التعليمات؛ كنت أردد: الحمد لله، لقد كانت أربعة أشهر صعبة للغاية، ولم أكن أعلم أن القتال بتلك الضراوة وتأكد لي أن ما سبق وقيل عن هذا الموقع ونشاطه ما هو إلا الجزء اليسير

فما شاهدته وسمعته ولمعته لهو أشد فعالية وقسوة، غادرت الموقع بعد عناق مع الثباب بعدها توجهت لهذا القائد الذى أثار إعجابي أقدم له التحية العسكرية فشكرني وقدم لي هدية تذكارية نيابة عن الجنود، كانت الهدية عبارة عن ساعة يد؛ فقد لا حظ الجنود أنني لا أملك ساعة يد ومن أجل هذا قاموا بجمع التبرعات وأرسلوا بأحدهم لمدينة الإسماعيلية وتخبروا لي تلك الهدية.

سقطت دموعي وأنا أقدم شكرى لهم، فلم يفكر أحد من قبل بهذا الأمر حيث كنت أطلب من المارة تحديد التوقيت نظراً لحالتي المالية المتعثرة أو لإهمالي أمور نفسي الشخصية، أقيمت عربة الكانتين التي سوف تتجه للإسماعيلية، أرسل الضابط معي بأحد رجاله حتي الإسماعيلية، ومن هناك بقرية نفيسة أستقل أى لورى متجه لمدينة السويس مباشرة، افترقت عنهم بعد تلك الأيام العظيمة المشرقة علي الوطن، هناك تعلمت كيف يكون القتال والجهاد والتضحية، لقد كان الرجال يتصفون بالنبل والفروسية والشهامة وكان الله معهم ولم يصب منهم أحد باستثناء الضابط الذى قارب علي الشفاء وإزالة جبيرة الجبس.

قام الجندي المرافق لي بتقديم يد المساعدة بقرية نفيسة؛ أوقف أحد لوارى الجيش وطلب من سائقه العمل علي توصيلي لمنطقة مثلث السويس كي أتوجه لمديرية الأمن، ابتمسم له الجندي وأخبره أنه سوف يصل لوحدته قبل المثلث بثلاثة كيلومترات ومن أجل هذا الرجل الطيب "يقصدني" فسوف أكمل المشوار حتي مديرية الأمن حتي أتأكد من تمام وصوله.

الحمد لله وصلت للمديرية التي هنأتني بنجاتي من العمليات الحربية التي

كانوا يتابعونها بالأخبار اليومية، نظرت إليهم وأنا أردد: هناك رجال أشداء أقوياء، ربنا يزيدهم ويقويهم، منحني الضابط المشرف علي قطاع الأمن العام إجازة عشرة أيام وقبل أن أغادر مكتبه شكرني كثيراً وطلب مني حين عودتي من الإجازة التوجه لمكتب القنطرة لمدة أسبوعين حتي يأتي البديل، رغم شعوري بالضيق إلا أنني شعرت بالفرحة بأنني سوف أنتقي بهؤلاء الرجال الأبطال رجال سرية مدافع الهاون وقائدهم الذي شعرت بعد إيقاف إطلاق النار أنهم شخصيات أقدرها حق قدرها، حصلت علي إجازتي عائداً لزوجتي وأطفالي بعد ما يقرب من مائة يوم تضاف لما سبق أثناء رحلة العودة مع السيدة مادلين وطفلها.

كنت أجلس بالقطار المتجه من القاهرة لأسيوط وأشاهد الناس وبعض جنود الجيش يركبون القطار من حولي، كنت أردد: أنتم نعم الرجال بل كنت أن أقوم بتقبيل كل شاب منهم وأقدم شكرى لهم، علمت الآن وتأكد لي بأن بمصر رجالاً أشداء من أبناء الوطن يقفون أمام العدو بالمرصاد يكبدونه خسائر كبيرة مثل رجال الهاون الذي أخبرني أحد رجال المخابرات الحربية بالقنطرة بعد وقف إطلاق النار بأن هؤلاء الرجال أذلوا قوات العدو بمنطقة القنطرة شرق وسببوا لهم خسائر كبيرة نحن نعلمها ولا تداع في وسائل الإعلام كي لا يعلم الشعب الإسرائيلي بتلك الخسائر ويطالب قيادته بالانتقام وبالتالي يطالب أمريكا بزيادة كميات الأسلحة كي ينتقم من غريمه المصري.

أمضيت يومين بقرتي وقررت السفر لمدينة المنيا للقاء السيدة وطفلها؛ لم أكن أعلم أين تسكن ولهذا توجهت لمسكن والدها المهندس ميخائيل الذي استقبلني أحسن استقبال وكان واضحاً الفارق في الحالتين بين

الأولي والثانية حيث يعم المنزل الضوء والبهجة؛ كنت أسمع إحدى الأغنيات من الراديو، أغنية " يا حلو ناديلي وخذ أناديلي للمطرب كارم محمود" أثناء جلوسى معه ومع المقدسة سارة واللذان صمما علي أن أتناول طعام الغداء معهم، سمعنا جرس الباب فنهض المهندس ميخائيل وقام بفتحه فسمعتة يرحب بالقادم ويخبره بأن بالمنزل شخصاً يسعدك أن تراه ظهر الضيف كان المهندس شوقي قادماً في التو والحال بإجازة ميدانية، رحب بي كثيراً وأثني علي شخصي بكلمات طيبة للغاية وقرر بأن أتناول طعام الغداء معه ومع مادلين وشادى لكن المهندس ميخائيل أخبره بأنها نصف ساعة وتحضر مادلين وتعرج علي حضانة الأطفال وتأتي مع شادى وتتناول طعامها معنا مثل كل يوم.

أقبلت مادلين وكان لقاؤها بي عاصفاً؛ كانت تبكي وتحضنني مرودة: رينا يخليك يا بابا جبر، كما تذكرني شادى وأقبل ناحيتي ومددت له يدي وصافحته وقبائته ورفعته لأعلي فنظر إليّ وأعتقد بأنه تذكر هذا الوجه الذي ظل لمدة ثلاثة أعوام يحمله ويلاعبه ويرعاه، أما المهندس شوقي كان في منتهى السعادة بأن شاهدني بعد وقف إطلاق النار وأخبرني بأنه كان يخشي علي حياتي حينما علم من أحد رجال الأمن بأن جبر عوقب أشد عقاب بأن قام حكمدار الأمن بنفيه لتلك المنطقة؛ كان الحكمدار في وضع حرج حينما حادثه قائد الفرقة المسابعة بأن يغفو عن الشاويش جبر، هكذا قضيت عدة ساعات من أحسن ما شعرت به بعد عودتي من رحلة القتال والبطولة من مدينة القنطرة غرب بعدها تحركت عائداً لقريتي لاستكمال باقي الإجازة.

انتهت إجازتي تمتعت خلالها بحب أسرتي وأقاربي والجيران وروعة

المناظر الطبيعية التي كانت تسود الريف المصري خلال تلك الفترة؛ قفلت عائداً إلى مدينة القنطرة غرب، توجهت لموقع سرية الهاون فلم أشاهد أحداً من رجالها، بالسؤال تبين لي أنهم تحركوا كيلومترين للجنوب بمنطقة تدعى الروضة، تحركت إليها يحدونني الأمل بأن أشاهدهم وأجلس معهم مسعياً ببطولتهم الفذة، اتخذت الطريق المرصوف الواصل بين الإسماعيلية وبورسعيد وكلما شاهدت أحد الجنود أسأله عن موقع رجال الهاون فيقدمون إليّ مساعدتهم حتى أشار إليّ أحدهم بأنه المجاور للحجرة ذات اللون الأبيض.

حينما اقتربت من الطريق الفرعي الواصل لتلك الحجرة شاهدت شخصاً ينام علي جانب الطريق، أدهشني هذا، وأسرعت إليه كي أتعرف علي حاله أصابنتي المفاجأة، لقد كان الضابط أسامة ملقي علي جانب الطريق لا يشعر بمن حوله، شعرت بأنه مصاب بالحمي؛ كانت عيناه تملؤها الدموع ودرجة حرارته مرتفعة ويهدى ولا يستطيع التعرف علي من حوله، انحنيت عليه وعدلت من وضع جسده وركنت ظهره علي جذع أقرب شجرة، حاولت التحدث معه أو إفاقته دون جدوى، شعرت بأن رجفة وقشعريرة أصابته وبدأ يرتجف محاولاً لملمة جسده من برودة شعر بها رغم أننا كنا بشهر سبتمبر ومازال الطقس حاراً.

بعد قليل شاهدت أحد الجنود قادماً نحوي وصافحني مرربداً: إزيك يا عم جبر، تعرفت عليه، لقد كان الجندي سعيد ابن الشريقيه دمس الخلق، سألته عما أصاب قائده، نظر إليّ صامتاً ثم قال: جاله برد .. إنفلونزا، عدت لأسأله لماذا لم يقم أحد بعرضه علي الطبيب أو المستشفى وأنا أعلم بأن لديكم

بالكتيبة طبيباً وصيدليه؟ صمت الجندي قليلاً ثم تحدث قائلاً:

- الله يخرب جلة الزمة وعدم الأخلاج، جالنا رئيس عمليات جديد بدل من الجديم العترة، الراجل ده شين وكان حصل بينه وبين حضرة الضابط مشكله كبيره أيام ما امرنا مخزن ذخيره للأعداء، حطها في نفسه لما وصل للكتيبة ويجي له سلطه حطنا في نماغه، كل كام يوم يجي للسرية يزعج ويعلى صوته علي حضرة الضابط، الضابط كان ماسك أعصابه لأنه بيزعج له جدامنا وده ميصحش، آخرتها حرمه من الإجازة بسبب الشغل، حضرة الضابط إتخلج عليه وحذفه بالخوذة لكن الرجل لوح جسمه بسرعه وإلا كانت الخوذة فتحت وشه المهم عملوا للضابط تحجيج ورا تحجيج وعشان الراجل يتعبنا أكثر لأننا مش رضينا نشهد ضد الظابط بتاعنا راح مكلف السرية أنها تروح تحفر حفر كبيرة لسرية الدبابات اللي ورانا بسبعه كيلو؛ كل يوم زميلي يروحوا يشتغلوا ويجطعوا أربعتاش كيلو رايح جاي ومخلاش حد هنا غيري لأنني متعور في رجلي ومش جادر أمشي ونبه عليّ لو سبت الموقع حيوديني محكمة عسكرية، حضرة الضابط عنده إنفلونزا شديده بجاله يومين ومش عارف أجيب له الدكتور لأن رئيس العمليات فصل خط التليفون وجه إمبراح وشاف حالته وضحك وجاله إن ما وريتك ما أبجاش أنا صلاح، ح أخليك نايم هنا لحد ما تموت.

كنت في حيرة، طلبت منه أن يدلني علي مكان الطبيب لكنه أخبرني بأن المسافة بعيدة ويظهر أن حضرة الظابط كان عايز يروح له ماشي لكنه مش جدر ووجع علي الأرض، شوف يا عم جبر أحسن حاجه تروح ورا الشجر الجريب ده، فيه هناك وحده من التعيينات جاية من قيادة الجيش تساعد في تصليح المواقع، هناك راجل طبيب اسمه عم يواجيم تادرس، ضابط

شرف؛ عرفه بالحكاية، الراجل ده جدع وكان بيحب حضرة الضابط أول ما جه للمنطقة عشان ساعدناهم كثير.

سرت قرابة الساعة بين الأشجار والمزروعات حتي وصلت للوحدة وبالسؤال عن الضابط يواقيم أرشدني أحد رجاله إليه، وصلت إليه وأديت له التحية العسكرية فرحب بي ترحيباً حاراً، وقدم لي العديد من علب عصير قها المخصصة للجيش نظراً لأن كل ما يخص الطعام والشراب من اختصاصه شرحت له ما شاهدت وسمعت، صمت الرجل وكز علي أسنانه وطلب معاونيه لمساعدته كي ينهض نظراً لأنه سمين وثقيل الوزن للغاية، طلب سيارة فحضرت وركبت بالخلف، أشار للسائق طالباً منه التوجه لمسرية الهاون، هناك شاهدنا الضابط مكيفاً علي وجهه والرائد صلاح يوبخ الجندي لتركة الخدمة والوقوف بجواره.

هبط الضابط يواقيم بصعوبة ولم ينظر للرائد وتجاهله تجاهلاً مقصوداً وشعرت بأنه يبغى العراك معه، انحنى عليه وقبله قائلاً: أيها الضابط الجدد الشجاع تلك هي المكافأة التي يقدمها الجبناء للمنتصرين، هؤلاء الجبناء الذين كانوا يختبئون بالقيادات "يقصد الرائد صلاح" الذي صرخ به ولكن الضابط يواقيم أشار له بالصمت محذراً إياه بالألا يحادثه بتلك الطريقة وليس عليه وصاية فلا أتبعك لكن أن تترك هذا الضابط ملقي بالشارع وهو مريض فأنت لست برجل شجاع ولا تؤتمن علي الجنود.

إمتنع وجه الرائد وقبل أن يتفوه بكلمة كان معاونو الضابط يواقيم قد حملوا الضابط أسامة ووضعوه بعربة عم يواقيم الذي أسرع به لمستشفى قيادة الفرقة

ذات الإمكانات العالية، هناك علمت مقدره وحب كل من التقيت بهم بالضابط يواقيم ومن أجل هذا أسرعوا بإسعاف الملازم أول أسامة وحينما علموا شخصيته إبتهجوا وتذكروا حادث تدمير مخزن ذخيرة العدو بالقنطرة شرق وأن هذا الضابط من قام بهذا العمل وأذل وأهان العدو، قضيت يومين بصحبة الضابط أسامة حتي تماثل للشفاء، خلال هذين اليومين رغبت بالتخفيف عن الضابط أسامة والعمل علي تسليته كي يترك حالة الحزن من تصرفات رئيس العمليات الرائد صلاح فقصصت عليه ما حدث خلال حرب عام ١٩٦٧ والرحلة البحرية التي قمت بها مع العيدة مادلين وطفلها أيضاً الرحلة من جنوب مصر علي شاطئ البحر الأحمر مروراً بوادي حلفا والشلال الأول قريباً من حدود مصر مع السودان ثم بحيرة ناصر والسد العالي حتي وصلت العيدة وطفلها بعون الله إلي منزل العائلة بالمنيا، كان الضابط سعيداً بما يسمعه ويستمر في بعض الأحوال عن معلومات؛ لأن المعلومات التي كانت لديه عن تلك المناطق ضئيلة، اليوم الثالث أصبح أشد صلابة وأخبرني بأنه راغب بالعودة للكتيبة من أجل هذا قام أحد أطباء المستشفى بإبلاغ الرائد صلاح بأن أحد ضباطه المحجوزين بالمستشفى تم شفاؤه وليرسلوا له بسيارة نقله للوحدة لأنه مازال في مرحلة النقاهة من الهزال والضعف الذي ألم به.

كانت إجابة الرائد صلاح بأن هذا الضابط لم يعد من ضمن قوة الوحدة وتم نقله للكتيبة المجاورة منذ أمس، صمت الطبيب وتساءل ما العمل؟ طلبت منه أن يتصل بوحدة التعيينات، أجابه عم يواقيم الذي أخبره بأنه قادم للتو وبعد نصف ساعة حضر عم يواقيم وطلب رجاله بحمل الضابط الذي شكره ضاحكاً وأخبرنا بأنه يستطيع السير، تحركنا لموقع سرية الهاون هناك قام الجندي سعيد بجمع متعلقات الضابط أسامة وهو . . هيبكي وتحركنا إلي الكتيبة الجديدة

التي استقبلت الضابط أسامة أحسن استقبال نظراً لسمعته وشهرته بوحدة الجيش الثاني، عدت إلي القنطرة غرب بالمساء؛ جلست أفكر بأن هذا المكان كان يقاتل به رجال أشداء أقوياء وضابط زكي ونشيط وبعد توقف القتال كانت المعاملة هي الإهمال المتعمد وحرمانه من الإجازة وأيضاً من العلاج.

نزلت الدموع من عيني وأنا أحاول أن أكبتها حيث كنت أردد: ليه دايم اللي بيشتغل في البلد دية يكون نصيبه الإهمال المتعمد ومن المحتمل توقيع الجزاء عليه، عدت بذاكرتي للوراء عدة أشهر، فبعد صراع لفترة ثلاث سنوات وبعد عودتي لم يعثر رؤسائي بمديرية أمن السويس علي من يرسلونه لمنطقة معارك القنطرة الدامية سوى، أردد: الحمد لله فقد عثرت علي أشباهي في العمل والكفاح وعدم التقدير، ومازال منظر الضابط أسامة وهو نائم علي جانب الطريق يثير بداخلي الحزن والألم.

الحمد لله لقد عاد رجال الهاون من معسكرات الاعتقال التي نصبها لهم الرائد صلاح والذي حضر ينظر إليهم نظرة التشفي بعد أن هلك الرجال وتقطعت ملابسهم وأصابت أيديهم التسلخات وبدا أنهم في أسوأ حال كما عين الرائد صلاح بديلاً عن الضابط أسامة بأسوأ ضباط الوحدة كما يقول الجنود سواء من الاستهتار أو عدم إلمامه بخصائص السلاح بالإضافة إلي الخشونة الشديدة في التعامل مع الجنود، تركت الرجال بعد وداع بالك وفي طريق السير كنت لا أرى الطريق بوضوح، كانت المقارنة فارقة وواضحة بين جنود اليوم وجنود القتال الأشداء الأقوياء بالأمس حتي مستوى النظافة والقيافة، لقد تغير حالهم رغم ما يبذلونه من جهد ورغم ما يتعرضون له من ضربات قوية من العدو والأخنة وغبار المباني المتهمة، ركبت أحد لواري الجيش

في طريقي إلى مديرية أمن السويس وأنا أشعر بأنني فارقت عائلتي ولم أشعر  
بمثل هذا الشعور من قبل إلا يوم فراق مانلين وطفلها رغم سعادتي بأن وفقني  
الله بأن أقوم بإيصال تلك الأمانة إلي أصحابها، الحمد لله فبرغم كل هذا رأيت  
هؤلاء الرجال العظام، وصلت إلي مدينة السويس وفي اليوم التالي كنت أمام  
رئيسي الذي رحب بي ولم أعد أسمع أية كلمة في حديثه لي سوى كلمة  
انصراف يا جبر، بخارج لمكتب علمت بأنهم أرسلوا بي للعمل بحي الأربعين  
بمدينة السويس بالخدمات الليلية.

## الوضع بمدينة السويس

توجهت لمكان عملي والذي يقع بحي الأربعين القريب من موقف أتوبيسات الأقاليم المدمر، نقطة تواجدى وخدمتي الرئيسية مقرها تقاطع شارعين من الشوارع الضيقة، علي الناصية المقابلة لي مباشرة يوجد منزل متواضع وأسفله فرن بلدى، علمت أن صاحب الفرن هو المعلم منصور السويسي وهو رجل طيب ومتزن ومن الجيل القديم الذى جاهد وشارك في حرب التحرير ضد الإنجليز قريباً من مدن القناة وقد أبلى بلاء حسناً في ريعان شبابه، يسكن المعلم منصور بالدور العلوى مباشرة فوق القرن والدور الذى يليه غير مسكون ولم يرغب المعلم بإيجاره؛ لقد خصصه لابنته الكبرى التي تدرس بالجامعة، تقيم أسرة المعلم منصور بالقاهرة بحي باب الشعرية؛ لقد تركت الأسرة المدينة تنفيذاً لأوامر التهجير القسرية التي أمرت بها الحكومة حفاظاً علي حياة أبناء مدن القناة من الضربات التي يوجهها العدو الإسرائيلي من حين لآخر وبالذات حينما تكيل لهم قواتنا المسلحة الضربات الموجعة فيضطر للانتقام من المدنيين العزل.

### زوجة المعلم منصور:

قضيت الأعوام الثلاثة الماضية وأنا أعتصر ألماً وحزناً وخوفاً، كنت أخشي علي زوجي الحبيب المعلم منصور، مازال الرجل يقيم بالسويس بتكليف من المخابرات الحربية التي أمرت أصحاب الحرف المهمة بالبقاء لخدمة الجيش ورجال الدفاع المدني وبعض المصالح المهمة مثل عمال شركة قناة السويس رغم تعطل الملاحة وأيضاً عمال البترول وغيرهم، لقد تخرجت

ابنتي شمس منذ ثلاثة أشهر من كلية التربية الرياضية بالقاهرة، أشاهدها تتحرك بأرجاء الشقة المتواضعة التي استطاع ابن عم زوجي توفيرها لنا كي نقيم بها؛ كانت الشقة مخزناً لإحدى ورش الموبيليا وتحت إلاح وإقناع ابن عم زوجي لصديقه صاحب الورشة أخلي المكان وأقمنا به وهو مكان سيئ بالطبع لسوء التهوية والمعيشة ورغم هذا فهو أهون حالا من المسكن المشترك المخصص من محافظة القاهرة لعدد من العائلات كي نقيم بها وما يترتب علي هذا من ضيق الحركة وأيضاً مشكلات وتصرفات غير أخلاقية للبعض أشاهد ابنتي الكبرى شمس تتحرك بنشاط ودلال داخل المنزل، فكرت منذ تخرجها بأن ترافق أبها كي تقوم علي خدمته؛ لقد ظل هناك لفترات طويلة ولا يستطيع الاعتماد علي نفسه في إعداد الطعام ونظافة ملابسه، عرضت عليه تلك الفكرة بأخر إجازة لكنه رفض قائلاً حتي لو أنا وافقت فلن يوافق مكتب المخابرات الحربية بالسويس، هذا ممنوع تنفيذاً للأوامر بحظر تواجد إناث وبخاصة صغار السن، صحيح أن بالمدينة بعض العائلات من الرجال والنساء كبار السن، لكن هؤلاء لهم ظروف خاصة مثل اعتلال الصحة أو أن لهم ولداً واحداً يقوم بالخدمة بالمدينة بإحدى مناطق الإنتاج والخدمات التي تخص المجهود الحربي، عدا ذلك فمن الصعب تنفيذ تلك الرغبة.

### المعلم منصور:

توجهت لمكتب الرائد حسن مسئول المخابرات الحربية بالمدينة، رحب بي كعادته وأتني علي ما أقوم به من تزويد المدينة بالخبز الجيد كما قدم لي شكراً خاصاً لما أقوم به من تسوية بعض وجبات له ولزملائه سواء صواني بطاطس باللحمة أو صيدية سمك والتي يرسل بها للفرن لطهيها، بعد أن جلست

ورحب بي عرضت عليه مشكلتي بأنتي راغب بأن أستقدم ابنتي كي تساعدني علي المعيشة فأنا لا أستطيع تدبير أمورى الشخصية بمفردى، لقد كبرت في السن كما أن الإصابة التي لحقت بي وأدت إلي عجز جزئي بذراعي اليسرى خلال مقاومة الاحتلال البريطانى قد أثرت علي كثيراً.

صمت الرجل ونظر إليّ قائلاً: أنت عارف بالأمر، إزاي أصدق علي حاجه زى كده، لو كان ولد أو شاب كنت وافقت لكن فتاة صعب يا عم منصور، شكرته ونهضت راغباً بمغادرة المكتب، قبل مغادرة باب المكتب استوقفني وسألني هل أحمل الطلب كي أحاول مع رؤسائي؟ أسرعت بتقديم الطلب له فقراه وابتسم قائلاً: الاسم يمكن يمشي ولد أو بنت، خد الطلب وصلحه وأكتب فيه أنك ترغب بحضور ابنك شمس للمساعدة دون ذكر أنها فتاة ومنتماش أنك تعمل حسابك أنها تتخفي في زى الشباب.

ضحكت لتلك الفكرة وهذا التحايل وأخبرته أنها لن تخرج من المنزل بعد الحضور، فهي قادمة لتقديم الخدمة والعون وليست قادمة للنزهة، ابتسم مصافحاً لي، عدت إليه في اليوم التالي فأمر علي الطلب بالموافقة وطلب أحد مساعديه بأن يقوم باستخراج تصريح باسم الشاب " شمس منصور محمد " والسماح له بدخول المنطقة العسكرية بمدينة السويس بغرض العمل كمساعد فران بفرن والده المعلم منصور، شكرت الرجل كثيراً الذى كرر تحذيره لي غادرت المكتب وأنا في منتهي السعادة، سوف تحضر شمس لتقييم معي تعد الطعام وتقوم علي رعايتي وأيضاً أستأنس بها وتهداً بعض الشئ من عاطفتي نحو أسرّتي.

توجهت للقاهرة لزيارة أسرتي، بعد اللقاء والحفاوة التي استقبل بها وبعد أن خلا المكان من الأبناء همست لزوجتي بما تم من استخراج تصريح لابنتي شمس وتحذير ضابط المخابرات الحربية، كانت الفرحة غامرة؛ حيث كانت ترغب بأن تطمئن علي أحوالي، طلبت شمس التي أقبلت فأخبرتها بما قلته لها صفت الفتاة وأقبلت ناحيتي تعطرني بقلاتها الحانية، خلال أيام إجازتي كانت شمس راغبة بانتهاء تلك الإجازة والعودة لمدينتها الجميلة السويس وأيضاً العودة إلي منزل العائلة التي ولدت به ونشأت ولم تترك هذا المنزل إلا منذ ثلاثة أعوام مضت حين صدر قرار التهجير القسري من المحافظة، كانت زوجتي حزينه لفراق ابنتها الكبرى العروس لكن في نفس الوقت شعرت بأنها سوف تطمئن علي حالي.

### شمس:

منذ علمت بنبا التصريح لي بدخول مدينة السويس علي أنني شاب وأنا في غاية الاهتمام كي أعد العدة لهذا الحدث، طرأ علي فكري أن أستشير أستاذة المكياج بمعهد السينما وهي في الوقت نفسه والدة زميلتي جيهان؛ اليوم التالي قمت علي زيارتهم وأخبرتها بما قرره والدي والتحذير من عدم كشف شخصيتي أضحكها هذا وظلت معي خلال يومين تعد الملابس المناسبة كي أصبح الشاب شمس وليس الفتاة شمس، أعدت كل شيء سواء من الملابس المناسبة لتلك الشخصية وإكسسوارات الشباب وكيفية إخفاء شعر رأسي الذي ظل علي حاله الطويل ولم تقم بقصه واستعاضت عن هذا بأن أحضرت كلبوش أردنيه علي رأسي وهو مماثل لما يريدته المائقون والعمال وهذا كفيل بإخفاء الشعر

وبعض ملامح الوجه وبياض البشرة.

كما طلبت مني عدم التحدث مع العامة إلا في الظروف القهرية، ومن ضمن ما أعدته من ملابس أعدت عدداً من الجلباب الرجالي الذي يستخدمه العامة وعدداً من البنطلونات والقمصان الرجالي وجاكت طويل يصل حتي الركبة بحيث يغطي منطقة الصدر والأرداف.

صباح يوم السفر أضحك مظهرى كل من أمي وأبي علي ما طراً من تمويه علي حالي كما لحق بهما أشقائي الصغار، هكذا تحركنا وركبنا القطار المتجه للموسم، مجرد أن اقتربت من المدينة غمرني شعور بالسعادة وسمعت نبضات قلبي يخفق بشدة بأن عدت لموطن رأسي، وصلنا والحمد لله إلي الشارع المؤدى للمنزل، هناك شاهدت أحد رجال الأمن الذي نهض يرحب بنا وعرفني به أبي حيث قال:

. عم جبر، مسئول الأمن بالمنطقة، بينما أسرع عمي جبر وأشار إليّ قائلاً:

- أيوه، المحروس ده أكيد ابن أخوك لأنني عارف أن ولادك الصبيان صغار كهذا تأكد لي ولأبي بأن عملية التمويه والخداع قد أتت أكلها.

بداخل المنزل تخلصت من كل الملابس الرجالي التي كنت ارتديها وعدت ثانية لملابس النساء الجميلة الرقيقة، أصبحت أنثي كما خلقتني الله بينما غادر أبي المنزل عائداً للفرن كي يطمئن علي أحواله خلال فترة الاجازة التي أمضاها بالقاهرة مع أمي وإخوتي، تفقدت أرجاء الشقة ثم جلست قليلاً أتذكر كل ما كان وما حدث بهذا المنزل<sup>٣٠٧</sup> العامر، تحركت وجلست بحجرتي

التي أمضيت بها الجزء الأكبر والأطول من عمري والذي لم يتعد الثالثة والعشرين عاماً، كانت حوائط المنزل تحكي أحداثاً ضاحكة وأخرى حزينة، توجهت للمطبخ وشممت رائحة أمي وهي تعد لنا الطعام الشهى حلو المذاق دخلت حجرات إخوتي الصغار وتذكرت ميلادهم وأيضاً نموهم عاماً بعد عام بل تذكرت مفاكستي وحببي لهم والعناية بهم كي أساعد أمي علي ما تقوم به من أعباء المنزل، بحجرة استقبال الضيوف تذكرت والدي وأصدقائه وجلسات السمر والفكاهة وأصواتهم العالية حين النقاش ورائحة دخان السجائر المعبأة بالحجرة والتي تظل عدة أيام تملأ المنزل بعبق الدخان.

فتحت دواب ملابسي فعثرت علي بعض بقايا من ملابسي أثناء مرحلة المراهقة، وضعت بعضاً منها علي جسدي، ووقت أمام المرأة التي تظللها الأتربة، شاهدت نفسي حين كنت بالرابعة والخامسة عشرة من عمري، كانت مساعدتي لا توصف، عثرت علي بعض كتبي خلال المرحلة الثانوية فتحت صفحات بعضها، قرأت بعض تعليقات وذكريات سبق وقمت بكتابتها علي هوامش الكتاب سواء حين سماع أغنية جميلة أثناء المذاكرة أو ملخص لنظرية في مادة الفيزياء تساعدني في حل بعض الأسئلة الصعبة، أغمضت عينيّ وعدت للوراء عدة أعوام، تذكرت زميلاتي بالفصل والتي لاقت إحداهن ربهَا بعد قيام حرب عام ١٩٦٧ حينما قصفت قوات العدو مدينة السويس، تلك الصديقة الرقيقة ناريمان وحيدة والديها واللذان بقيا بالمدينة بعد إلحاح مع المحافظ حتي يظلا بجوار قبر ناريمان فيقومان علي زيارة قبرها من حين لآخر نظراً لأنها إبنتهما الوحيدة.

هبطت دموعي غزيرة وحادقة علي فقد صديقة شابة جميلة كان

لها مستقبل باهر في عالم الغناء والموسيقي؛ كان صوتها يصدح بأغان جميلة تحاكي كل من ليلى مراد ونجاة وأم كلثوم بل وأثناء الغناء كانت تجيد العزف علي العود وكأنها تتنافس الفنان فريد الأطرش في براعة عزفه مما كان يلهب أيادي المعجبين من كثرة التصفيق، ناريمان حلم يسير علي قدمين، وحورية رائعة الجمال تتحرك بدلال بين زميلاتها، ناريمان قيثارة رائعة تغرد دائماً كنت أشعر بأنها تتنافس الطيور في الموسيقي والغناء لدرجة أن أبله تفيدة مدرسة الموسيقي قالت إن ناريمان تتنفس الموسيقي والغناء وزفيرها ألحان وضياء، رحم الله ناريمان.

تتهبت علي أن أحداً يدق علي الباب الخارجي، لم أجب، سمعت الصوت يردد يا أستاذ شمس، أنا جبر بتاع البوليس، والنبي لما عمك المعلم منصور يرجع خليه يعدى عليا فيه حاجه عايزه فيها، غلظت من صوتي وأجبت:

. حاضر يا عم جبر، أجب:

. ربنا يحضر لك الخير .

أكد لي هذا أن الأمور علي خير ما يرام، اليوم التالي غادرت المنزل نهراً واتجهت للسوق لشراء بعض أغراض المنزل من خضراوات وفاكهة ولحوم وبعض أدوات نظافة من مقشاة ومنفضة كي أقوم علي إحياء الشقة مثلما كانت قبل التهجير، كنت أتجول بالحى والمنطقة التي نحيا بها وقد تبدل كل شيء فلم أشاهد من مظاهر المدينة سوى عربات الجيش الكبيرة قادمة وغادية تحمل لوازم جنود الجيش كما انتشر بعض جنود الجيش بالمدينة لشراء ما يحتاجه

كانتيني الوحدة التي يتبعونها.

سارت قدماى وأنا أتبعهما فلم تكن لي سيطرة علي حركتها؛ أصبحت العواطف هي التي تدفع بى من مكان لآخر، وقفت أمام أحد المنازل المهذمة من جراء القصف الإسرائيلي وتذكرت الحدث، كان يقيم بهذا المنزل المكون من ثلاثة طوابق ثلاث عائلات كبيرة العدد، تذكرت أن ثلاثة عجائز لقوا ربهم من جراء القصف كما أصيب العديد من قاطنيه؛ أعرفهم جميعاً بحكم الجيرة والنشأة، أشاهد قهوة المعلم منسي زيادة والتي أصابته بعض شظايا قنبلة معادية مما أدى لإصابة بعض زبائنه بينهم عم حنفي الكناس الذي يقوم علي نظافة المنطقة فلقي ربه وترك اطفالا صغاراً في حاجة للعون، لم أشعر بنفاد الوقت، لقد تبخر مع الذكريات الأيمة ونزلت الدموع من عينيّ دون قصد ودون أن أنتبه، توقف أحد الشباب بالشارع ونظر إليّ في دهشة واقترب مني يواسيني بكلمات طيبة وأخذني بين ذراعيه يهدد علي ظهري " مش تزعل يا بطل، كلنا فداء الوطن" تتبعت وتخلصت من ذراعيه ووقفت أمامه وقدمت شكرى له بحركة من يدي وقفلت عائدة إلي المنزل؛ لقد كاد أن يقتضح أمرى قررت بالآ أنترك لنفسي العنان بالحزن والضيق.

عم حنفي:

بات واضحاً أن المعلم منصور الفران بدا أحسن حالا وقد تهندم مظهره وأيضاً لم يعد يشارك عمال القرن طعامهم، بل أنه في أحد الأيام أعد عزيمة طيبة علي الغذاء دعيت لها وخلال تناول الطعام أشاد بما يقوم به شمس ابن أخيه من إعداد للطعام لأنه تغرب عدة سنوات عن أهله أثناء الدراسة وأصبح

يعتمد علي نفسه بإعداد الطعام مما دفع أحد العمال للدعاء له بأن يرزقه الله باينة الحلال ويحيا حياة طيبة وتتجب له البنين والبنات بينما علق آخر " بأن الطعام رائع ونفسه ممتاز والله اللي ياكل الأكل ده يفكر أن ست هيا اللي طبخته، يكرر: فيه نفس ست والله " .

أثناء خدمتي وعملي كنت ألتصم باب أحد المنازل الكبيرة وأجلس بخلف المدخل كي لا يراني أحد بينما أقوم بمراقبة الشارع والمنطقة كما أصبحت أنضاي مرهقين تسمع دبة النملة كما يقول المثل فهذا من صميم عملي وعلي أن أرتاب في أي تصرف يحدث وبخاصة أثناء الليل، لاحظت منذ عدة أيام بأن شمس ابن شقيق المعلم حنفي يتسلل من المنزل ليلا بعد أن يغط حنفي في نومه ويتحرك حركة غير طبيعية وكأنه يتلفت حوله من حين لآخر كي يتأكد بأنه غير مراقب.

أثار هذا حفيظتي وشعرت بأن الشاب يغافل عمه ويسرق بعض الأشياء وينزل بها ليلا في الخفاء كي يخفيها أو يبيعه خاصة أنني كنت كل ليلة أشعر بأنه يحمل شنطة من البلاستيك علي هيئة خطوط متشابكة مشابهة لشبكة الصياد ويسير بها من مكان لآخر ثم فجأة يختفي عن نظري، فكرت بأن أخبر عمه لكنني خشيت أن يكون الشاب بريئاً وأن عمه يكلفه بالمرور علي بعض الفقراء بالمدينة حاملاً معه بعض الخبز التالف والذي لا يباع لوجود عيوب به أثناء الإعداد ومن أجل هذا قررت التأكيد بأن الشاب لا يقوم بعمل مخالف أو أنه ليس على علاقة ببعض نساء العاملين الذين مازالوا بالمدينة.

يوماً كان الشاب شمس يفلت من مراقبتي وأعود خالي الوفاض من المعلومات ولكني كنت أكسب مسافة للمراقبة، فالمنطقة التي اختبأ بها الليلة الماضية كنت أنتظره بها وأنا خافي عن الأنظار وحين يقبل أتبعه من علي مسافة حتي أحصل علي مسافة جديدة كي أقترب من المكان الذي يتجه إليه كل مساء، هذه الليلة تبعته وشاهدته يدخل منزلاً قديماً مكوناً من طابق واحد وأغلق الباب خلفه بعد أن سمعته ينادي علي من بالمنزل بصوت غريب علي سمعي فقد أصبح صوته رفيعاً ناعماً.

تأكد لي أن الشاب علي علاقة بامرأة، فهو يقلد صوت النساء حتي لا يعلم أحد بأن رجلاً يقوم علي زيارة تلك الأمرة، اقتربت من نافذة المنزل كي أتصنت وأستمع رغم أن هذا مناف للدين والآداب فسمعت صوت سيده:

رينا يخليكي يا شمس .

. تعالي هنا جنبي ، أيوه كده ، ياه لما بأشوقك بأفتكر المرحومة ناريمان؛ بعد تلك الكلمات سمعت بكاء السيدة ثم سمعت صوت رجل يهدأ من خاطر السيدة ويخبرها بأنه من الواجب علينا التحمل وأنا أبوها ولم أنسها لكن الواجب علينا أن ننصاع لإرادة الله.

سمعت صوتاً نسائياً غير صوت السيدة الباكية يطلب من الخالة فتحية أن تستعد كي تنهض وتتوجه للحمام كي أساعدك داخل الحمام، كررت السيدة الشكر، عادت السيدة تطلب من السيدة الأخرى أن تدفع الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه برفق كي لا تصطدم بباب الحمام ثم أعقب هذا ضحك السيدتين

عشر دقائق وسمعت صوت السيدة صاحبة الدار تطلب من زوجها بركات أن ينهض كي يحصل علي الحمام، كرر الرجل شكره لها وسمعته يحدثها بأنه كان يتمني أن يكون مبصراً حتي يشاهد الملاك الطيب صديقة الراحلة ناريمان والتي أقبلت كي تقدم يد المساعدة لنا.

سمعت السيدة الضيفة تحدث عم بركات وتخبره بأن المياه الساخنة في العبوة التي علي يمينه والمياه الباردة بالعبوة التي علي يسارة والصابون والليفة في مكانهم مثل كل يوم ثم قالت:

. أنا قاعده مع خالتي فتحية لو عاوز حاجه إنده علي، سمعت صوت دعاء الرجل، انخفض صوت حديث السيدتين وتنبهت علي سماع صوت الرجل ثانية ينادى:

. " شمس يابنتي .. تعالي خدى إيدي ..رينا ما يحرمك من نور عنيكي".

أسرعت بالعودة لمكاني المختار قريباً من فرن المعلم منصور وأنا أردد بداخلي كلمة شمس يابنتي التي كانت تتنادى بها السيدة العجوز الفتاة أتساءل: أمال الشاب شمس ده يبقى مين؟ الله يا معلم، يعني أنت مجوز البيت الصغيرة دية من ورا مراتك وعيالك ويتضحك علي دقونا، ياه!! معدش فيه خشا ولا إخلاص، قررت مقاطعة المعلم منصور وأيضاً الفرن وشراء الخبز من فرن آخر، لقد شعرت بأن هذا الرجل العجوز لعبي وماشي علي حل شعره.

مضي يومان علي هذا الحادث ونظراً لطبيعة المصريين السمحة فلم أقم علي إفشاء سر الفتاة ورغم علمي<sup>٣١٣</sup> بأن المعلم منصور مريض وملزم

الفراش فلم أقم علي زيارته حتي لا ألتقي بزوجه تلك التي تزوجها رغم أنه متزوج وله فتاة عروس في سن الزواج كما علمت من بعض أصدقائه بالمنطقة.

بعد عدة أيام شاهدت الفتاة التي تتقص شخصية شاب تغادر منزلها بعد أن تماثل المعلم منصور للشفاء، تبعها كعادتي ولكن في تلك المرة سلكت طريقاً آخر، كانت تسير مخالفة لعادتها السابقة، كانت تتحرك بخوف وفي حالة من الاضطراب، اعتقدت في تلك المرة أنها تخون زوجها نظراً لكبر سنه واعتلال صحته التي تأثرت من الإصابات التي لحقت به من جراء حرب التحرير ضد الإنجليز بقيادة السويس، مازالت تسير وتتحرك وأنا أتبعها وفجأة اختفت من أمامي، لم يعد لها وجود مما أثار ضيقي.

أحد الأيام شاهدت أحد العاملين بالفرن ويدعي مصيلحي، كان يحمل أغراضاً ثقيلة أحضرها من السوق وسوف يصعد بها إلي شقة المعلم منصور توقفت أمامي يلهث وطلب مني أن أعونه بالجلوس نظراً لإصابته بنزلة برد أثرت علي قواه ولم يعد قادراً علي السير؛ طلب مني بكل ضعف بأن أحمل تلك الأغراض إلي شقة المعلم وأسلمها للأستاذ شمس كما يفعل كل مرة ساعدته للعودة لزملائه الذين أعاونوه علي التوجه لسكنهم طلباً للراحة، كان المعلم وقتها مشغولاً مع لورى نقل الدقيق القادم من القاهرة فلم يلاحظ أي شيء.

عدت للشوارع وحملت الأمتال التي كان يحملها مصيلحي وصعدت بها لشقة الحاج منصور، طرقت الباب فسمعت صوت شمس الغليظ يتساءل: من

الطارق؟ أجبته بأنني أحمل الطلبات التي طلبت من مصليحي إحضارها حيث إنه مريض وملزم للفرش، سمعت صوت الشاب شمس يطلب مني وضع ما أحمله من أغراض علي الباب وسوف ينقلها بعد أن يقوم بغسل يديه من العوالق التي بها، أخبرته بأن تلك الأغراض تحتوى علي اللحوم وأخشي أن تهاجمها القطط الضالة، طمأني علي أنه لن يتأخر وأعاد تقديم شكره إلي.

كنت راغبًا بأن أفتحها فيما وصل إلي من معلومات وأن أقدم لها النصح بالابتعاد عما تقوم به فهي زوجة ويجب عليها احترام رباط الزوجية كما أحذرنا بأن المخابرات الحربية لو علمت بالأمر فسوف تطردها من المدينة واحتمال أن تلغي التصريح ببقاء المعلم منصور ويفقد مصدر رزقه ورزق أسرته لكنها لم تعطيني الفرصة فاضطرت لترك ما أحمله وهبطت السلم عائداً إلي محلي المختار.

أصبحت شمس هي شغلي الشاغل بجوار عملي رغم أنني لست من هواة تتبع سير الناس أو عوراتهم لكنني شعرت بالضيق مما تفعله من وراء ظهر الزوج الذي يعتبره الكثير من أبناء السويس من أبطال المقاومة الشعبية لقوات الاحتلال الإنجليزي، شاهدتها بعد أن سمعت أذان المغرب من مسجد الهداية القريب مني، كانت تحمل الكثير من الشنط البلاستيك وشنط الورق واتجهت للفرن فشاهدت أحد العمال يقوم بنقل الكثير من أرغفة الخبز من علي القفص ووضعه بداخل كيس كبير، حملت كل هذا وأسرعت في اتجاه آخر مخالف عن الاتجاه السابق والذي كنت أتبعها حتى علمت شخصيتها.

بإحدى زوايا الشارع الخلفي توقفت تتلفت حولها فشاهدتني أتبعها؛ توقفت

حتى وصلت إليها وبادرتني بالحديث بصوتها الغليظ محاولة تقليد صوت الرجال وتساءلت:

- أبوه ياعم جبر، فيه حاجة؟ نظرت إليها بهدوء، فلقد عقدت النية بأن أفصح عن شخصيتها وألا أدعها تظل أمامي وأمام الآخرين شخصية مبهمه.

- أبوه يا شمس، شوفي يا بنتي، أنا عارف أنتي تبقي مين؟ شعرت بأن الاضطراب أصابها مما وضعها في وضع حرج أثر علي اتزانها، وأعتقد أنه قد أصابها الخوار؛ فقد سقطت بعض الأغراض التي كانت تحملها من يدها، لم تنبس بكلمة فواصلت حديثي بهدوء.

- شمس، إزاي تكوني مجوزة وتخوني جوزك؟ حرام يا بنتي وإحنا في أشرف مكان شاهد علي موت شباب كثير سواء من اللي ماتوا بالحرب أو من قصف العدو لبيوت السوايميه، الكلام اللي بتعمله هنا مش ده مكانه وكمان الراجل الطيب المعلم منصور البطل مش علي آخر الزمن مراته تخونه وأنتي شابه.

- عم جبر، أنا شمس بنت منصور، وسبب لبسي الرجال أن ده كان شرط المخابرات الحربية عشان أدخل المدينة أراعي أبويا .. هتقت:

- أنتي بنت عم منصور، الحمد لله، طيب يا بنتي ليه بتلغي كل يوم بالليل علي البيوت، ده يطلع عليك سمعه مش كويسه، أنتي زي بناتي وباخاف عليك ابتمت وقالت:

. تعال معايا يا عم جبر وشوفني أنا رايحه فين .

هكذا راقت شمس وحملت الكثير مما كانت تحمله؛ كانت الحمولة ثقيلة الوزن علي الرجال فما بالك بالنساء، دار بيننا حديث طيب تخلله وعد أخته علي نفسي بالآ أكشف شخصية شمس لأي أحد حتي لا تطردها المخابرات الحربية من المدينة، بإحدى الحوارى الضيقة والمظلمة توقفت أمام منزل شعرت بأنه آيل للمقوط ومكون من طابق واحد ويغلب علي بنائه الأخشاب طرقت الباب عدة طرقات فسمعت زيتة وحركة بداخل المنزل وفتح أحد الأطفال الصغار الباب وأعتقد أن عمره لا يزيد عن ثمانية أعوام؛ رحب بشمس كي يعلم من بالمنزل؛ حيث قال: أبله شمس وصلت، مازلت واقفا بالخارج فسمعت بعض الأصوات بالداخل وهي أصوات لسيدة وبعض الأطفال أخبرتهم شمس بأن عم جبر صديق والدها حضر معها كي يقدم المساعدة رحب بي من بالمنزل وأذنت لي شمس بالدخول، فدخلت.

لم أكن أتخيل بأنني سوف أشاهد ما شاهدت، شاهدت سيدة معاقة وعلمت أن لها أطفالا ثلاثة مصابون بشلل الأطفال، ولم ينج أحد من هذا المرض اللعين سوى ابنها الأكبر الذى قام بفتح الباب، لكن الشيء الملفت للنظر أن الأطفال الثلاثة أصبحت حركتهم في منتهي الصعوبة، شاهدت شمس تقوم بأشياء سريعة وكثيرة، قدمت لهم الطعام ذا الرائحة الطيبة الذى اندفع إليه الصغار لالتهامه، تبين أنهم جوعي كما أعدت لهم طعاماً آخر كانت تحمله معها لكن يحتاج أن تضاف إليه بعض أصناف ثم يوضع فوق النار أى أن هذا الطعام لم ينضج وهو طعام الغد.

أوقدت وابور الجاز فأخبرتها بأني سوف أنتظرك بخارج المنزل حتي تنتهي مما جئت من أجله، أشارات إليّ باسمه وغادرت المنزل ووقفت بجوار الحائط واندفعت الدموع من عينيّ غزيرة، كنت أهذى وأردد: كيف حال تلك الأسرة؟ لقد علمت أن الأب رجل فقير يعمل غفيرا بكويانية شركة التكرير ودخله لا يكفي لأسرته كما أن الأطفال وزوجته معاقون يحتاجون العون المادى والمعنوى، مازالت صورة الأطفال الثلاثة الذين يزحفون علي مقعدهم يتحركون للقاء أبله شمس التي انحنت عليهم تقبلهم أما الأم فهي تسير بطريقة شبه طبيعية لكن يدها اليمنى معاقة وتضعها بجانب صدرها وتعمل بيدها اليسرى.

أطلت عليّ شمس من باب المنزل وطلبت مني أن أنصرف لأنها سوف تتأخر بعض الوقت حتي تنتهي من إعداد مياه ساخنة كي تقوم بإعطائهم جميعاً حماماً وتقل ملابسهم لمنزل والدها كي تقوم بغسلها، أشرت إليها بأني باق، شكرتني وعادت لعملها بينما عادت إليّ دموعي وكنت أويخ نفسي بأننا رجال علي الفاضي، هناك بالفنطرة شباب يقاتل ولا يخشى الموت، وهنا عروس جميلة لا تخشى تعرضها لأي عدوان، تقوم بأعمال لا تستطيع فتاة في عمرها ولا جمالها أن تقوم به، صديقاتها الآن مع عائلاتهم يمرحن والبعض منهن تقدم شاب لخطبتها وتعيش قصة حب عاطفية رومانسية بينما تلك الفتاة تنتقل من منزل العجائز والدايّ المرحومة ناريمان لتعود لتلك الأسرة الفقيرة التي كتب الله عليها المرض، كل هذا لأن الحكومة أهملت وقايتهم بجرعات الوقاية من هذا المرض وأيضاً أهملت علاجهم.

بعد مضي أكثر من ساعتين أنهت شمس ما أقبلت من أجله غادرت المنزل والسيدة تدعو لها بالصحة والمستر وتخبرها بأن الأطفال ناموا

بعد أن حصلوا علي الحمام واستبدلوا ملابسهم بأخرى نظيفة والتي أحضرتها معك، سرت مع شمس فشاهدتها تحمل لفافة قماش "بوجة" بها ملابس وتساءلت عما تحتوية تلك اللفافة فأجابتني بأنها ملابس العائلة وسوف تقوم بغسلها وتجفيفها وتأتي بها لهم بعد غد، حملتها عنها حيث كانت رائحتها منفرة لأن الأطفال لا يستطيعون نظافة أجسادهم بعد دخول المرحاض.

كانت شمس تحدثني وهي في غاية السعادة بأنها استطاعت إدخال البهجة علي قلوب هؤلاء الأطفال بينما لزمت أنا الصمت خشية أن يفتضح أمرى وأظهر أنني رجل ضعيف، فما قامت به الفتاة يعتبر من الأعمال الإنسانية العظيمة، كما أنبت نفسي علي شكوكي فيما تقوم به، شعرت بأن الملائكة كانت ترافق شمس في كل خطوة طيبة تقوم بها من أجل إسعاد العائلتين وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وصلنا إلي الشارع الذي به المنزل، أمام باب المنزل الخارجي صافحتني وشكرتني وأنا بدورى أخبرتها بأنه منذ تلك اللحظة وأنا رقيق لك في كل خطوة تقومين بها من أجل إسعاد الآخرين، ما عليك سوى إخبارى بما تريدين سواء احتياجات من محل البقالة القريب أو حمل الأغراض والطعام والملابس، بل يمكنك بعد هذا اليوم بأن ترسلي بي لمن تريدين عونه بالطعام دون وجودك قدمت جزيل شكرها لي وهي تردد:

- أنت قلبك كبير يا عم جبر ويتحس بالضعيف والفقير، رينا ما يحوجك تصبح علي خير.

في لحظة شاهدها تقفز كالعصفور بداخل باب المنزل بينما مازلت أقف مشدوها مما حدث وما علمته وما شاهدته، عدت أجلس بداخل باب المنزل الفارغ الذي أعدته ليكون موقع خدمتي واستراحتي رغم انتشار الفئران والعرس به ورغم كل هذا فهو آمن، جلست بداخل المنزل علي درجات السلم المظلم وأنا أكرر الدعاء للفتاة: رينا يخليكي يا شمس يا بنت منصور ويخلفه عليكي بالخير والبركة، شعرت بأن دموعي عادت ثانية حينما عادت لذاكرتي ما شاهدته علي وجوه تلك الأسرة كما علمت بأن أب هؤلاء الأطفال صاحب مرض ويقال إنه مصاب بروماتيزم بالقلب رغم عمله كخفير بشركة البترول بالمدينة.

## أحداث ما قبل المعركة

مازالت شمس مستمرة في تقديم خدماتها للمحتاجين من العائلات الفقيرة والمريضة، تبين لي أن بالمدينة عدداً لا بأس به ممن يحتاج للعون المادي والاجتماعي، كانت جميع الحالات لعائلات فقيرة أو من المرضى أو اجتمع عليهم الاثنان معاً، في بعض الحالات كنت أحاول التماسك حتي لا تخرجني دموعي سواء أمام الفتاة الشابة أو أمام الذين يحتاجون العون.

علمت من شمس أنها طلبت من أبيها أن يجنب كمية من خبز القرن لهذا العمل وتبين لي أن المعلم منصور كان يعلم بما تقوم به ابنته فهو رجل مجاهد ولم يبخل علي الوطن بحياته ولهذا فهو دائماً يمد الوطن بخدماته سواء من الإقامة بالمدينة وابتعاده عن أسرته كي يقدم خدماته لها في صورة توفير خبز الطعام أو ابنته التي وافقها الرأي علي ما تقوم به بل أنه يمددها بالعون المادي كي تقوم بشراء ما تحتاج لشرائه من مواد تموينية أو الخضراوات أو اللحوم، فما تقوم بإعداده من طعام يحتاج لمزيد من الأموال بالإضافة إلي المجهود التي تبذله في إعداد هذا الطعام وأيضاً نظافة وغسل الملابس التي طالها الاتساخ وأيضاً حمل تلك الأغراض لأصحابها والعودة بالملابس المتسخة.

لم تكن تشغلني الحالة الأمنية نظر لإنتشار جنود الجيش والشرطة العسكرية بالإضافة إلي المخابرات الحربية الذين يرتدون الملابس المدنية كل هذا أدى إلي أن تصبح المدينة آمنة ولا تحدث بها مشكلات أو سرقات أو قتل وخلافه، كان وجودي يعتبر كماله عدد، وكان الشرطة المدنية تقوم بمهامها كل هذا جعلني في حالة استرخاء للعمل ومن أجل هذا كنت شبه

متفرغ للعمل الخيري مع شمس تلك الفتاة التي تظهر مدى ما تتميز به بنات مصر من الخلق والقُدوة والشهامة وإنكار الذات وأصبح أمامي متسع من الوقت.

أحد الأيام أسرعت متجهاً لطريق القناة التي تسير عليه لواري الجيش وأخذت أنتقل من لوري إلي آخر حتي وصلت لمنطقة جزيرة البلاح؛ كنت في شوق للقاء الملازم اول أسامة؛ كانت همزة الوصل بيني وبينه أحد جنوده من أبناء السويس الذي التقيت به إحدى المرات وتعرف عليّ وأندمجنا معاً في حديث الذكريات خلال فترة القنطرة غرب والاشتباكات الدامية مع الإسرائيليين.

هناك في جزيرة البلاح سألت عن رقم الوحدة والضابط أسامة الذي علمت أنه أصبح برتبة نقيب منذ عام ونصف وأنه يتولى قيادة وحدة أكبر من الأولى عبارة عن سرية مشاة ميكانيكي سريعة الحركة كثيفة النيران، عبرت القناة بالقرب لداخل جزيرة البلاح فشاهدت بعض الجنود يلعبون الكرة الطائرة ويفصل بين الفريقين شبكة الطائرة ومن بين ما يلعب الكرة شاهدت النقيب أسامة رغم أنه يرتدي شورتاً وفانلة رياضية مثل الجنود، حينما شاهدني ترك جنوده وأقبل يرحب بي، طلب من جندي المراسلة القريب منه أن يقدم لي التحية الواجبة أخبرني بأنه سوف يتجه لمكان إعاشته لاستبدال ملابسه بأخرى.

جلست أسفل شمسية من شماسي البلاح وأمامي مياه قناة السويس ذات اللون الأزرق والهدوء يسبغ بساطه علي المكان باستثناء أصوات جنود الجيش الذين يلعبون ويمرحون، عادت بي الذاكرة لسته أعوام مضت بالتمام والكمال

لقد كان اليوم الموافق العاشر من شهر يونيو عام ١٩٧٣ ستة أعوام يا جبر وأنت تدور في تلك المنطقة والانفجارات طالت كل الأماكن وسالت الدماء وتطايرت الأشلاء بسبب الإسرائيليين القتل الذي أرسل بهم الشيطان إلينا كي نقامي الألم والتدمير وويلات الحروب القاسية.

ما أشبه اليوم بالبارحة، العدو أمامنا مباشرة ولكن مع اختلاف الأمر حيث إنه صاغر لوقف إطلاق النار خشية تكبده خسائر كبيرة لا يستطيع تحملها مثلما حدث خلال حرب الاستنزاف، فما شاهدته وعاصرته بموقع القنطرة غرب لهو أبلغ دليل علي أن هذا العدو جبان لا يخشي إلا القوي ولكنه يستأسد علي الضعيف، لقد أصبح ساكناً لا يأتي بأي حركة أو استفزاز، قارنت سلوكه هذا بما حدث لرجال البترول غداة الهجوم عليهم في يوم الخامس من شهر يونيو بل أيضاً قيامه بقصف العوامة البدائية التي قمت علي تجميعها رغم أنها لا تقل محاربين بل رجلاً عجوزاً وسيدة وطفلاً رضيعاً ورغم هذا تحملنا القصف والرشاشات الثقيلة لكن الله أنقذنا من بين أيديهم النجسة الملوثة بدماء الأبرياء من الفلسطينيين أصحاب الأرض ومن المصريين والعرب الذين شاركوا في حرب ١٩٤٨.

عاد النقيب أسامة وشاهدته ونظرت إليه واستمعت لحديثه، كنت في غاية السعادة، كان الفارق واضحاً منذ آخر مرة شاهدته خلالها وهو مريض ينام علي قارعة الطريق دون أن يقوم أحد علي علاجه ورعايته وكنت أريد وقتها بداخلي:

. ليه مكافأة المنتصر سواء في الحرب أو من يحسن أداء عمله أو من الشرفاء

تصبح المكافأة بالمالب أي بالإهمال وتوقيع الجزاء، كنت أدعو الله بالألا يستمر هذا الحال وأنا أنظر إلي قيافة ووسامة النقيب أسامة وإلي نشاطه وحيويته وحبه لجنوده وحب الجنود له، لقد اختلط بجنوده؛ فقد أصبح القدوة لهم، كنت سعيداً بتلك الأخلاق التي أمرنا بها الإسلام والتي كنت أسمع رجال الدين والواعظ الذي عينته العشون المعنوية للقوات المسلحة يلقي خطبة الجمعة بين المصلين من المدنيين والعسكريين موضحاً ما كان يقوم به الرسول صلي الله عليه وسلم والصحابة الأجلء مع المقاتلين من حب ورعاية أسرهم بل وتقسيم جزء من مغانم الحرب عليهم، كنت كثير التردد علي مسجد الهداية الإسلامية بالمدينة، بل كنت أتمني أن أشاهد هذه الأخلاق في التعاملات التي تحدث بين الناس بالوطن.

دار حديث شيق بيني وبين النقيب أسامة وأثناء هذا وصلته إشارة تليفونية تخبره بنجاحه في امتحان الترقى إلي رتبة الرائد وتصديق وزير الحربية علي ترقية وآخرين لرتبة الرائد اعتباراً من الأول من شهر يوليو القادم، شاهدت الفرح والبسمة علي هذا الوجه الطيب ولا أعلم كيف قارنت صفاء وجهه بما كنت أشاهده علي الطفل شادي أثناء رحلة العودة حين ينام فاراداً ذراعيه لأعلي أثناء نومه، كان النقيب أسامة يتمتع بصفاء نفسي عال القيمة فقد أسرع الخطي إلي رقيب أول المرية وطلب منه إرسال جنديين لكنتين الوحدة وشراء بعض الحلوى والمتلجات احتفالاً بهذا الخبر والذي شاهدت أثره علي بعض الجنود الذين أقبلوا لتقديم التهئة له، بل أن البعض كان يقبله ويحتضنه مثلما يحدث بين المدنيين وهذا مخالف في العرف العسكري.

أمضيت ليلة طيبة معه ومع جنوده الذين أعدوا له احتفالاً ساهراً

بتلك المناسبة كما وزعت الحلوى وقام البعض يقدم أغنيات شعبية شائعة الصيت والبعض من أبناء مدن القناة قدم بعض أغانٍ للمسميية والعزف علي آلتها والبعض القي النكات، ظل هذا الحفل حتي انتصف الليل، بعدها نهض شاكرأ جنوده منبهاً الجميع بالعودة لإتجاز أعمالنا كي نظل في حالة من الاستمرار لحالة الاستعداد كي نواجه العدو الشرس الذي أمامنا، صافح الجميع وعلمت أن الباشجاويش رفعت أعد مكان نوم مريح لشخصي، ظللت مع قوة رئاسة السرية من ضباط الصف الذين أسهبوا بالمديح في قائدهم بينما أسهبت أنا بما شاهدته أثناء قتاله بالقنطرة أثناء خدمته بالوحدة السابقة التي كان يعمل بها قبل أن ينتقل إلي الوحدة الحالية.

اليوم التالي بعد تناول طعام الإفطار كنت أستعد لمغادرة جزيرة البلاح فتوجهت لوداع النقيب أسامة ولم أتفوه بكلمة الرائد أسامة فقد سمعت تحذيره لجنوده بأنه لن يقبل مناداته بتلك الرتبة المؤكدة إلا في موعدها المحدد ومازلت بربتبي الحالية، رافقتي أحد جنوده فشاهدته يجلس علي الشاطئ الصخري للقناة بمنطقة لسان الجزيرة الشمالي كثيرة الدوامات والأمواج مواجهاً النقطة القوية للعدو الإسرائيلي، كان يرتدى حذاء كاوتش من نوعية الأحذية الرياضية ويضع نظارة شمس علي عينيه، نهض لمصافحتي وأشار إلي بالجلوس بجواره.

كان المنظر رهيباً، العدو أمامنا لا يفصلنا عنه سوى مائتي متر وبعض جنوده يقفون أمامنا والنقيب أسامة جالس بهدوء ينظر للمستقبل وكأنه يطالع الغيب، فقد علمت بعد حرب أكتوبر بأنه وجنوده الشجعان هاجموا قوات العدو المدرعة بتلك المنطقة والمنطقة الخلفية مما ساعد الفرقة الثامنة عشرة علي تحرير مدينة القنطرة شرق، المسكون هو صبغة المكان لا نسمع سوى

أصوات الأمواج التي ترتطم بالحاجز الصخري لمنطقة لسان الجزيرة الشمالي بل كنا نشاهد أسراب الأسماك المختلفة فالقناة مكتظة بالأسماك من كل الأنواع فلا صيد بها منذ ستة أعوام، نهضت مودعاً هذا الضابط الهادئ الوديع من نفسه وعلمت أنه والباشاجاويش قد أعدوا لي هدية رمزية شكرتهم عليها وأمدوني بأحد الجنود ليعبر بي للشاطئ الغربي للقناة ويسهل لي ركوب المواصلا بطريق عودتي لمدينة السويس.

هكذا عدت لموقعي بالمدينة نهاية اليوم الثاني لمغادرتها، ذكريات تلك الرحلة لم تفارق خيالي نظراً لأن آخر لقاء بالضابط أسامة لم أشعر بسعادة لسلوك قائد الوحدة السابقة معه وإهماله علاجه الذي هو حق لكل جميع أفراد القوات المسلحة، أما في هذا اللقاء فقد شاهدته علي أحسن ما يكون، حيوية ونشاط ويتولي قيادة وحدة عسكرية كبيرة ثم المفاجأة الأهم علمي بأنه سوف يرقى للرتبة الأعلى بداية الشهر القادم، كل هذا أسعدني ومن أجل هذا كنت في حالة من السعادة فأسرعت بالصعود للاطمئنان علي شمس التي سمعت نقات يدي علي الباب فقامت بفتحها والمساعدة هو حالها، تفاعلت عما أسعدني وجعلني في تلك الحالة الطيبة، جلست معها وكان المعلم منصور مازال بالمنزل وأخبرتنيما بقصة الضابط أسامة وجنوده الشجعان بمدينة القنطرة ظللت أقص عليهما تلك القصة حتي الوداع علي شاطئ القناة أمام اللسان الشمالي لجزيرة البلاح.

لم تسعهم الفرحة ولا البسمة بل تجاهلوا التعليق علي سوء معاملة قائد وحدته السابق؛ علقت شمس علي هذا بأننا نبغي أن نظل رافعين الشعلة المضئنة مهما حاولت عواصف الكره والتحدى ومقت النجاح من أن تطفئ

تلك الشعلة ، لا يجب أن يثينا أحد عن مهمتنا الأساسية، مقاومة العدو وتحرير الأرض وتكاتف المصريين بعضهم مع البعض، كانت الفتاة تتحدث بطلاقة وكدت أشك أنها تعرف وتصادق الدكتورة مادلين، فلك هي مشاعرها وأحاسيسها وما قامت به من مهام في منطقة " مرسي حميرة " بلدة الشيخ عرفان وما تلي هذا من نهضة صحية وتعليمية واجتماعية سوف تترك الأثر الإيجابي لعدة عقود قادمة، سوف يقلل هذا من اللأم التي تسببها الكثير من الأمراض بل سوف تتخفف حالات الوفاة الناتجة من السلوكيات الخاطئة في المعيشة.

مضت بنا الأيام علي تلك الوتيرة، أقوم بعملي الهادئ والذي ليس به أى مفاجآت، أيضا أقدم يد المساعدة للفتاة شمس سواء بإحضار ما تريده من الخضراوات والأطعمة الطازجة من سوق الخضار أو من البقال ثم أنقل تلك الاحتياجات بما فيها الملابس التي تم غسلها وتطهيرها والسير برفقتها للمساعدة والحماية، مضي علي هذا العمل الخيري شهر عدة لاحظت تغيراً وتقدماً واضحاً للأحسن علي بعض الأسر الفقيرة أو ذات الاحتياجات الخاصة سواء من النظافة أو لمعان البشرة بل الابتسامة وبخاصة من أب وأم صديقتها الشابة ناريمان التي قتلها الإسرائيليون قبل التهجير.

لم يطرأ جديد علي حياتي المهنية أو العائلية طوال العامين والنصف المنصرمين؛ حيث أقوم علي زيارة عائلتي لمدة عشرة أيام كل شهرين وخلال تلك الإجازة كنت أشعر بأن فترة الإجازة طالبت نظراً لرغبتني بالعودة لمساندة شمس وما تقوم به، كان يعتريني شعور رطب طيب بأنني أساير رجال الجيش

والذى شاهدت بطولتهم ومعاركهم بمدينة القنطرة غرب خلال حرب الاستنزاف.

أحد الأيام أرسل في طلبى الصول عبدالقادر الذى يعمل بمكتب أفراد  
حكمدار أمن السويس، أسرعت لتلبية أمره وأنا متخوف بأن يرسل بي لمنطقة  
بعيدة وأحرم مما أشعر به من متعة كل مساء بعد الانتهاء من تقديم الخدمات  
والمعاونة للمحتاجين مع شمس والذى وصل عدد العائلات التى تتلقى عونها  
إلى تسع عائلات يقدر عدد أفرادها بخمسة وثلاثين فرداً، علي باب مكتب  
حضرة الصول استقبلني بحفاوة، مازال جالساً نظراً لنقل وزنه وأشار إلي كرسي  
متهالك أمام المكتب بأن أجلس فوقه ففعلت هذا، تحدث في عدة موضوعات  
واطمئن علي حالي عارضاً علي الرغبة لو كنت في حاجة لقضاء العامين  
المتبقين لي حتى من الإحالة إلي المعاش بالعمل بمديرية أمن أسبوط كي  
أصبح قريباً من عائلتي، شكرته علي هذا وأخبرته بأنني أرغب بالبقاء بتلك  
المدينة، ابتسم لي ثم قال:

- تعمل حسابك من بكره أنك حتستلم عشرين مسجون جايين يساعدوا في  
تنظيف كام حتة أرض زراعية والحكومة عايزة تعلمها لأصحابها الفلاحين  
اللي جايين معاهم عشان يزرعوها، أظن أنك عرفت أن ترعة الميه الحلوه اللي  
جايه من الإسماعيلية فيه مقال جايب عمال تراحيل بيظهروها بقالهم شهر .

- فعلا أنا عارف الحكاية دية، لكن مش ممكن تأجيل حكاية المساجين دوول  
لحد ما شهر رمضان ينتهي ويعدى، أنت عارف يا ح الصول أن الشغل في  
رمضان بيبقى صعب ولمسه الجو حار، دا إحنا يدوب في أول شهر أكتوبر

ومعداش من رمضان غير ثلاث تيام.

- شوف يا جبر، الأوامر أوامر ودوول مساجين غالبا ومعاهم ثوية فلاحين زيهم طبيين، ومنتاش وحدك اللي ح تعمل كده، دا الحكاية جايه من جنوب الإسماعيلية لحد السويس يعني حتعدى علي جبل مريم وسرابيوم والدفرسوار وفايد وقمة فايد وكبريت وكسفرية والشط والشلوفه والجنابين؛ كل منطجه فيها راجل جدع زيك ومعاه ثوية مساجين وثوية فلاحين ح يفضلوا يشتغلوا أسبوعين لحد ما الأرض تتضف من الحشيشة عثمان تتزرع بدل ما هي بور من ست سنين، فاهم يا جبر، حيكونوا عندك الصبح ومعاك نفرين من عساكر الدرجة الثالثة هما صحيح حمير ومبيفهموش حاجه لكنهم ح يمساعوك، ياللا وريني عرض كتفاك ومن الصبح تكون في الشلوفه علي أول المدج اللي واصل للطريح الرئيسي الإسماعيلية السويس إلي الشلوفه.

. حاضر يا ح الصول عبدالجادر

هكذا غادرت مكتب أفراد مديرية أمن السويس وأنا مكلف بعمل آخر وسوف يبعثني هذا عن مساعدة شمس لكن هؤلاء الفلاحين مساكين والحرب قطعت مصدر رزقهم، هذا العمل يعتبر مساعدة للفقراء أيضا ومن أجل هذا سوف أخبر شمس بأنني سوف أختفي عنها لمدة أسبوعين ثم أعود لتواصل عملنا.



## أبواب جهنم علي الجانبين

بعد تناول طعام المسحور غادرت موقعي المختار بحي الأربعين أحمل بعضاً من ملابسني القليلة ووقفت علي الطريق، بعد قليل شاهدت بعض لوارى تتحرك بعد الفجر بنصف ساعة ولا تضيء الأنوار المبهرة، اعتقدت أنها لوارى الشؤون الإدارية الخاصة بالوحدات العسكرية كالعادة، ترددت هل أشير لأحد اللوارى بالتوقف أم أنتظر بعض الوقت، أثناء ترددي شاهدت أحد اللوارى يتوقف وسمعت من داخل كبينة اللورى أحد الأشخاص يطلب مني في صورة امرأة:

. اطلع فوق ضهر اللورى يا جبر

. بس يا ساعة البيه

. مش عايز غلبه، اسكت وأنا عارف أنت رايح فين

- حاضر يا بيه اللي تجول عليه ح أنفذه، نظرت من حولي فشاهدت ظهر اللورى محملاً بأكثر من عشرين مسجوناً وبأيديهم الكلبشات ومعهم جنديان درجة ثالثة من اللي الصول عبد القادر يؤكد لي بأنهم لا يفهمون أي شيء نظراً لأن ذكاءهم محدود، بعد مسيرة نصف ساعة توقف اللورى وصاح الضابط صلاح الذي سبق وأن أهانني قبل هذا بالاعتداء علي بالضرب مما دفع برجال الجيش للاعتداء عليه:

- جبر .. نزل جميع المساجين وفك الكلبشات من أيدهم وتحذير لكل

واحد ممنوع نزول ميه القناه والمباحه فيه، العدو قدامنا علي طول ما فيش بنا  
وبينه غير ثلثميه متر، فاهمين؟

. جموع المساجين " فاهمين يا مساعدة الباشا .. إحنا خدامين الحكومه والبوليس  
و.... " هكذا تحرك معي عشرون مسجوناً وجنديان بوليس وكل واحد من  
المساجين يحمل فأس وآخرون يحملون المقاطف الكاوتش " الغلأ " قمت بفك  
وثاق المساجين وجمعت الكلبشات جانباً وأردت بدخلي أن النقيب صلاح مش  
عايز يتغير، يعني وجف في الحته دية وأمرنا نشغل ونفك كلبشات المساجين  
والواد الإسرائيلي واجف الناحية الثانيه بيبص علينا بالنضاره المعظمه وجانبه  
زمايله بيضحكوا علينا وهما بيشاوروا علي المساجين.

كان برفقة العشرين مسجوناً ثلاثة فلاحين بزيمه المخالف وبالطبع لم يكن  
بأيديهم أساور حديدية، طلب الفلاحين من الرجال أن يقوموا علي نظافة  
وتطهير الأرض من الحشائش والنباتات الضارة، بدأ العمل تحت إشراف  
الفلاحين الذين كانوا يقومون بمساعدة المساجين بينما الجنديان يحملان  
البنادق الآلية سريعة الطلقات مستعدان لتنفيذ أمر الضابط صلاح بإطلاق  
النار علي أي مسجون ابن كذا... إذا حاول الهرب، أصبح أمامي خمسة  
وعشرون فرداً من بينهم عشرون مسجوناً وثلاثة فلاحين وجنديان درجة ثالثه.

مازال الإسرائيليون يراقبوننا ويضحكون علي ما نقوم به وما يحدث من  
نقاش حاد بين المساجين أثناء العمل، ترك الإسرائيليون المراقبة وانتمغلوا في  
أعمالهم، لا حظت أنه يوجد بين المساجين من يسيطر عليهم بل ويستمعون  
لحديثه وأوامره دون اعتراض حتي جنود الحراسة وعلمت أن اسم هذا المسجون

رضيا وهو من عتاة المجرمين، كل هذا علمته من جنود الحراسة ولاحظت أن هؤلاء الجنود يحترمون هذا المسجون مما ضايقتني، إلتزمت الصمت مردداً " اللهم إني صائم " كان المساجين والفلاحون يعملون بهمة بينما الجنديان مهمتهما الحراسة، لاحظت أنهما لا يعيرانني أى اهتمام مما ضايقتني بأن عساكر درجة ثالثه لا تقدم الاحترام الواجب للشاويش جبر الذي سينال الترقية أول السنة القادمة بإذن الله وأصبح الباش جاويش جبر، أردد:

.كلتها كام شهر واتحال علي المعاش وارجع البلد وأستريح من اللف في بلاد الدنيا، كفايه عليك كده يا جبر وسبيك من الحنبلة في الشغل وخلي المساجين والحرس ما شيين مع الواد المسجون اللي اسمه رضا!!

أقبل أحد اللواري المدنية أى التى لا تتبع الجيش والذي يحمل لوحات معدنية ومشابه للورى الذى كان يحمل المساجين، كتب علي أجنابه "مديرية الزراعة بالسويس" ترك هذا اللورى خيمة بالخلف بها بعض الأغراض وطلب عدداً من المساجين لتفريغ ما بها، رغبت بالتوجه معهم للإشراف علي تفريغ الحمولة فرفض المسجون رضا مما دفعني لرفع يدي لأصفعه علي تمرده علي شخصي في تلك اللحظة أمسك رضا بمساعدى وشعرت أنه سوف يكسر المساعد كما حضر جنديا الحرس يتحدثان معي بكلمات قليلة " :

. عم جبر .. خليك في حالك وسبينا نشوف شغلنا .. أحننا عارفين بنعمل إيه .. كل اللي تعمله أنك تقف معنا مدة الأسبوعين الجايين واطمن المساجين مش ح يهربوا " .

وقفت بعيداً عنهم وأنا في دهشة، كل المطلوب منك يا عم جبر تقف بس  
ومش تعمل حاجة .. يعني إيه؟ أف ميس وخيال مآتة مليش صفة ولا أهميه  
.. الله يخرب بيتك يا ح الصول عبد الجوى، كده تعملها فيا وتخلي إشوية  
إصغار من دور إعيالي يتحكموا فيا وهما اللي بيدوني الأوامر، أنا جبر اللي  
ح ترجي بعد ثلاث تشهر إلا كام يوم ده يبجي حالي من شوية مساجين  
وعيلين درجة تالته الحمار أحسن منهم، ياه علي الظلم أردد" اللهم إنني صائم".

قررت الاتزواء، فالجميع أصبحوا عصابة واحدة وسوف يهريون والنقيب  
صلاح ح يدخل السجن، بعد قليل أقبل النقيب صلاح وشاهدني جالماً بعيداً  
فصرخ بي طالباً حضوري، أسرعت إليه مؤدياً التحية العسكرية وتعامل عن  
السبب في ابتعادى عن هؤلاء الأوياش ويشير جهة المساجين، أخبرته بأنهم  
متمردون وأن المسجون رضا زعيمهم، صاح به طالباً حضوره فلم يكثرث به  
المسجون كما صاح بالجنديين طالبا القبض علي رضا وإحضاره فلم يكثرث  
الجنديان مما دفع الضابط صلاح لإخبارهما بأنهما سوف يحيلهم للتحقيق  
وأسرع تاركا المكان.

هكذا انتهى اليوم الأول وشاهدت الأرض وقد بدا عليها العناية والنظافة  
كان المساجين يحضرون لي الطعام وهو طعام مخالف لطعام المساجين لأنه  
الطعام المخصص لرجال الجيش، تأكد لى من نوعية الطعام بأنهم سطوا علي  
مخازن تعيينات الضابط يواقيم تادرس الذى قابلته بمدينة القنطرة، كنت أعد  
الأيام كي تنتهي تلك المهمة، كان الجميع ينام خلف المنطقة التي بها الأشجار  
لم أعد أسمع أصوات الرجال فقد نبه عليهم المسجون رضا بعدم فتح فم أى  
أحد منهم إلا وقت تناول الطعام، ليلا أقبل المسجون رضا وطلب مني

ألا أغضب منه أو من باقي الرجال وأخبرني بأنهم تلقوا وعداً بأنهم إذا قاموا بعملهم خير قيام دون هروب أحد منهم فسوف يدفع هذا المسئولين للإفراج عنهم قبل مضي نصف المدة، طلب مني ألا أهتم وألا أخشى هروب أحد المساجين، بعد انصرافه شعرت بأنه توجد الكثير من المهمات والأدوات خلف الأشجار وأن أحد المساجين يقف قريباً منها وحينما حاولت التوجه لمشاهدتها طلب مني بهدوء بالألا أفعل هذا وما عليّ سوى الابتعاد.

جاء اليوم التالي فشاهدت المساجين يقفون طابوراً وطلب مني أحد الجنود أن أحضر لأقوم بتدويرهم طابور لمكان العمل، أثناء الطريق الذي لم يتعد خمسين متراً من خلف الأشجار شاهدت جميع المساجين مكبلين بالكبشات ولم أفعل هذا فتأكد لي أن الحرس يتقهم عمله، وصل المساجين لشاطئ القناة ومعهم الفلاحين الثلاثة، جاءني أحد الحراس وطلب مني أن أفك قيود المساجين، قمت بهذا العمل وأنا أشاهد الأوغاد الإسرائيليين يقومون بالتصوير توزع الرجال للعمل، البعض قام بجمع العشب من المنطقة ثم قاموا بإشعال النار به، كان واضحاً إهتمام الجميع بعملهم، الساعة الحادية عشرة والنصف طلب مني زعيمهم رضا أن يتوقف الرجال نظراً لأنهم يرغبون بأداء صلاة الجمعة، وافقت علي هذا وتوجهوا للترعة وتوضاً الجميع ومازال الإسرائيليون يراقبون ويصورون ويتضاحكون، قام المساجين بفرش بعض البطاطين علي الأرض وقام بعمل الإمام أحد المساجين الذي كان ضليعا في تلاوة القرآن وإلقاء خطبة الجمعة وتأكد لي أن هذا المسجون يتبع الإخوان المسلمين فأنا أعلم أنهم يجيدون التلاوة وإلقاء الخطب والعظات.

شاهدت اثنين من المساجين يجلسان قريبا من مكان الصلاة ولم

يقوما بأداءها، بعد انتهاء الصلاة تساءلت لماذا لم تقوما بالصلاة مع الزملاء؟  
أجاب أحدهم بهدوء وبكلمات قليلة:

. عم جبر إحنا أقباط، أنا نجيب وزميلي حنا

شكرتهما وعدت أجلس بعيداً أراقب المساجين، كنت أشعر بداخلي أن هؤلاء  
المساجين من نوعية مخالفة لما أطمه عن المساجين، كان واضحاً تمتعهم  
بالنظافة الشخصية بل وطريقة التحدث رغم قلتها بل ندرتها وحين الحديث بين  
اثنين أو أكثر أشاهد نظرة من المسجون رضا يتوقف بعدها الجميع عن  
الحديث ويهتم بالعمل، نهضت وتوجهت لهم وحدثت المسجون رضا بأن هذا  
يوم جمعة لكنه يوم عمل، أرجو ألا يغضبك هذا أنت وزملاؤك، نظر إليّ  
باسماً وواصل العمل.

اليوم الثالث السبت، بدا مثل كل يوم، قرابة الثانية عشرة والنصف ظهرأ  
شاهدت المساجين يتمثلون للخلف، أسرعرت كي أعلم ما يقومون به؛ كانت  
المفاجأة، لقد أعد المساجين طريقاً للهرب حيث شاهدتهم ينفخون قوارب من  
المطاط، حاولت التحذير والاستعانة بالجنديين لكنني شاهدت نفسي مقبوضاً  
عليّ ومكتم الفم، حدثت نفسي:

. عملها المساجين وولد الإيه، ح تروح في داهيه يا جبر، مصيرك السجن وما  
فيش معاش، ضاع كل حاجه عملتها، توقفت عند هذا وتذكرت قول الله  
سبحانه وتعالى بكتابه الكريم: إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً أردد ..  
الحمد لله .. تتبعت بأن المساجين تخلوا عن لبس السجن بما فيهم الحرس

ويرتدون ملابس رجال الصاعقة المنقطة والمبقعة والمموه، أردد بداخلي  
"يا ولاد المجرمين، كمان بتتخفوا في لبس الجيش، آه لو معي المنفع  
الإسرائيلي كنت فتلنكم كلكم"؛ أشاهد أحدهم قادماً ناحيتي ويضع علي كتفيه  
رتبة رائد وتبينته، إنه المسجون رضا، هبط أرضاً ونزع الكمامة من علي وجهي  
ونظر إليّ متحدثاً:

. عم جبر .. مش تزعل مننا، إحنا مكلفين بمهمة سرية، عشان كده كنا بنمنعك  
أنك تعرف إحنا بنعمل إيه، عم جبر، باقي عشر دقائق والحرب تقوم، سامع  
عشر دقائق، عايزك تقوم وتمشي في المنطقة وكأن المساجين واخدين راحه  
وينتغدى، ح أفك الكلبشات بتاعتك واوعي تكرر كلمة من اللي قلت لك عليها  
عم جبر ادعي لنا.

. هبطت دموعي وأنا أكرر الدعاء وأقول ربنا معاك يا سيادة الرائد رضا قبلني  
وهدهد علي ظهري وأسرع لرجاله بين الأشجار بينما تحركت إلي منطقة العمل  
وأنا أتوعد المساجين بألا يتأخروا، مازل الإسرائيليون يراقبون وهم سعداء بما  
يشاهدون، أقف بالمنطقة بمفردي، في لحظة سمعت وشاهدت ما سيق وأن  
شاهدته بالقطرة منذ ثلاثة أعوام، طائرات وانفجارات ولكن كل تلك الانفجارت  
كانت بالشرق، مما أخافني فسقطت أرضاً وتبتهت إلي من يتحركون من حولي  
لقد كان رجال الصاعقة الخمسة وعشرون منهم " عشرون مسجوناً واثنان  
حرس وثلاثة فلاحين " الجميع يرتدون زيهم المميز ويحملون القوارب والأسلحة  
والمفجرات؛ هبطوا إلي مياه القناة بينما انحني عليّ الرائد رضا يربت علي  
كتفي طالبا مني الاختباء كي لا أصاب.

أردد : ياسيادة الرائد لا تخشي علي شخصي من الإصابة، ماذا سوف تفعل أنت ورجالك الأذاد؟ لم أنفذ وصيته وأسرعت بالتوجه للقناة، شاهدته مع رجاله بوسط القناة يقاومون الأمواج الفجائية المندفعة، كانت القوارب تقوم بالدوران حول نفسها والبعض يصطدم بقوة بالجدار الحجري للضفة الشرقية للقناة، لم يستطع الرجال الوصول للنقطة القوية إلا بعد مجهودٍ مضني كان العدو خلالها قد أفاق من مفاجأة قصف الطائرات المصرية لمواقعه بعد أن توقف القصف، استطاع بعض الرجال الصعود للنقطة وتعلقها والقتال مع العدو، لم أكن أستطيع التمييز بين المصريين والإسرائيليين لكن ما شاهدته نيران مدفعية قوية سقطت بمياه القناة كانت القنابل تنفجر بالمياه، أشاهد القوارب ترتفع لأعلي ممزقة والأشلاء تتناثر في الهواء والدماء تنتشر بأعلي مع صرخات الموت التي طالت رجال الصاعقة، أصبحت القناة ممتلئة بأشلاء الرجال المتناثرة علي سطح المياه الهائجة الهادرة سواء من الأمواج أو انفجارات دانات مدفعية العدو الثقيلة، استمر هذا الحال عشر دقائق حتي تدخلت المدفعية المصرية في القتال بعد أن اصطبغت مياه القناة باللون الأحمر، كنت أشاهد بعض الجنث طافية بزى رجال الصاعقة الأبطال.

لم أتمكن من الصمود والسكون، ففرت للمياه وقمت بالعباحة حتي أماكن الأشلاء الطافية للشهداء، كنت أبغي الشهادة أو إنقاذ من أستطيع إنقاذه، وأنا بداخل المياه كنت أسمع وأشاهد الانفجارات بالنقطة القوية للعدو والتي يطلقون عليها خط بارليف، التقيت بأول شهيد، أمسكت به لكني سمعت صوتاً قريباً مني ينادي عليّ باسمي:

- عم جبر ، ياريت تساعدني أوصل للبر، مش عايز أموت بالقناة

حطني علي الساتر الشرقي للقناة عشان لما أقابل ربنا يعرف أنني كنت باحارب اليهود وأندفن في الشرق بعد اليهود ما يغوروا، أمسكت به وجذبتة في اتجاه الشاطئ الغربي، تنبه وصرخ وأنا مصمم علي هذا وأقبلت وحدة إسعاف استطعت بصعوبة تسليمه لهم وحملوه فشاهدته وقد فقد إحدى ساقيه؛ عدت ثانية وبنفس الطريقة استطعت إنقاذ اثنين ونقلهما إلي الشاطئ بعد هذا قمت بحمل الشهداء واحدا يلي الآخر، كنت أقوم بعملي ودموعي تنافس مياه القناة شعرت بأن عيني أصبحتا بلون مياه القناة؛ كنت أسبح في بحيرة من الدماء لقد قتل بداخل القناة عشرة وأصيب ثلاثة أما باقي الرجال وعددهم اثنا عشر فقد استولوا علي النقطة القوية، لم يتبق منهم علي قيد الحياة سوى الشاويش حسن وثلاثة جنود ونال الشهادة الجميع بما فيهم الرائد رضا.

بعد ساعتين من القتال كنت خلالها قد انتهيت من حمل أملاء الشهداء لخارج القناة، قمت بتسليم أجسادهم الطاهرة لجنود من وحدة دفن الموتى التي تتبع القوات المقاتلة بالخلف كي تقوم بجمع أجساد الشهداء أولا بأول من أرض المعركة، بعد هذا قمت بالمساعدة في نقل الجرحي من مياه القناة وتسلمتهم علي الفور وحدات الإسعاف التابعة للفرقة المقاتلة، جلست ألتقط أنفاسي ورائحة الدماء الزكية بكل مكان، فجأة شاهدت الأربعة المتبقين من رجال الصاعقة والذين دمروا النقطة القوية يقومون بإلقاء جثث الجنود الإسرائيليين بالقناة، في البداية كنت أعتقد أنهم جنودنا وأصابني هذا بضيق.

أسرعت بالقفز لمياه القناة حتي وصلت لتلك الجثث فتنبهت بأنهم مخالفون في الزى والهيئة عن جنودنا، سمعت أحد رجال الصاعقة يطلب مني تركهم في مياه القناة كي ننقم لما حدث لزملائنا الشهداء، بينما طلب آخر

العون لنقل الشهداء، علمت أن عددهم ثمانية شهداء بما فيهم قائدهم الرائد رضا، سعدت في اتجاه النقطة القوية ورغم حزني علي الشهداء إلا أن مسعدي كنت لا توصف فقد طالت قدمي أرض سيناء، شاهدت أرض المعركة، شاهدت الرجال الثمانية الذين لاقوا الشهادة، كانت إصاباتهم من الأمام أي ثناء المواجهة، شاهدت الرائد رضا وقد تمزق صدره من نيران الرشاش الإسرائيلي ووضع يده اليمني علي قلبه وجلس أرضاً مستنداً علي صخور النقطة القوية، كان ينظر لأعلي كأنه يطلب من الله أن ينال جنة الخلود، كان باقي المعاتلين الشهداء بأوضاع مختلفة وقد لا قوا مصرعهم وحصل كل واحد منهم علي مقنونات كثيرة من النوع الخارق الحارق.

هبطنا بالرجال الثمانية واحداً تلو الآخر ووضعناهم بأحد قوارب العبور المضاطة السلمية ' عبرت بهم تاركاً رجال الصاعقة الأربعة لتأمين النقطة حتي لا يتسلل إليها الأعداء ، أثناء هذا وصلت إليهم التعليمات بتعليم النقطة فقد حضر رجال المهندسون العسكريون يحملون عبوات التفجير الضخمة وأثناء دفعي لقارب الشهداء كان رجال المهندسون متجهون لنسف النقطة وسمعت من يردد اسمي

.. عم جبر .. والله أنت أجدع رجل في مصر، نظرت للمتحدث بدهشة وتساءلت:

- مين؟ الباش مهندز شوجي .. ألف مبروك النصر لكم كلكم، شاهدت المهندس عمرو الذي أنقذني من اعتداء ضابط الشرطة النقيب صلاح الذي أشاد بما أقوم به، وصلت للضفة الغربية للقناة، مازلت وحدة دفن الموتى في

موقعها وقد حملوا الشهداء واحداً بعد الآخر وكل واحد منهم كان يدقق في شخصية الشهيد ثم يكتب اسمه علي الكيس الذي يوضع به جثمانه الطاهر ويسجل بدفتر معه باضافة إلى الإسم المكان والوحدة التابع لها وأى أحد من المتواجدين الأحياء الذي تعرف علي الشهيد، كتب اسمي أمام الرجال الواحد والعشرين شهيداً.

جلمت ألقط أنفاسي وقد تقطعت البدلة الميري السوداء، شعرت بأن البيريه يكاد يسقط من فوق رأسي، بعد قليل شاهدت وسمعت إنفجاراً ضخماً هز المنطقة، لقد قام شوقي وعمر و زملاؤهم من رجال المهندسين بنسف وتدمير النقطة القوية التي لم يتبق بها أحد؛ حيث قتل جميع الجنود والقادة الإسرائيليون بها علي يد رجال الصاعقة الشجعان وبهذا لم يتم أسر أحد، لقد كان القتال وجهاً لوجه، في تلك اللحظة حضرت فصيلة من الشرطة العسكرية وأخلت القناة من جثث قتلي العدو، تم رفعهم والتوجه بهم لدفنهم بمنطقة يعلمونها جيداً، بالمساء عادت مياه القناة لطبيعتها تحكي وتقص بأن بهذا المكان كان يقاتل به رجالا شجعان وهبوا حياتهم لمصر والنتيجة تحرير تلك المنطقة من العدو وقتل أفراده والاستيلاء علي سلاحه ونسف المكان، أردت:

. النصر ثمنه فادح.

طلبت من رجال الشرطة العسكرية نقلني إلي مدينة السويس نظراً لأن عملي قد انتهى والذي حضرت من أجله فأخبرني أحدهم بأنه سوف يتصل بقائده بخصوص هذا، حضر النقيب حسن من الشرطة العسكرية ومعه شاب رصين هادي الطباع يرتدى الملابس المدنية؛ شد علي يدي مقدماً شكره

وتقديره لما قمت به في تنفيذ خطة خداع العدو بأن رجال الصاعقة الذين قاموا بهذا العمل المجيد هم من السجناء؛ لقد كانت أفعالك وتصرفاتك طبيعية مما أقنع العدو بهذا وقد أرسلوا لقيادته يخبروهم بأن بعض السجناء حضروا لتطهير المكان لزراعته ومعهم بعض جنود البوليس المصرى مما دفع العدو لأن يهمل الأخبار التي وصلته بأن مصر تستعد للقتال ويرددون: كيف تستعد مصر للقتال وفي نفس الوقت تستعد لزراعة الأرض، أعاد ثانية قوله:

. شكرا عم جبر وسوف أرسل بتقرير بهذا الأمر إلي مديرية أمن السويس.

ركبت السيارة مع رجل المخابرات وتركنا رجال الشرطة العسكرية لمهمة الإشراف على دفن القتلى الإسرائيليين، كنت أستمع لأصوات المعركة وأشعر بأني أستمع لأغنية عبدالحليم حافظ "صورة" حيث كنا جميعاً نقف تحت الراية المنصورة كي نرفعها وترفع مصر إلي مكائنها التي تمنى الأعداء بأن تهوى وتعقط، حمدت الله أنني شاركت بهذا الجزء اليسير وحينما عاد لفكرى لحظة وداع الرائد رضا قبل العبور الذى كان يهدد علي كنتفي طالباً مني الدعاء له ولرجاله وحينما نظرت في عينيه شاهدت دموعاً ترعب بأن تغادرها اندفعت في البكاء؛ فقد أخبرني الشاويش المصرى المرافق له بأن الرائد رضا علم منذ خمسة أيام بأن زوجته وضعت مولودها الأول وكان راغباً بمشاهدته حيث كان يردد:

- أنا شاعر وحامس أني مش ح أشوف ابني إلا وأنا في الجنه لكن مش ح أشوفه في الدنيا، كان الرائد رضا قريباً دائماً من الله، لقد كان يواظب علي الصلاة والقراءة بالمصحف الصغير الذى يحمله بجيب الأفرول، كان متأكداً

بأنه سوف ينال الشهادة في تلك الحرب، لم يكن يخشاها لكن أمنيته الوحيدة كانت مشاهدة طفله الرضيع وتقبيله.

عدت لمدينة السويس وعلمت أن الفتاة شمس قد انضمت للمستشفى الميداني القريب من مسجد الهداية تقوم علي تضميد جراح المقاتلين وتقديم يد العون الإداري من طعام وشراب للجرحي؛ شاهدتني أسرعتي إلي ترد:

. ألف حمد لله بالسلامة يا عم جبر، أنا سمعت أن منطقة الشلوفة القوارب فيها قابلت مشكلة، رينا يساعد الشباب هناك، أجبتهما والدموع بعيني فعلا رينا ساعدهم وخلصوا مهمتهم ونالوا لشهادة، تركت الفتاة تبكي بحزن وألم.

### عم حبر:

كان المشهد بمدينة السويس منذ يوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر والذي يعتبر اليوم السادس عشر للحرب مخالفاً عن الأيام الأولى، لقد هاجمنا شعور بأن العدو بدأ يكبد قواتنا خسائر في المعدات والأفراد وبدا هذا واضحاً من الجرحي والشهداء الذي تم نقلهم لداخل المدينة سواء للعلاج أو لنفهم بالمقابر الجماعية التي احتضنت رفات الكثير من الشهداء مع اتباع نفس الأسلوب السابق للأيام الأولى للحرب من كتابة اسم كل شهيد وموقعه ووجده ورقمه العسكري ورتبته إذا كان ضابطاً أو درجته إذا كان ضابطاً صف أو جندياً وأيضاً أسماء الشهداء الذين عاينوا عملية استشهاده واليوم والتاريخ ومكان الدفن ومن الذي قام بنفن هذا الشهيد مع التسجيل في دفتر الموتى المخصص لكل وحدة من الوحدات كثيرة العدد.

علمنا أن قوات العدو بدأت تتخذ طريقها إلى مدينة السويس، حدث هذا مساء يوم الثاني والعشرين من شهر أكتوبر، بمسجد الهداية الإسلامية خاطب الشيخ حافظ سلامة أبناء السويس ورجال الجيش والشرطة بالاستعداد لمقاومة قوات العدو، بدأت تتجمع قوات مشتركة من الجيش، تعتبر وحدات إدارية غير مكلفة بالحرب ورجال المقاومة من أبناء السويس وجنود الأمن المركزي بالمدينة.

في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر بدا للجميع هنا أن العدو ضغط بقوة علي قواتنا بالشرق مما استدعي أن ترسل القاهرة بالمزيد من القوات، ومن بينها قوات الأمن المركزي بكثافة كبيرة، أصبحت المدينة مدججة بالسلاح والقوات وقبل نهاية شهر أكتوبر بأسبوع وصلت إلينا معلومات بأن العدو عبر القناة إلى الغرب وهو في طريقه لمدينة السويس.

كنت أعتقد أن قوات العدو تقاوم مثل القوات المصرية أي إطلاق المدافع واستخدام الدبابات والأسلحة الصغيرة لكنني اكتشفت حينما اقتربت القوات المعادية من أطراف المدينة أنهم يستخدمون كميات كثيرة من الذخائر سواء من المدفعية أو الطائرات أو الدبابات، هذا ما حدث بحيث أصبحت القوات المدافعة عن المدينة غير قادرة علي الصمود وبدأت تتراجع للخلف وتقترب من المباني وكنت أشعر بأن العدو في أحسن أوقاته منذ قيام الحرب فقد تلقي في بدايتها ضربات مؤلمة وخسائر بشرية كبيرة لا يستطيع تحملها نظراً لضآلة عدد السكان بإسرائيل.

أطبق العدو علي المدينة من جميع الجهات، اخترقت الدبابات المعادية

الشوارع والأحياء وقذفت بنيرانها كل شيء سواء مدني أو عسكري وبدأ لهم الغلبة لكن رجال المخابرات الحربية وقيادة الجيش الثالث قاموا بعملية أكثر من رائعة في تنظيم صفوف المقاتلين وجمع أسلحة الشهداء والمصابين وتنفيذ خطط فرعية لقوات بسيطة لمهاجمة قوات العدو، بدأ لنا أن حرب مدن بدأت توتني أكلها حيث كنا نسمع عن تدمير دبابة هنا أو هناك وانفجارات هنا أو هناك والمنطقة التي تستطيع إحداث خسائر بالعدو كانت تنلقي ضربات قوية كثيفة تذكرت وقتها ماذا كان يفعل العدو بقوات سرية مدافع الهاون بمدينة القنطرة غرب.

كنت أقدم يد المساعدة الممكنة لقوات المقاومة؛ أقوم علي توصيل الرسائل الشفهية من قيادة المقاومة التي اتخذت من مسجد الهداية قيادة لها وأيضاً حمل الأسلحة الصغيرة أو طلقات الرصاص لتلك الأسلحة أو بعض القنابل اليدوية؛ أعود بعد هذا للمنطقة التي أنام بها أسفل سلم العمارة منذ عدت إلي السويس منذ ثلاثة أعوام أو أكثر لا أستطيع الحركة وأنهض في الصباح للبحث عن طعام فلقد أصبح هو والشراب قليلا بل انقطع التيار الكهربائي وقام العدو بقصف منابع مياه الشرب، توجهت للاطمئنان علي شمس والمعلم منصور، شاهدت المعلم منصور يتحدث مع رجاله عن المخزون من الدقيق بينما توجهت للمنزل وضربت بيدي علي الباب وفتحت شمس وشاهدتها والأثرية ودخان الانفجارات واضح علي صفحة وجهها الأبيض الجميل.

حينما شاهدتني بكت وتحدثت عن المصيبة بأن ينجح الإسرائيليون ويدفعوا بقواتنا للخلف، أخبرتني بأنها منذ دخول الإسرائيليين المدينة لم تنم إلا قليلا فقد تضاعف مجهودها بين رعاية الفقراء والمرضى وبين المساعدة في

تقديم العلاج الطبي ومساعدة الجرحي، طلبت مني شمس بان أساعدها بان أدلها علي رجال المقاومة كي تشاركهم القتال ضد قوات العدو.

هدأت من خاطرها وأخبرتها بانها تقوم بأحسن ما يقوم به رجال المقاومة وكل مجال عمل مهم، مساعدتك للضعاف والمرضى والفقراء مهم وإلا ماتوا جوعاً وعطشاً أيضاً تقديم يد العون للجرحي فهو عمل رائع يقلل من آلام هؤلاء الرجال الشجعان ويساعد علي شفائهم مبكراً وهذا يدفع بهم للعودة لساحة المعركة؛ شاهدت الحيرة بعينيها البرينتين الطبيتين كأنها تود أن تخبرني باننا معشر الرجال نمثلك أنانية كبيرة، تأكد حدسي حينما قالت إن الإسلام قرر أن الجهاد فرض عين وليس فرض كفاية أي علي كل مسلم ومسلمة، عم جبر قدم لي يد المساعدة للوصول لرجال المقاومة.

شعرت بأنه لم يعد أمامي مناص من التهريب وإبداء الأعداء، رافقتها إلي المسجد، هناك التقت بالعديد من رجال المقاومة الشعبية ومنهم الشيخ حافظ سلامة والكابتن غزال أحد أبطال المقاومة بالسويس، عرفتهم بنفسها وعرضت عليهم رغبتها، لم يمانع الرجال وحددوا لها مهمة تحديد أماكن بعض الوحدات المدرعة بالمدينة علي ألا تستخدم الطرق العادية لأن العدو يطلق النار مباشرة علي من يقترب منهم فيردونه قتيلا في الحال.

شكرتهم قائلة إنها سوف تحصل علي المعلومات بطريقة ميسرة مما دفع الرجال للدهشة وتساءل أحدهم ماهي الطريقة الميسرة التي تمكنها من الحصول علي المعلومات، تأكد لهم أن الفتاة مازالت صغيرة ولا تعلم مقدار المخاطر التي يتعرض لها أي إنسان راغب بالاقتراب منهم والحصول علي المعلومات

ودعتهم وأنا أهول خلفها، توقفت وسألتها كيف مستقومين بالحصول علي المعلومات بطريقة بسيطة وسهلة، ضحكت بملء فيها وقالت لي أنظر يا عم جبر.

في لحظة مشاهدتها تجرى بسرعة ثم تقفز لأعلي وتمسك بماسورة منزل قديم ثم تدور بجسدها حول الماسورة بالهواء مثل لا عبي العقلة وتقفز للدور التالي ثم تتسلق الحائط لتصل للدور العلوى وتقف فوق السطح وتشير إليّ بأنها سوف تصل لنهاية الشارع بتلك الطريقة ثم تقفز من أعلي المنزل كي تعبر الحواري والشوارع الضيقة دون أن تهبط للشارع، خلال هذا تلتقط المعلومة وتعود بنفس الطريقة.

وقفت مشدوهاً ولم أكن أعلم أن شمس تتحرك بتلك الرشاقة مثل رشاقة الهر، كانت تتحرك أعلي المنازل وأنا أرافقها من الشارع، بل وقفت علي ناصية أول شارع فرعي وشاهدت جسدها طائرا بالهواء وهبط علي المنزل المقابل واستطاعت تخطي عرض الشارع الذي لا يقل عرضه عن أربعة أمتار شاهدتها تشير إليّ بنهاية الشارع ثم قالت إنها سوف تعود بنفس الطريقة عدت مسرعاً حتي مكان البداية والتي وصلت إليه قبل وصولي وشاهدتها تتسلق مواشير المياه والصرف الصحي وتمسك في النوافذ وأي فتحات، كنت أخشي عليها من المنقوط محاولا التماسك بالأأشاهدها تسقط من ارتفاع لا يقل عن خمسة عشر متراً.

سارت المعارك علي أشدها بين القوات المعادية التي احتلت جزءاً من المدينة وبين رجال المقاومة الشعبية والتي شملت جميع المصريين بالمدينة

سواء من وحدات عسكرية أو رجال الأمن المركزى أو المدنيين الذين يعلمون كل صغيرة وكبيرة بالمدينة وتبين لي أن شمس كانت علي مستوى عال جدا من البراعة في الوصول لأماكن القوات المعادية والحصول علي المعلومات لقد أفادها نظام الدراسة بكلية التربية الرياضية الذي رفع من لياقتها البدنية لمستوى رفيع بالإضافة لصغر سنها وأيضاً الخبرات التي حصلت عليها بمعرفة كل جزء بالمدينة خلال خدمتها للفقراء.

كانت حصيلة المعلومات التي حصلت عليها فياضة ودقيقة ومن أجل هذا كان رجال المقاومة يتجهون لهدهم مباشرة ولديهم علم بعدد الوحدات المدرعة ونوعيتها وأماكن تركزها بل وإلى أي اتجاه صوبوا مدافعهم كانت نتائج الهجمات عالية وأدى هذا إلي إصابة الأعداء بخسائر كبيرة في المعدات والأفراد وتبين لهم أنهم غير قادرين علي مواجهة المصريين في حرب المدن وتأكد لهم أن المصريين يحصلون علي معلومات دقيقة؛ حيث تقوم مجموعة الإغارة من الفدائيين وتهاجم الهدف في دقائق معدودة ثم تتسحب للخلف بالإضافة إلي أن شمس كانت تقف بأعلي المبني تراقب ميدان المعركة كي تحصل علي نتائج المعارك ولطلب العون في حال انتكاس المهاجمين وهذا أمر وارد.

تأكد لرجال الجيش الإسرائيلي بأن هناك مجموعة خطيرة تتجسس علي قواتهم، ركزوا جهودهم الاستخباراتي مع المراقبة للوصول لمن يقدم هذا العون للمقاتلين المصريين، في إحدى المرات شاهدوا شمس تقفز من أعلي منزل لآخر عبر الحواري، تأكد لهم أن هذا الشاب هو المسئول عن نقل المعلومات حاصروا جميع المباني وصعد رجال العدو لأعلي كي يلقوا القبض عليها

استطاعت التسلل إلى المنطقة الخلفية ومن سوء الحظ أن رجال المقاومة كانوا يهاجمون القوة التي بالخلف ولكن القوة الإسرائيلية توقفت عليهم وكبدتهم خسائر مما دفع بشمس إلى الظهور والاختفاء كي تلتفت أنظار العدو إليها وابتعدوا عن رجال المقاومة كي تعطيم الفرصة لإخلاء الجرحى والفرار من المنطقة.

تبعتها تلك القوة وطارتها بالشوارع الخلفية فالتقت بالقوة الأولى التي نجحت في حصار شمس وإلقاء القبض عليها، مازلت مختبئاً حتي تنتهي شمس من مهمتها ولكني سمعت بكاءها وصراخها وأسرعت بالتلصص حتي شاهدتهم يمسكون بها وقد انهال عليها بالضرب المبرح اثنان من الجنود حتي فقدت وعيها، حين محاولتهم إفاقتها ورفع الغطاء عن رأسها ظهرت لهم المفاجأة وتأكد لهم بأن من كانوا يبحثون عنه للقبض عليه تبين أنها فتاة صغيرة، أحضر أحدهم مقصاً وجز شعر رأسها مثلما يحدث للأغنام وسحبوها سحلاً بطول الشارع حتي المدرسة الثانوية التي احتلوها وجعلوها مركزاً لقيادتهم.

أسرعت بالعودة للخلف في طريقي لرجال المقاومة وأثناء سيرى المتعرج بجوانب حوائط المنازل التقيت بهم ، أنهم رجال المهندسين العسكريين وشاهدوا ما أنا عليه من توتر، كان من بينهم المهندس عمرو الذي تساعل عما يضايقتني؟ اندفعت في البكاء وأخبرتهم بأن ابنتي شمس ألقى اليهود القبض عليها وهم يعذبونها الآن بعد أن قصوا شعر رأسها، فارت الدماء في عروق الرجال وماروا برفقتي كي أرشدهم للمكان الذي إعتقلت به شمس، شاهده وعابنوه وأرسلوا بأحدهم ليخبر باقي زملائهم بالحضور وبرفقتهم بعض

المعدات اللازمة، ظللنا لأكثر من ساعتين ومن حين لآخر كنا نسمع صراخ شمس، كان قلبي يتقطع علي ما تلاقيه من عذاب، حضر الرجال ومعهم المهندس شوقي الذي قال لي: أن الأوان أن أرد إليك جميلك ومعروفك لإنقاذ زوجتي وطفلي، تشاور مع الرجال.

شاهدتهم ينقسمون مجموعات وأحدهم طلب مني أن أوصف لهم شمس كي يتعرفوا عليها حين الدخول واقتحام المبني ليقوموا علي تحريرها، اعترضت وصممت بأن أكون أول من يحملها ويحررها من سجنها، ابتسموا جميعاً مؤيدين حقي في هذا وسوف يكون معي اثنان للمعاونة للمساعدة علي الهرب هكذا أعد الرجال خططهم وشاهدت معهم معدة تشبه الماسورة وعلي هيئة وصلات بحيث يمكن التحكم بالطول المطلوب لتنفيذ الغرض المراد نفسه وتدميره ، كنت أسمعهم يطلقون عليه اسم " طوربيد البنجالور " تماعلت عما يقومون به الآن فأجاب أحدهم بأنهم يعدون الطوربيد كي ينفجر ولهذا فهم يقومون بعمل وصلة طولية بحيث تدفع تلك الوصلات المرتبط بعضها ببعض زاحفة علي الأرض حتي تصل رأس الطوربيد شديدة الانفجار بالقرب من مركز قيادتهم ثم نشعل الفتيل فتفجر الرأس المدمرة بالقرب من المركز فتصيب البعض ولحظة الانفجار يسرع عدد آخر من المقاتلين للخلف لفتح جبهة ثانية للاشتباك مع العدو بحيث نبدد مجهوده بين اتجاهين وفي خلال ذلك نعطي إشارة كي يتحرك معك اثنان من معاونين ويتم اختراق المنطقة موضع الانفجار وبالداخل تبحث عن ابنك.

سمعت صوت انفجار ضخم وبعد دقائق سمعت أصوات استغاثة بالداخل وأيضاً تحرك الدبابات في اتجاه منطقة الأشجار المواجه للمبني لكن

الاشتبك الخافي جذب الأعداء إليهم فتوجهوا للخلف وفي الحال قفزت مع الرجلين المعاونين لي ودخلنا من الفتحة التي قام انفجار الطوربيد بفتحها كنت أخشي علي شمس من الإصابة، الحمد لله شاهدت أحد الجنود يشير إلي مجموعة من الأسرى ويسأل أين شمس؟ بينما كان زميله يفك وثاق الأسرى جميعاً والذي أسرع بهم من شباك أحد فصول المدرسة، شاهدتها بعد أن قصوا شعر رأسها بإهمال متعمد، كان وجهها الأبيض ملطخاً بالدماء والقاذورات انحنيت عليها أحدثها فتدخل الجندي المعاون بأن أسرع بها لأن هذا ليس بالوقت المناسب.

رفعتها من علي الأرض وحملتها علي كتفي وأسرعت بها من شباك الفصل الدراسي؛ كنت أحمس نفسي علي تلك الصحة والمرونة التي تمتعت بها، هكذا استطعت الخروج بها والاتجاه لمنطقة الأشجار الكثيفة حيث ينتظر بعض الرجال هناك، تسلمها أحدهم كي أتمكن من تملق الدرجات التي تصل لهذا المكان واختفي بها وأثناء تسلقي سمعت وشعرت برصاصات المدفع الرشاش يمزق ساقي اليسرى والدماء تخرج حارة من ساقي، كدت اسقط من ارتفاع لولا رجال المهندسين الذين أسرعوا بإلقاء القنابل اليدوية وفتح نيران المدافع الرشاشة كي يتمكن المهندس شوقي من حملي والاختفاء بي بعيداً عن نيرانهم كنت أشعر بالمهندس شوقي يحملني علي يديه ويسرع ويعمل علي تهنتتي قائلاً: اطمن يا عم جبر، اطمن.

هكذا كان حالي وشعرت بحالة من الإغماء لم أنتبه منها إلا بعد فترة علمت أنها عشر ساعات، شاهدت نفسي ممدداً علي بطانية علي الأرض وساقى قد لغت بالأرطبة وقريب مني شاهدت شمس تجلس باكية تنتظر

إليّ وحين شاهدتني وشعرت بأني تنبّهت أقبلت ناحيتي تهدد علي كفتي وتردد:

- بطل يا عم جبر، والله بطل، اللي أنت عملته يدل أنك بطل، المهندس شوقي فضل طولة الليل يحكي ليا بأن عم جبر هو اللي عرفنا إنك مقبوض عليك وهو اللي دخل وشالك من المعتقل وجرى بيك من شباك الفصل بتاع المدرسة كمان حكي لنا عن بطولتك مع مراته وابنه، ربنا يخليك .. عادت شمس ثانية تقبل قمة رأسي.

تأكد لي من زيارة الطبيب العسكري والذي قام بعلاج ساقي المصابة بأنني لن أستطيع السير علي المساق اليسرى بطريقة طبيعية وسوف أترك أثناء السير نظراً لعدم وجود إمكانيات طبية تساعد علي عمل أشعة وجبيرة سليمة نظراً لحدوث كسر بعظمة القدم اليسرى أما الجروح ففي طريقها للالتئام خلال أسبوعين.

رضيت بقدرى، كنت أشعر في كثير من الأحيان بالضآلة مقارنة برجال الصاعقة الشجعان والذي شاهدت بطولتهم والشهادة التي نالوها سواء بالموت بداخل مياه القناة أو بالموت علي نقطة خط بارليف، كنت أتذكر الرائد رضا أثناء حديثه معي قبل العبور مباشرة ويطلب مني الدعاء له ولرجالہ بالنصر أيضاً تذكرت صورته بعد الشهادة بشرق القناة وقد تهتك صدره من نيران الرشاش الإسرائيلي وما حدثني به أحد جنوده بأنه كان يتمني أن يشاهد طفله الأول الذي أنجبته زوجته منذ خمسة أيام وحديث الرائد رضا بقوله إنه يشعر

بأنه لن يشاهد طفله بالدنيا وسوف يلقاه بالآخرة.

بعد عدة أيام استطعت التحرك والمسير مستندا على الحوائط بعد أن أصبحت وحيداً، لقد خرج الرجال للجهاد وشمس عادت لمنزلها، تسلمت المسلم الذى بداخل المنزل المتهاك درجة درجة وفي كل درجة أصعدها أجلس بعض الوقت للراحة، أخيراً صعدت لأعلى، أصبحت بالدور الأخير كنت تقوب أشاهد تقوب القنابل الكثيرة على حوائط المباني، من إحدى تلك الفتحات شاهدت المنطقة المواجهة للمنزل والتي تقع على ناصية شارع كبير، كانت المدينة مدينة أمشباح والدبابات المعادية المحترقة موزعة بأرجاء الشارع وأثار الانفجارات واضحة على الأرض وعلى الطريق الأسفلت وأحدثت بها حفر جلست قليلاً أستعيد أنفاسي وشعرت بانفراجة علي وجهي ويأن رجال مصر البواسل مازالوا يكيلون للعدو الضربات.

### شمس الأصيل تشرق من جديد:

الحمد لله تحسنت حالتي الصحية وتوقف إطلاق النار وابتعدت القوات المعادية لتقف خارج حدود المدينة كي تحمي نفوسها من ضربات رجال المقاومة الشعبية، أصبح كل ما يشغلنا هو حصار الجيش الثالث، علمنا بخطوات لفك الحصار ورغم وقف إطلاق النار إلا أن مجموعات متناثرة من المقاومة الشعبية ألهمت جنود العدو الذى هدد بالانتقام، وبدأت العمليات من جديد ولم يكن حديث الإسرائيليين عن الانتقام صحيحاً حيث كان الإنهاك قد أضعف الجيش الإسرائيلي وفي المقابل كانت القوات المصرية قد أعادت ترتيب أوراقها وحالة الجيش الثالث المحاصر في تحسن وأمكن تزويده ببعض

المؤن عن طريق رجال سيناء الأبطال وأن الدفاعات الإسرائيلية دمرت ولم تعد لها وجود بالإضافة إلى أن القوات المصرية أصبحت على اتصال برى بالجيش الإسرائيلي بسيناء، لم يعد هناك مانع مائي يحول دون القيام بعمليات برية من إغارة وكمانن، لم يعد هناك خط بارليف يحمي جيش الدفاع.

كل تلك المعلومات أخبرنا بها أحد ضباط المخابرات الحربية الذي كان يتولي قيادة قوات المقاومة وذلك في لقاء جمع بيننا بعد أداء صلاة الجمعة بمسجد الشهداء بالمويس، شعرت براحة نفسية لما قاله رجل المخابرات أيضاً الرجال الأشداء المصريون سواء من الجيش أو بقايا الأمن المركزي الذي ضحي بالعديد من الشهداء أثناء المقاومة أو برجال المقاومة الأشداء.

أقبل الشاويش عمرو أو المهندس عمرو يطمئن علي حالي وسألته عن صديقه المهندس شوقي، أخبرني بأنه أصيب في الأيام الأخيرة من القتال وفقد إحدى عينيه لكن حالته النفسية سليمة وسوف يأتي لزيارتك، طلبت منه أن يصحبنى لزيارته ولكنه اعتذر لأن مكان المستشفى العسكري المقيم به يبعد عن هذا المكان مسافة ثلاثة كيلومترات وسوف نقطعها سيراً على الأقدام نظراً لتعطل جميع المركبات لعدم وجود وقود بسبب حالة الحصار.

تحت الضغط والإلحاح طلبت زيارته معلقاً: سوف أتبع منهج رجال سرية الهاون الذين استغنوا عن الخيل والبغال والحمير لنقل الأسمنت والرمل والطوب لإصلاح موقعهم بالرجال الأشداء، بعد أن سرنا مسافة توقفنا عن السير وطلب مني المهندس عمرو الجلوس بهذا المكان كي أحصل علي راحة وسوف يحاول التصرف بتوفير وسيلة كي نتقلنا من هذا المكان إلى مكان إقامة

المهندس شوقي، بعد عشر دقائق تقريباً شاهدته قائماً يسوق حماراً ومساعدني كي أمتطيه وأنا أضحك وفي منتهي السعادة، بعد أن تحركنا مسافة لا بأس بها شاهدت العديد من الجنود يسوقون الحمير المحملة بمواد الإعاشة من خبز وخضراوات كي يجهزوا الطعام لرجال الجيش والمقيمين بمدينة السويس من المدنيين ورجال الأمن المركزي.

شعرت بالتفائل بأن يتصرف الشباب خلال الحروب ونقل مواد الإعاشة بتلك الطريقة وليس في هذا التصرف ما يضايق ولم تخلق البشرية ومعها اللواري والطائرات لكن ما لفت نظري وجود مجموعة من الحمير وبعض الجنود يتعاونون علي دفع مدفع ثقيل من مكان لآخر، كان الرجال يعملون وكأنهم يسابقون الحمير في العمل مما ساعد علي دفع المدفع للموقع الجديد المختار، هناهم علي جهدهم ومثابرتهم؛ توقف بنا الحمار بعد أن طلب منه عمرو والذي أسرع كي يمد يد العون والمساعدة لجنود المدفعية وعلمت منهم أن هذا هو المدفع الأول ومتبقي حتي الآن سبعة عشر مدفعا غير الذخائر صمت قليلا ووضعت كف يدي علي فمي فعلق أحد رجال المدفعية قائلاً:

.وده يجي إيه جنب حجارة الهرم، إحنا جدها وجدود.

مازلنا نتحرك متجهين لموقع المهندس شوقي، كنت أثناء التحرك أشعر بأننا عدنا لبداية القرن الحالي حيث كنت أتذكر وأنا طفل صغير في بداية العشرينيات وبعد ثورة سعد زغلول أن الجميع يستخدمون الحمير سواء في نقل الأشخاص من مكان لآخر أو لنقل الأشياء والبضائع ومستلزمات الإنتاج بالحقول بالإضافة إلى المساعدة المقدمة من الجمال والبيغال والخيل والثور

"ذكر البقرة" ، أيضاً كنت أشاهد جنود الجيش الثالث يقطعون أفرع الأشجار ويقومون بنقلها إلى أماكن إعداد الطعام، لقد تصرف الرجال ولم يتوقفوا محتجين بانتظار وصول الوقود، رغم هذا كان التفاؤل واضحاً علي الجميع.

قمت علي زيارة المهندس شوقي وسعدت بلقائه وعلمت أن الإصابة تركت أثراً بالعين اليمنى ولم يعد يبصر بها وعلق ضاحكاً:

- ح أشوف بعيون مادلين وشادي، اندفعنا جميعاً في الضحك، نظر إلي المهندس عمرو الذي علق قائلاً:

- بمناسبة مادلين زوجة شوقي، أنا راغب بالزواج يا عم جبر، هل يمكنك مساعدتي؟ ضحكت وأجبتة أن هذا يوم سعيد عليك أن تشاور علي الفتاة صاحبة النصيب وسوف أساعدك، نظر إلي ثانية وقال:

. أنا راغب في مصاهرتك!! صمت وأصابتي الدهشة، أكمل حديثه أنني راغب بالزواج من ابنتك ومنذ أول لحظة شاهدها لم أنسها أبداً رغم أنني شاهدها أثناء الظلام، كنا في حالة من التوتر والارتباك ولم أشأ أن أفاتها؛ كانت الظروف غير مواتية، نظرت لأسفل ساكناً بين قدمي وحدثت نفسي:

- يا جبر، بنتك فضحتك وتجاوب الشاب ده بعيد عنك وفي الضلمة، يا سنة سودة عليك يا جبر أنت واللي خلفوك، أجول إيه يا ربي، البت فتحية اللي مكلتشي ستشار سنه بتحب وتجاوب الرجاله في الضلمة، تنبتهت علي حديث المهندس شوقي الذي علق متسائلاً:

- إيه يا عم جبر، سكتت يعني، أنت عارف المهندس عمرو جدع وابن ناس  
وكمان حليوه وله مستقبل وشغال في الشركة المصرية للبترول وبعد الحرب  
حبيقي مستقبله مضمون، وبصراحه البنات ريداه وكانت مبسوطه لما قابلها آخر  
مره ومتقولشي لما أسأل، كانت مبسوطه منه وكمان فضل يكلمها شويه في  
الشارع ويعدين لما شاف ناس جايه افترقوا عشان محدش يكلم عليها، نظرت  
إليهما وأنا أردد:

- محدش يكلم عليها، كل الناس بتكلم عليها دلوجتي، أروح فين يا ربي من  
الفضيحة والجرسه، شاهدت الشابين وقد امتنعت الوجوه وتبادلوا النظرات  
وهمس عمرو بأنه يعتذر ولا يرغب في إغضاب أحد وما قاله كأن لم يكن  
شعرت أن المصيبة أكبر، تشجعت وقلت له، بص يا باشمهندس؛ أنا مبدئياً  
موافج لكن لما أعرف أمها مش ده واجب، ظهرت الفرحة علي وجهه وقبلني  
ثم قال بعد أن أوصلك لمكانك سوف أسرع كي أفرحها وأخبرها، تساءلت مين  
هيا اللي ح تعرفها؟

. بنتك يا عم جبر، تساءلت: متي أيها الشاب؟ اليوم بعد أن تعود لحجرتك  
التي تنام بها، قطعت حديثه متسائلاً: أنت تعلم ما تقول، تدخل المهندس  
شوقي وقرر بأن هذا في صالح الاثنين فنحن نرغب بأن يفرح الجميع، قاطعته  
متحدثاً مستفسراً: ألا تسمع ما يقول؟ أنه يقرر بأنه سوف يخبرها اليوم، كيف  
يخبرها والحصار ضارب حول المدينة، كيف ستخرج وتساخر لأسيوط؟ كل هذا  
في يوم، تبادل الشباب النظرات واستطاع شوقي أن يجمع شتات فكره ويقول  
لي:

. عم جبر ، أنت نسميت أن بنتك عايشه معنا هنا؟

. بتقول إيه؟ بنتي عايشه هنا، جيت الكلام ده منين؟

. إيه يا عم جبر، إحنا مش رحنا معاك وأنقذناها من مركز القيادة الإسرائيلية بالمدرسة قبل ما اليهود يسيبوا المدينة وأنت شلتها بنفسك؛ صمت ونظرت إليهما وضحكت وقلت متسائلًا:

. تجصدوا شمس، أجااب الاثنان معاً

. أيوه

. حاضر يا شباب، هكذا اختلط عليّ الأمر وأخبرتني بالحقيقة وضحكا وصمم عمرو علي ماقاله برغبته بخطبة الفتاة الشجاعة، بعد أن عدت لمكان إعاشتي ممتطياً الحمار، شاهدت رجال المنفعية مازالوا يدفعون بالحميز والشباب لتحريك المدافع والذخائر، وصلت لمكان إعاشتي واستعدت ما قاله الشباب لي شعرت بأن شمس وعمرو قد رضي الله عنهما بهذا الحب الذي سوف يغلفه الزواج فهما من الأبطال وتلك نعمة من النعم الدنيوية، أما المهندس شوقي فلم يهتم بفقد إحدى عينيه، بل أكد لي بأنه سوف يشاهد الحياة بعيون أحبائه وهما زوجته وطفله؛ كنت أردد:

. ياه علي البطولة والشجاعة وإنكار الذات.

صباح اليوم التالي أرسلت في طلب شمس فحضرت علي الفور تحمل

بعض الأطعمة، بعد أن جلست قليلاً أخبرتها بما قاله عمرو، صممت الغتاة ثم طلبت مني أن أخبرها الرأي والنصيحة، أخبرتها بأنه شاب ممتاز وله مستقبل وهو يحبك ويرغبك وهذا شيء طيب في الزواج، صممت قليلاً ونهضت وقبل أن تغادر الباب الخارجي نظرت إليّ وقالت:

. ابقى عرف أبوياء، وأسرعت بالهرب من أمامي.

اليوم التالي طلبت من أحد رجال المقاومة الشعبية ركوبة "حمار" فضحك قائلاً سوف أرسل لك بمرسيدس الشيخ حافظ سلامة، دهشت لهذا وكيف يركب الشيخ عربة فارهة ويجد لها الوقود والجيش لا يجده، بعد قليل سمعت رجل المقاومة ينادى عليّ بأن المرسيدس وصلت، كنت في خشية أن يطلق أحد عليّ النار، خرجت لخارج المنزل فشاهدت المرسيدس مثل مرسيدس الأمس عبارة عن حمار، اقتربت منه أحادثه وأقول له "والله ابن أصل، طول عمرنا بنطول لسانا عليك وينسخر منك وأنت محترم ووقت الشدة مخلتشي بيينا".

تحرك بي الحمار حتي فرن المعلم منصور الذي نهض مرحباً بي متمنياً لي الصحة والسلامة، ترجلت عن الحمار بينما طلب المعلم إعداد فجان قهوة اقتربت منه وأخبرته بطلب المهندس عمرو، ابتسم الرجل واستفسر مني عن ملاحظتي علي العريس المتقدم، أجبته بأنه مثل الجنيه الذهب؛ صمت وابتسم وقال إنه سوف يخبر شمس، أخبرته بما حدث فضحك رافعاً صوته مهللاً " ألف مبروك، الخيرة فيما اختاره الله "



## أفراح النصر وعودة الأرض

عم حيدر:

الحمد لله لقد منّ الله على مصر جيشاً وشعباً بالنصر، بدأت القوات المعادية في تنفيذ مراحل الانسحاب حسب الخطة الموضوعّة بين الطرفين بإشراف الولايات المتحدة الأمريكية، لقد تم تحرير السويس وباقى الأراضي بغرب القناة وبدأ الهدوء يعود للمنطقة كما بدأ سلاح المهندسين العسكريين في تطهير المنطقة من الألغام والأشراك الخداعية التي وضعها العدو كما تدفقت الإمدادات الغذائية من القاهرة والأدوية والعلاج وتم نقل العديد من المصابين للقاهرة والذين كانوا في احتياج لعلاج متخصص، كنت أنا أحد هؤلاء حيث نقلت للعلاج بمستشفى الحلمية العسكري للعظام لعلاج حالة الإصابة التي طالتني أثناء حمل شمس من معتقلها إلي خارج المبنى؛ فقد التئمت العظام بطريقة غير سليمة نظرا لعدم وجود إمكانيات وأطباء مؤهلين متخصصين.

بمستشفى الحلمية العسكري المتخصص في العظام شاهدت الكثير من ضباط وجنود القوات المسلحة الذين مازالوا تحت العلاج، تعرفت علي بعضهم كنت أرقد علي سرير مجاور لسرير الجندي عبدالبديع وهو من رجال سرية الرائد أسامة والذي قص عليّ ملحمة عبور وحدتهم وما لاقوه من هجمات مدرعة حتي تحقق لهم النصر بثمن مرتفع بالخسائر في الأرواح ما بين شهيد وجريح، أفزعتني هذا كما أخبرني بأن قائده الرائد أسامة أصيب إصابات شديدة بالرأس وحروق مختلفة.

كنت أتمنى بأن أنهض وأقوم علي قدمي كي أقوم بزيارة الرائد أسامة رغم أنني لا أعلم عنوان منزله ولكنني كنت أستبغ المثل الشعبي الذي يقول " اللي يمأل ما يتوهشي " مضي علي وجودي بالمستشفى قرابة الشهر قام خلالها الأطباء بفك اللحم السابق لعظمة القدم وأعيد كل شيء إلي وضعه الطبيعي ومازال الجبس يحيط بقدمي ومازلت راقداً علي السرير، منذ عدة أيام أقبلت شمس وقامت علي زيارتي برفقة والدها المعلم منصور وعريسها المهندس عمرو الذي أبلغني سلام وتحية المهندس شوقي.

بداية شهر مارس عام ١٩٧٤ وأنا جالس علي السرير بالمستشفى وإذ بي أشاهد الرائد أسامة يدخل الحجرة التي أقيم بها مع الجندي عبدالبديع؛ فقد علم بأن بعض جنوده يعالجون بتلك المستشفى فقرر القيام بزيارتهم بعد أن غادر مستشفى المعادي رغم أنه مازال تحت العلاج، كان الرائد أسامة يضع طاقة من القطن والشاش حول رأسه ويدها الاثنان مربوطتان بالشاش؛ أقبل نحو الجندي عبدالبديع يقدم تحيته وأمانيه بالشفاء، وكما هي عادة المصريين فإن الزائر يقدم التحية والابتسام لمن يجاور من يقوم بزيارته، قام الرائد أسامة بتحيتي ووقف صامتاً لفترة ينظر إليّ وأنا بالأحرى أدقق النظر فيه وأستعيد أيام معارك القنطرة غرب، قطع علينا السكون عبدالبديع الذي أخبر قائده قائلاً:

- عم جبر منور الأوضه والمستشفي، بهدوء أقبل الرائد أسامة وانحني عليّ يقبلي وجلس علي طرف السرير يتجازب معي أطراف الحديث، في هذا اليوم ظل معي لأكثر من ساعتين قصصت عليه كل ما حدث خلال معركة السويس الخالدة، أثناء هذا أقبل ابني أحمد الذي أصبح شاباً يافعاً ورحب بالرائد أسامة وتبادل الاثنان التهاني بالنصر وأيضاً تبادلوا العناوين لكل

منهم، غادرني الرائد أسامة وتحديث مازحاً:

. عم جبر، ما قمت به من رحلة العودة من سيناء يحتاج إلي كتاب وأيضاً ما قمت به من إنجازات وبطولات بالمويس يحتاج كتاب، لو تواجد كاتب أو صحفي يهتم بأمر المقاتلين لأسرع إليك، علي كل حال رينا ح يبعث لك واحد يكتب اللي عملته، إبتسمت ضاحكاً ومعلقاً:

. علي كل حال ياباشا لو جه الكاتب اللي بتجول عليه وكنت جابلت ربي أحمد ابني يعرف كل حاجه، محفضه بكل اللي أبوه عمله، مش بأطارد المجرمين بس ، لا ، دا أنا بجيت مجاتل.

تبادلنا الضحكات وأسرع الرائد أسامة بالمغادرة وبعد تلك الزيارة بعشرة أيام غادرت المستشفى عائداً لأسرتي؛ مكثت معهم حتي انتهت خدمتي وأثناء هذا وصلني خطاب شكر من وزير الداخلية حينئذ اللواء ممدوح سالم الذي شكر وهناً كل رجال الداخلية بالمويس علي ما قاموا به حيث كان فخوراً وشعر بالسعادة وعلق قائلاً: إن شعب مصر شعر بأن رجال الجيش والشرطة والمقاومة الشعبية أذلوا العسكرية الإسرائيلية المتعجرفة.

أصبحت أقضي الجزء الأكبر من وقت فراغي في تلاوة القرآن وكما يقول العامة أصبحت بركة بالبيت فليس لي نشه ولا هشه وزوجتي تأتي إلي بالطعام حين تريد أو حين تتذكر كما أنها تتخير أنواع الطعام كما تخبرني بكل ما يحدث لبناتي بعد زواجهن ومشكلات الإنجاب، لم أكن أشعر بأى ملل، فلقد قضيت حياتي بالطول والعرض كي أنفق علي أسرتي من راتبتي المتواضع

بجهاز الشرطة، الحمد لله، لقد بلغت من العمر سبعين عاماً ومازلت قادراً علي العطاء والحركة وأقوم بزيارة منازل بناتي اللاتي تزوجن وأيضاً إخوتي وأصدقائي بالقرية، تذكرت الأيام الماضية العسيرة خلال أيام الكفاح ها قد منّ الله علي مصر بالسلام واستعادة الأرض بالتمام والكمال ولم يبتق سوى قطعة صغيرة يطلقون عليها اسم طابا وسمعت وعلمت بأن مصر توجهت للمحكمة الدولية وأيضاً معها إسرائيل كي تفصل تلك المحكمة في النزاع القائم بين الدولتين، هناك مناسبة سعيدة نهاية هذا العام ١٩٨٥ حيث سيتزوج ابني الأصغر أحمد.

أثناء جلوسي المعتاد علي المصطبة التي أمام الدار والتي تظلل تكعيبة العنب المثمرة المكان وأنظر وتطلع لمشاهدة عناقيد العنب الأخضر التي لم تتضج بعد شعرت بقل في رأسي وغفوت لفترة لا أعلمها كما هي العادة لكنني استيقظت وتنبهت علي صوت لا أنساه أبداً والذي سمعته ينادي علي قائلاً:

. اصحي يا عم جبر، تنبهت وفتحت عيني فمأهدت اثنين من الأفنديات يقمان أمامي بملابسهما المنمقة، نهضت واقفاً مرحباً بهما حيث قال أحدهم أنت لسه مش فاكرنى يا عم جبر؟ تنبهت وتذكرت وصحت:

. مين؟ الباشمهندز شوجي، الله أكبر والأفندي الطو جريب الست الدكتور ه بتاع الذهب، ايوه ح أفكر الاسم، شنودة بيه، ابتسم الرجلان وضحكا وتصافحنا وزيادة في الحب التقت الأجساد بالأحضان الطيبة بين أبناء الشعب، جلس الرجلان وأحضر أحمد ابني لهما شراب العرقموس المتلج وأقبلت زوجتي مرحبة وأخبرتني بأنها سوف تقوم بنحج ذكر بط وإعداد الطعام وعمل فته

وشوريه وطبق من الباننجان المخل، قدم إليها الرجلان الشكر الجزيل وأنها  
في عجلة من أمرهما؛ تحدث المهندس شوقي قائلاً:

- عم جبر، مش عايز تشوف مادلين وشادى وأخته الصغيرة بشرى، رحبت  
وهللت بقدم بشرى السعد علي والديها وأخبرته بأني أتمني بأن أشاهد الدكتور  
وشادى والصغيرة بشرى، أكمل حديثه بأنهم يطلبون مني الموافقة علي مراقبتهم  
لرحلة سوف يقومون بها إلي سيناء؛ لقد عادت الحياة للأرض المحتلة وأيضاً  
لشركة البترول كما علمت من حديثه بأنه أصبح نائباً لمدير الشركة والتي من  
بينهما فرع شركة بترول أبو زنيمة وسوف يقوم برحلة إلي هناك مصطحباً أسرته  
ويرجعوني أن أرافقهم لتلك الرحلة كي نستعيد الأيام الماضية.

وافقته علي الفور سعيداً بهذا اللقاء وتلك الرحلة، حدد الوقت والمكان  
حيث سيكلف الأستاذ شنفودة مائته بالحضور إلي القرية بسيارته؛ وحدد موعداً  
اتفقنا عليه يعود بي السائق إلي المنيا كي ألتقي بأسرة المهندس شوقي ومن  
هناك نقوم جميعاً بالسفر إلي سيناء، نهض الرجلان وقدا شكرهما وتشاءهما  
لي وغادرا المنطقة حيث كانت تنتظرهما سيارة مرميسدس فاخرة والسائق  
ينتظرهم بجوارها ، رافقتهم حتي مكان وقوف السيارة وحاولت فتح بابها  
للمهندس شوقي فرفض وقبطني وهدد علي كتفي بأن لي منزلة كبيرة عنده  
وعند أسرته، هكذا غادر الميدان القرية وكنت أتابعهما من خلال الغبار الناتج  
من حركة السيارة علي شوارع القرية المترية.

بعد مضي أسبوع علي زيارة المهندس شوقي ونسيبه شنفودة أقبلت السيارة  
المرميسدس في نفس الموعد الذي قطعته علي نفسه المهندس شوقي، كانت

زوجتي قد أعدت لي شنطة صغيرة بها بعض احتياجاتي، ودعت أسرتي والتف العديد من أبناء وبنات القرية بالإضافة إلي بعض الدواب المتجهة للحقول لوداعي والجميع يدقق النظر في السيارة الفارحة والبعض يتحمس الأبواب والزجاج الفاخر الذي يزينها، سارت السيارة وتبعها العديد من أبناء القرية ملوحين، كنت أسمع بعض التعليقات بأن عم جبر أبو إسماعين أصبح من الأكابر والبعض أقسم بحياة أبوه أو أمه بأن تلك السيارة من ممتلكات جبر أبو إسماعين وقد اشتراها بعد أن انتهت خدمته بالبوليس حيث كان صديقاً لتجار المخدرات واستفاد من صداقتهم بعد أن تعاون معهم فحصل علي مبلغ كبير وبعد أن تأكد بأن الحكومة لم تعد تراقبه قام بشراء هذا الأتومبيل ويقوم بتأجيره في البندر بمبلغ كبير.

كل تلك التعليقات كنت أسمعها وأنا أضحك لما يقوله أهل قريتي، فانا أعلم أفكارهم وشكوكهم التي دائماً ما تقال عن أي إنسان اشترى شيئاً جديداً حتي لو مروحة هواء أو تليفزيون كبير الحجم، دائماً فكرة الشك والتخوين والأمنيات متوافرة وعلي كل حال هذا أحسن وأفضل بدلا من الحسد الذي أفتنع به وأشعر بأنه متواجد بين بعض الناس.

وصلت بنا السيارة إلي المنيا وتوقفت أمام عمارة جميلة علمت أن تلك العمارة شيدها كل من المهندس شوقي والدكتورة مادلين منذ ثلاثة أعوام سعدت كي ألقاهم بناء علي نصيحة الأسطي المائق الذي طلب مني ترك متعلقاتي بداخل السيارة، رافقي البواب حتي باب الشقة وضغطت علي زر الجرس، قامت سيدة تعمل لديهم بفتح الباب وأثناء هذا شأهنتها، ابنتي العزيزة

مادلين قادمة تختال في ملابسها الجميلة والتي لا أستطيع تقدير ثمنها  
صافحتني ببشاشة مرعدة:

. حمداً لله بالسلامة يا بابا، من مده مشفتكشى لكن ح نقضي مع بعض أسبوع  
جميل بـ ميناء، إيه رأيك؟

- أي مكان تكوني فيه والباش مهندس ح أكون مبسوط، أشاهد شاباً قانماً  
ناحيتي والبسمة واضحة علي وجهه حيث بادرنى بالتحية:

- إزيك يا أونكل جبر، نظرت إليه بدهشة وأنا أفكر في كلمته تلك، هل هي  
مشابهة لكلمة باش مهندس أو دكتور، لم أفهم معناها مما دفع مادلين للضحك  
وطلبت من ابنها أن يناديني بالألقاب العادية، ابتسم الشاب وعاد مردداً " أهلا  
عم جبر " ، تسألت:

. أنت تبجي شادي بيه؟ أجابت والدته:

. ده شادي من غير بيه، لو كل الناس بتقوله بيه أنت الوحيد وجده وأبوه يقولوا  
له شادي، ثم أشارت لشادي وطلبت منه أن يقبلي وسمعتها وهي تتحدث  
وتشير ناحيتي:

- شادي ، بوس عمك جبر واحضنه، ده يا ما شالك وكان ح يضحى بنفسه  
عشان يتنذك، نفذ الفتى نصيحة أمه، بعد قليل أقبلت فتاة صغيرة جميلة وتأكد  
لي أنها بشرى ابنة الباشمهندس والدكتور مادلين، اقتربت مني وهي تنظر إليّ

بتكريز ثم صافحتني وقالت لأمها:

ده عم جبر يا ماما اللي كنتي بتحكي علي شجاعته؟ ابتسمت أمها تؤكد لها  
أن هذا هو الرجل الشجاع عم جبر.

أقبل المهندس شوقي مرحباً وفي أثره كانت الخادمة قائمة تحمل لنا  
مشروباً مثلجاً، جلسنا فترة ليمنت بالطويلة ثم نهضنا وهبطنا لأسفل، شاهدت  
ميكروباس جميل حديث وأشار لنا المهندس شوقي بأن هذا هو وسيلتنا للمسفر  
إلى سيناء، تبعني سائق المرسيديس حاملاً حقيبة ملابس المتواضعة، أجلسني  
المهندس شوقي في مكان مميز بجوار شباك الميكروباس، سعدت الدكتورة  
مالين ويرفقتها كل من ابنها شادي وابنتها بشرى التي أعادت الترحيب بي  
وأعتقد أنها في الثانية عشرة من عمرها.

تحرك بنا الميكروباس وشعرت وأنا أجلس بداخله بالجو المنعش الجميل  
ولم أعد أشعر بما اعتدت عليه من حرارة شديدة وصعوبة التنفس، أدار المائق  
جهاز الراديو للعمل، انبعثت منه موسيقى مريحة شعرت بعد فترة قصيرة برغبة  
في النوم؛ خدرت الموسيقي أعصابي وشعرت أنني طائر بالسماء، مازلتنا  
نواصل التحرك وقد سلك المائق طريقاً جديداً عليّ وهذا الطريق الواصل بين  
مدن الصعيد ومحافظاتها وبين مدينة السويس، علمت أن هذا الطريق تم  
افتتاحه منذ وقت قصير، وصلنا مدينة السويس قبل هبوط غروب هذا اليوم  
الجميل؛ كنت أشاهد وأستمع وأشم رائحة أعز الناس لي وهم من حولي وأقصد  
المهندس شوقي والدكتورة مالين وشادي وشقيقته الصغرى بشرى.

توقفت بنا سيارة الميكروباس بداخل مدينة الموسى والتي ما إن شاهدتها لم أستطع نسيان الماضي رغم جمال مبانيها ونظافة شوارعها، كل شيء تغير بعد الحرب وتم إصلاح ما أفسده الأعداء، تحدث المهندس شوقي وأشار بأننا سوف نمضي الليل بالمدينة، توجه بنا السائق لاستراحات الشركة الشرقية للبتروول والتي يتولي بها المهندس شوقي منصباً قيادياً بارزاً؛ هناك استقبلنا أحد الموظفين القائم علي الاستراحة فرحب بنا جميعاً وقام أحد العاملين برفع الحقائق من السيارة وتوجه بها لإحدى الاستراحات الجميلة؛ اختفي المهندس شوقي مع أسرته بينما جاء أحد أفراد الاستراحة وأخذ بيدي أنا والسائق وتوجه بنا إلي حجرة خارج المباني سيئة المعيشة والتهوية وأخبرنا بأن علينا قضاء الليل بهذا المكان ثم غادر المكان واختفي.

نظر إليّ السائق كأنه يطلب مني توضيحاً لتلك المعاملة، هددت علي كتفه ونهضت مغادرا الحجرة فاسرع خلفي متسائلاً إلي أين أتجه؟ أخبرته بأنني سوف أقضي بضع ساعات بالمدينة أعود بعدها كي أحصل علي النوم بجوار الحجرة بالهواء الطلق، ضحك لهذا وتساءل هل يمكنني مرافقتك؟ فأخبرته بأن هذا من دواعي سروري نظراً لأنك ستوفر عليّ عناء انتظار وسيلة الركوب من الزيتية حتى المدينة ونحن نبتعد عنها بعدة كيلومترات.

هكذا تحركنا قبل غروب هذا اليوم إلي المدينة وبحثت عن مخبز المعلم منصور؛ عثرت عليه، شاهدت بعض العاملين الذي لا أعلم عنهم شيئاً تساءلت عن المعلم منصور، كنت أخشي بأن إنتقل إلي جوار ربه ولكن رجال الفرن أخبروني بأنه يقيم بالمنزل مع أسرته رغم حالته الصحية غير المستقرة ومازال يتابع نشاط إعداد الخبز، صعد أحد غلمانه لشقته كي يخبره

بوجود ضيفين يرغبان بزيارته، هبط الغلام وأخبرنا بأن المعلم في انتظارنا  
صعدنا إليه وشاهدته واقفاً بجوار باب الشقة مستنداً عليها لسوء حالته الصحية  
حينما شاهدني أسرع مغادراً باب الشقة للقائي ويردد:

. جبر أبو إسماعين، الرجل العترة ابن أسبوط، لك وحشه يا راجل، رينا يكرم  
أصلك، افكرتني وجاي تزورني، جلسنا معا فترة من الوقت أخبرني بأن ابنته  
شمس تقيم مع زوجها المهندس عمرو بالسويس بمبنى فاخر وأصبحت أما  
لثلاثة أطفال بينما زوجها يعمل بالشركة الشرقية للبترول، طلبت منه أن يبلغها  
تحياتي وسلامي لكنه رفض هذا وأرسل في طلب ابنه وأخبره بأن يأتي بالسيارة  
كي يقلنا لزيارة أخته شمس كما طلب منه أن يتصل بها تليفونياً ويخبرها  
بحضور عم جبر لزيارتها، هكذا تحركنا إلى منزل شمس بسيارة شقيقها  
الصغير أحمد بينما طلب سائق الميكروباس بأن يظل قابلاً في انتظارنا بجوار  
الفرن لرغبته بتدخين المعسل علي قهوة حنثيره.

وصلنا إلى العمارة الفاخرة التي تقيم بها شمس وأمرتها، صعدنا إلى الدور  
الذي به شقتها، علي باب الشقة كانت شمس في انتظارنا ترتدى ملابس أنيقة  
رحبت بي بسعادة بالغة، كنت أشعر خلالها بأن قلب الفتاة يتراقص مثل حالي  
جلسنا نتحدث ونمتعيد الذكريات ثم سمعنا طرقات علي الباب، قالت لي شمس  
بأن زوجها عمرو أخبرها منذ ساعة بأن صديقه وزوجته سوف يحضران  
لزيارتهم، شاهدت المهندس عمرو قادماً من داخل الشقة في أبهي حلة نظر  
إلينا وصافح المعلم منصور وأحمد ابنه ثم توقف أمامي ويردد:

. أحلي مصرى عرفته في حياتي، إزيك يا عم جبر، ثم أسرع وفك وثاق يديه

من حول رقبتى وخرج إلى باب الشقة وطلب من صديقه الدخول وهو يردد:

- تعالى يا شوقي، ح تشوف أحسن مفاجأة، توقفت وتسمرت، لقد شاهدت أسرة المهندس شوقي من خلفه الذى رحب بي وعاتبني بأن تركتكم بموقع الشركة دون أن أخبرهم فقد كانوا راغبين بأن أحضر برفقتهم لزيارة شمس وزوجها عمرو، أقبلت مادلين تقف بجوارى وتمسك بيدي وتحدثت شمس وتخبرها بأنها ترغب بأن تعرفها بعم جبر، أسرعت شمس ووقفت على الجانب الآخر وتردد:

- عم جبر ده أحسن واحد شافته السويس، تتساءل مادلين عن معرفتها بي فتخبرها ببعض معلومات بسيطة، وهنا تضحك مادلين وتردد:

- فرصة أحلي من ألف ميعاد، هكذا جلسنا معاً ونحن نضحك ونستعيد قصة كفاح السويس ورحلة الألف يوم التي قطعناها من سيناء إلى المنيا ويصحبني كل من مادلين وطفلها شادى، انتهت الأمسية الجميلة بتناول الطعام الشهي ثم تحركنا إلى القرن؛ كان المائق في انتظارنا وأدهشته المفاجأة بأن شاهد المهندس شوقي وأمسته، ركبنا ميكروباس الشركة بعد أن قمنا بوداع المعلم منصور وابنه أحمد وقبلهما ابنته شمس وزوجها عمرو وفتياته الثلاث " فاطمة وأم كلثوم وعائشة ".

بمقر الشركة علمت أن المهندس شوقي أعد لي وللماائق استراحة جيدة غير الحجرة السيئة التي قرر موظف الشركة أن نقضي بها ليلتنا، لم أستطع النوم تلك الليلة، غادرت الاستراحة وجلست بالحديقة الملحقة بها أتمتع بالهواء الطلق، كنت أستعيد أياماً مجيدة من عمر الشعب المصرى وشعب السويس

لا أعلم كيف تحركت خواطري وذكرياتي حينما رافقت المعاجين للعمل بالحقول خلال الأيام الأولى لشهر أكتوبر من عام ١٩٧٣ وكيف اكتشفت بعد وقت متأخر بأن هؤلاء هم رجال الصاعقة المصرية البواسل الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الوطن، شعرت ببعض دموع سقطت رغماً عني تحية لهؤلاء الرجال الأفاضل.

صباح اليوم التالي وبعد تناول طعام الإفطار تحرك بنا الميكروباس المكيف الهواء سهل القيادة والمريح لأقصى درجة أثناء تحركه علي الطرق التي تم رصفها حديثاً بعناية، عبرنا للجانب الشرقي من نفق أسفل القناة ويقع شمال المدينة يطلق عليه اسم الشهيد أحمد حمدي أحد رجال المهندسين العسكريين العظام خلال حرب أكتوبر، انفتحت أمامنا صحراء سيناء، عادت بي الذاكرة إلي عام ١٩٦٧ وشهر مارس أثناء عودتي من الإجازة ولم أعد لمنزلي إلا في شهر إبريل من عام ١٩٧٠، لقد كانت تلك الرحلة رحلة ذهاب بلا عودة، لقد كانت العودة بظروف أصعب من أن تحكي؛ خلالها شاهدنا أجزاء من الوطن الغالي، مصر الحبيبة.

بعد سفر أربع ساعات متصلة وصلنا إلي مقر الشركة بمنطقة أبوزنيمة ومجرد أن شاهدنا البعض حتي أسرعوا لاستقبال نائب رئيس الشركة المهندس شوقي وأسرته، من ضمن المستقبلين شاهدته رغم ما اعتراه من تقدم في العمر المحاسب محسن الذي كنا نعمل معاً قبل حرب عام ١٩٦٧ ركز الرجل ودقق نظره ثم ضحك واحتضنني ويردد:

. جبر أبو سبيع ترواح، حمد لله بالسلامه واوعي تقول إنك جاى تشتغل!!!

انشغل الجميع عني؛ وجدت نفسي وحيداً أقف بجوار الميكروباس وتذكرت يوم قدوم السيدة مادلين لزوجها قبل اندلاع الحرب وكانت تقلنا سيارة نصف نقل وجلست بجوار زوجها بينما كنت أجلس علي ظهر السيارة بجوار الحقائب والأغراض ودرجة الحرارة تشوى الوجوه؛ دارت الأيام وتحركت ونحن هنا بعد ثمانية عشر عاماً، لم أعر علي أحد أتعرف عليه لكن الملاحظ أن الشركة قد أعدت مباني واستراحات فاخرة مثل التي شاهدتها بالشركة بالمويس لأن شركات البترول تحقق أرباحاً خيالية بعد حرب أكتوبر.

خصصت لي استراحة طيبة، بالمساء غادرت الاستراحة وتوجهت لموقعي المحبب علي ساحل خليج السويس راجياً بالعودة لهوايتي القديمة، تحللت من ملابسني وقفزت بداخل المياه، كنت أخشي علي نفسي من الغرق فقد امتد بي العمر واقترب من السبعين عاماً، أشعر بمسعادة وأنا أعود لممارسة السباحة التي تخليت عنها منذ أطلت للمعاش منذ عشر سنوات، غادرت المياه وجففت جسدي وارتديت ملابسني راجياً بالعودة للاستراحة؛ شاهدت حيوان الكابوريا فعادت نفسي إليه وقمت بالصيد، كان الإغراء شديدا لكثرة المحصول، عدت لمطبخ الشكرة وقمت بمساعدة الطاهي علي إعداد وجبة الكابوريا، اقترب موعد عشاء العاملين بالشركة، فوجئ الجميع برائحة الكابوريا والأطباق توضع أمامهم، نظرت إلي مادلين تبكي وتردد:

. رينا يخليك يا عم جبر، دايمما بتسعدنا من غير ما نطلب.

اليوم التالي وقفت علي ساحل الخليج وطارت بي الذكريات لثمانية عشر عاماً بالتمام والكمال، اليوم الخامس من شهر يونيو من عام ١٩٨٥ الذكرى الثامنة عشرة لحرب عام ١٩٦٧ طفرت الدموع من عيني وأنا أنظر لمياه الخليج الثائرة وأردد بداخلي:

. كنت مجنون يا جبر، حد يعمل العملة السوداء ديه، تأخذ ست صغيرة وابنها الرضيع وترميمهم بالبحر، تذكرت الآية القرآنية: قال الله لأم موسى " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا جَفَتِ عَلَيْهِ فَلَتَمِيهِ فِي الْأَيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِبْرَئِيلَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .. صدق الله العظيم

طالت نظراتي إلي داخل مياه الخليج الثائرة وشعرت بقشعريرة من المخاطرة والمجازفة التي قمت بها، كنت أردد سؤالا مازال يدور بعقلي: ما البديل؟ لم يكن أمامي أى بديل وكما قال طارق بن زياد مع تبديل الإتجاهات "البحر أمامكم والعدو خلفكم" أردد بداخلي: الحمد لله وما شاء الله فعل، شعرت بنسمة رقيقة آتية من الخلف، استدرت فمشاهدت مادلين وشاهدت البسمة علي وجهها الجميل، أقبلت ناحيتي تردد:

. فآكر يا عم جبر؟ زى ما تكون الحكاية إمبراح، تعرف من يوم مارجعت للمنيا بعد الرحلة الطويلة اللي عملناها غصب عننا وأنا كل ليلة قبل ما أنام أرتجف لما أفكر رحلة الهروب وخصوصا رحلة البحر، كانت رحلة رهيبة ومش قادرة أنمسي منظر أسنان سمكة القرش بالليل لما ظهرت ليا، رعب في رعب، رينا يخليك لينا ولأولادك، كلنا بنحبك وأنت بعد رينا في اللي حصل لينا، لو مكتش رينا بعثك ليا كان زمانى مدفونة أنا وشادى ابني في التراب، ح أسيبك دلوقتى

ولنا كلام ثاني.

هكذا غادرت مادلين مكان تواجدى بعد أن بثت بعقلي وفكري الكثير من الذكريات التي يغلب عليها طابع الحزن والألم، جلست أرضاً علي شاطئ الخليج ومن شدة الرياح الرطبة مع أصوات الأمواج المتتالية رحمت في مبات لم أستيقظ منه إلا حين شعرت بأنني ملت علي جانبي أثناء جلوسي؛ تنبهت ونظرت من حولي وأردد: الحمد لله وما شاء الله فعل، لك يا مصر السلامة برجالك وبشبابك وبنسائك، تذكرت لقاء شمس الذي تم منذ يومين واليوم هذا اللقاء الممتع بوجود مادلين معي، لقد التقيت بالاثنتين في أصعب الظروف ضراوة وعنفا لكن السيدتين كانتا علي مستوى المسؤولية والتحمل لهذه الصدفة المتسبية وهذا اللقاء بالسيدتين اللتين أصبحتا صديقتين.

هكذا إنتهت ملحمة رحلة الألف يوم وسوف أقضي يومين أعود بعدها إلي أسرتي بقريتي التابعة لإحدى مدن محافظة أسيوط وأحيا بين أفراد أسرتي وأقاربي ولكن عقلي ومشاعر وعواظفي مازالت متعلقة بإبنتي اللتين لم أنجبهما.

---

تمت بحمد الله



## رأي الكاتب

هذا العمل الإنساني ترددت في كتابته حيث لا يعتمد في الأساس علي المعارك الحربية بين المصريين والعدو الإسرائيلي، وصاحب العمل أو البطولة رقيب من الشرطة المصرية وهو رجل رقيق الحال؛ لدرجة أن قام الجنود أثناء تواجدهم بالقتل بالعطف عليه؛ بل كانوا يقدمون له يد المساعدة نظراً لأنه رجل متقدم العمر وقد تعدى الخامسة والخمسين وإمكانياته الإدارية بسيطة للغاية ومن أجل هذا قدم إليه رجالي العون دون أن أعلم وهذا التصرف منهم يعتبر سلوكاً مصرياً خالصاً ينم عن قيم ومبادئ هؤلاء الشباب المتحضر ويرجع السبب الرئيسي الذي دفعني للكتابة عن هذا البطل الفرعوني العريق عدة نقاط كان من أهمها:

مجموعة الأعمال التي تتناول الفترة التاريخية الصعبة في حياة مصر وأقصد هنا البداية بحرب عام ١٩٦٧ ومروراً بحرب الاستنزاف والتي ظلت عامين ثم نهاية بحرب أكتوبر المجيدة، تلك الفترة كتبت عنها ثلاثة كتب حازت إهتمام القارئ وهي " الناس والحرب / عابد المصري / فهد الليل"

أثناء كتابة كتاب الناس والحرب عن تجربة ذاتية خاصة بي كدت أن أكتب عن تلك الشخصية الفريدة " عم جبر " لكنني عكفت عن هذا حتي لا أشقت القارئ بين معارك جنود الجيش الرهيبة بالقتل غرب وبين مهام رقيب شرطة يجلس وينام كثيراً دون عمل يذكر.

منذ عام ونيف التقيت بمقاول أنفار من أبناء الصعيد الذي قدم لي خدماته

من توفير العمالة لإنهاء شقة ابنتي التي تزوجت حديثاً بإحدي مدن القاهرة الجديدة، دار الحديث بينما مثل ما يدور بين المصريين، علمت منه بأن عم جبر رقيب الشرطة من بلدتهم، وأنه بمثابة ابن عم والد هذا المقاول ومن أجل هذا تفتحت شهيتي للكتابة.

لم تكن معلوماتي كاملة عن حياة عم جبر حتي النهاية، فقد علمت من قريبه بأن الرجل انتقل إلي جوار ربه منذ عدة أعوام، ومن أجل هذا كنت في أشد الحاجة إلي معرفة المزيد حتي أنني تلك الملحمة التي قام بها هذا البطل الشجاع الوديع، أثناء معارك القنطرة حكي لي عن رحلة الألف يوم التي قام بها لإنقاذ السيدة وطفلها، أثناء قيامي بزيارته بالمستشفى العسكري بعد توقف إطلاق النار قص علي أيضاً المغامرة التي قام بها خلال حرب السويس ضد الإسرائيليين وأيضاً ما قام به معي حين عثر علي في حالة مرضية صعبة قريباً من مدينة القنطرة، هذا الحادث كان من أسوأ ما قابلته من عنت القادة لأن الرائد صلاح رئيس العمليات الذي تولي القيادة بالكتيبة بعد وقف إطلاق النار من الشخصيات الكارهة لكل شخص يتحدث عنه الناس بفخر واعتزاز مثلما حدث معي ومع رجال سرية الهاون أثر العمليات العسكرية التي تمت مع قوات العدو خلال حرب الاستنزاف.

طلبت مساعدة مقاول الأنفجار، بالفعل زودني برقم ابن الراحل عم جبر وتعرفت عليه وتعرف علي حيث سبق والتقينا بالمستشفى العسكري، تم تحديد موعد لقاء وخلال هذا زودني بباقي المعلومات عن حياة والده والتي بفضلها استطعت استكمال سرد بطولة عم جبر أو رحلة الألف يوم.

## المراجع:

- ١- كتاب شخصية مصر للعالم الدكتور/ جمال حمدان
- ٢- طبوغرافية الصحراء الشرقية / هيئة البحوث العسكرية المصرية
- ٣- أبطال العمل سواء المهندس شوقي أو المهندس عمرو وكل من شمس ومادلين
- ٤- أحمد جبر أبوإسماعيل .. ابن الراحل عم جبر

تمت بحمد الله

قم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

١٤٠٥٤

بتاريخ ٢٠١٢/٧/١٨

## الفهرس

- ٥ ..... ١- إهداء
- ١١ ..... ٢- مياه زرقاء وعيون خضراء
- ٢٣ ..... ٣- وداع الأحلام والهدوء
- ٣٣ ..... ٤- رحلة السندباد البحري
- ٤٧ ..... ٥- إسكمال الأماسة
- ٦٣ ..... ٦- من غرائب المخلوقات
- ٧٩ ..... ٧- نعم من الله
- ٩١ ..... ٨- من هؤلاء
- ١٠٧ ..... ٩- قتل وأسر ويغض وكراهية
- ١٢٣ ..... ١٠- التكيف مع الوضع الجديد
- ١٣٩ ..... ١١- وصول بعض الزوار
- ١٥٩ ..... ١٢- تطور الحياة
- ١٧١ ..... ١٣- قسوة رجال الادارة
- ١٨٧ ..... ١٤- بداية رحلة العودة
- ٢٠١ ..... ١٥- تطورات حدثت أثناء الرحلة
- ٢١٥ ..... ١٦- الطريق إلي أدندان
- ٢٣٣ ..... ١٧- الطريق إلي المنيا

- ١٨- العودة إلى بيت العز ..... ٢٤١
- ١٩- لقاء غير متوقع ..... ٢٦٥
- ٢٠- نار جهنم ولا القنطرة غرب ..... ٢٧٧
- ٢١- مغامرة لقوات العدو ..... ٢٩٩
- ٢٢- الوضع بمدينة السويس ..... ٣١٧
- ٢٣- أحداث ما قبل المعركة علي الجانبين ..... ٣٣٥
- ٢٤- أبواب جهنم ..... ٣٤٥
- ٢٥- أفراح النصر بعودة الأرض ..... ٣٧٥

## من مؤلفات الكاتب:

- \* الناس والحرب .. الطبعة الثانية مايو ٢٠٠٩
- \* رسالة إلى الرئيس .. الطبعة الثانية يونيو ٢٠١٠
- \* مصر التّي .. الطبعة الثالثة يناير ٢٠٠٩
- \* نص نقـل .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠٠٩
- \* مسافرٌ زاده الخيال... الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
- \* حورية بين النخيل .. الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
- \* الحب والحرمان
- \* همسات مصرية
- \* صوت الملاك
- \* بنت الباشا
- \* بُثينه
- \* عابد المصري
- \* لقاء في الطائرة
- \* العصفور وأنا
- \* رجاله ورق للبيع .. ملهاة
- \* فهد الليل
- \* أيام من عمري

